

الكتاب المفقود



الكتاب المفقود  
والتراث



Bibliotheca Alexandrina

٩١٦١٥٩





# ابن هبيرة أبو الأندلس

عاصم مهند العقاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## خليل الرحمن وخليل الإنسان

في العالم اليوم أكثر من ألف مليون إنسان يدينون بالموسية والمسحية والإسلام ، وهي الأديان التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين يتّبعون جميعاً إلى الخليل إبراهيم .. لا جرم<sup>(١)</sup> يسمى خليل الرحمن ..

ولا جرم تجتمع الجهود كلها للبحث عن تاريخه المجهول في أغوار الأرض ، فإن علم الأحافير لم ينحصر في البحث عن تاريخ أحد فقط كما انحصر في البحث عن تاريخ ألى الأنبياء ، وما تجردت العوثرت إلى العراق وفلسطين ومصر لسؤال الأرض عن مكتون من أسرارها كذلك السر المكتون ، الذي ينطوي على أعمق أسرار الروح والضمير ..

قال منقب من أولئك المتقيين الذين عُرِفوا باسم الحفريين : إن الناس قد بدأوا بالحفر في الآثار طلباً للذهب ولقايا الخل والجوهر ، ثم عرف الناس شيئاً أنفس من تلك المعادن يبحثون عنه ويتهافتون على استخراجها .. وتحصيله : وهو التاريخ المقدس ، أو تاريخ المعانى العليا التي ترتفع به إلى السماء ، ولها مستودع في جوف الرغام<sup>(٢)</sup> ..

وكل شيء يغليه الإنسان يمحقه إلى ذلك السر الذي تقسمته الأرض والسماء .. فإلى جانب البحث عن أصول العقائد يبحث المتقيون في تاريخ الخليل عن فتح لا نظير لها في تاريخ الإنسان ..

وقد أكثر المؤرخون من القول في أنباء الفتوح التي غيرت مجرى التاريخ أو غيرت علاقة الإنسان كله بالعالم الذي يحيط به ويحيط به ..

ولكن المؤرخين لا يستطيعون أن يذكروا فحشاً من تلك الفتوح أعظم عملاً وأبقى أثراً في تاريخ الإنسان من تلك الفتوح التي افترضت بدعوة الخليل ..

إن دعوة الخليل قد افترضت بالتوحيد ، واقترن بميزان العدل الإلهي .. واقتربت بإعلاء العبادة إلى ما فوق الطبيعة والجيشان ..

(١) لا جرم : في الأصل بمنزلة ولاده ثم تحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة سفناً . (٢) الرغام : التراب .

وهذه هي الفتوح التي لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الإنسانية ، منذ أقدم عصورها إلى العصر الحديث ..

لا نظير لها فيما فتحه الإنسان من هذا العالم حين سحر النار أو سخر الحيوان أو سخر الكهرباء ، أو سخر النورة على جملة فعلها وضاللة قدرها ، وهي أقوى المسخرات فيما عرفه إلى اليوم ..

هذه فتوح فيما يملكه الإنسان ..

أما تلك الفتوح ففيها ملوك الإنسان كلهم ، فيما يعلمه وما لا يعلمه ، وفيما يدينه وفيما يخفيه ..

تلك فتوح غيرت عالم الإنسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادات سبقتها ، وإن كانت العبادة الفضلية غنائم يغليه من يقتنيه ، وينديمه بكل ما يعيه وما لا يعيه ..

كلا .. بل هي عبادة فضلي وفكرة فاضل ونظر جديد إلى الكون وإلى الإنسان وبشريته في وحدته وفي اجتماعه ..

وهي فتوح تصحيح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الإنسان بنفسه وبدنياه . وتحسب من أجل ذلك في سجلات العالم ورياضيات الخلق وقوانين الاجتماع .

إن حقائق الكون الكبير لن تكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادته ، ويتسلط عليها غيره بإرادته تنقضها وتغضي بها إلى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى . بل هو علم أصبح ونظر أصوب ومقاييس لقوانين الطبيعة أدق وأدق ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية ، وإن لم تبلغه دعوة الأنبياء ..

أما ميزان العدل الإلهي فهو الذي أقام المساواة بين الناس على دعماتها الراسخة . وكل ما عدتها من دعامة فإنما هي دعامة القوة من يقدر عليها ، سواء اقدر عليها بسطوته

الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء .. فإذا ارتفع الميزان إلى اليد الإلهية فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ، ندان<sup>(٣)</sup> متساويان ، ومخلوقان أمام خالق واحد . ما زاد من قوة أحدهما فهو من عطاء ذلك الحالى ، وما ينقص من قوة الآخر فهو من قضاءه ومن دواعي رحمة وبلاه ، وإليه المرجع في حسابه أو جزائه ، فلا يدخله أحد في حساب غير ذلك الحساب ، ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان .

وقد ارتفع الإنسان كله حين رفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، وحين أصبحت حاجته إلى العبود شئًا أرفع من مطالب الأبدان وضرورات الفرائض والطبع .. كان أقل من الطبيعة فأصبح أعظم منها ..

كان مسلوب الخليقة أمامها ، فأصبح له من فوقها مرجع لا يعنيه غضبها ورضاؤها ..

ولم يكن له إلا أن يخضع لها أو يتحال عليها ..  
فأصبح له أن يواجهها ويقف أمامها ، بل على أكتافها ..  
أصبح له كيانه الأدلى في وجهها ..

وليس الفتح المبين في هذا أنه يرى فيها ما يحسن وما لا يحسن ، وما يرضاه ضميره وما لا يرضاه ..

وإن الواقع الذي لا مرية فيه أن الإنسان قد ملك الدرة الصغرى فملك من الطبيعة قوتها الكبيرة ، وأنه خلائق بهذه القوة أن يضل ويطغى ، ولكن اليقين الحق أنه لن يكبح ذلك الطفيان من نفسه بقوة الطبيعة صغرًاها وكثيرًاها ، وإنما يكبحه — إذا قدر له أن يكبحه — بسلطان من ذلك الفتح المبين ، ما يبقى له وما زاد عليه بعد آلاف السنين .

هذه الفتوح قد عرفت جميعاً قبل عصر الخليل ، ولكنها لم تقترب بدعوة قط في عالم النبوة قبل دعوته عليه السلام .

<sup>(٣)</sup> ندان : الله : الشيء والمماثل .

وهذا هو الفارق المهم في العوالم وفي مراحل التاريخ ،  
أو هو الفارق بين دعوة النبي وبين غيرها من الدعوات .

فالتوحيد لم يكن مجهولاً قبل عصر إبراهيم ، وكذلك ميزان العدل الإلهي ، وكذلك  
عبادة «الحق» فوق الطبيعة وفوق مطالب الأبدان .

كان المصريون الأقدمون يؤمنون بالإله الواحد ، وكان من معتقداتهم أن للروح في  
العالم الآخر ميزاناً يقدر لها الحسنات والسيئات ، وكانت كلمة الله هي القوة التي تفعل  
ما تريد .

ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلها جاءت في زمن لم تتهيأ فيه النفوس للعلم  
بالوحديانية ونبذ الشرك وتعدد الأرباب .

وكانت في جملتها دعوة كهان يسترون ما يعلمون ولا يبواحون للناس بأسرار الديانة  
إلا بقدر .

وكان ميزان السماء يزن لكل روح حسناتها وسيئاتها ، ويحسب الملوك من الأرباب  
الذين يتصرفون في الأرواح خلال الحياة وبعد الممات ..

ولما جهر «إختناتون» بدعاية التوحيد والمساواة بين عباد الله صدرت دعوته من قصر  
الدولة كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تثبت أن بطلت في قصر الدولة نفسه  
بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وقوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ،  
لأنها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة .

وكان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلاً مقنعاً لمسألة الوجود ، أو  
كأنهم يعرفونه خالقاً للكون ، ولا يزيدون .

وما لا ريب فيه أن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر في صورة من الصور إلى  
بلاد المشرق ، ومنها بلاد البحر الأبيض ووادي النهرین .

وما لا ريب فيه أنها كانت سر المخاصة وذوى الرئاسة في المحاريب والقصور ، وأن  
تعدد الأرباب قد سرّى منها كذلك إلى الشعوب سريان العرف والمحاكاة ..

أما إله الواحد الذى افترن بدعوة إبراهيم فلم يكن حل مسألة ، ولم يكن سر أخبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد .  
بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، وإليه المرجع والمأب .

كانت عبادته «مسألة حية» تترج بسائل النفس وتبعد منها فضائل الخير ، ولا تنزو عنها زاوية في الكون ولا في ضمير الإنسان .

كانت دعوته صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزا يخفى وتسحاجي<sup>(٤)</sup> به العقول .

كانت صحة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهي صحة الخلود الذي لا يعرف الفناء .

ولم تصبح كذلك قبل رسالة النبوة حين أبى الله النبي أبو الأنبياء .. حين بشر بها إبراهيم ..

وما كان لنبوة واحدة أن تؤدى رسالة التوحيد وتفرغ منها في عمر رجل أو عمر جيل .. وإنما هي نبوة بعدها نبوات ..

ولو كانت دون ذلك خطرا الكفى أن تقوم بها دعوة واحدة ، وأن تتكلف لها يقائتها ، ولكان بها الغنى عن التعقب والتذكرة ..

ولكتها على خطرها هذا لا تم في رسالة واحدة ، ولا تستغني عن مرتفى بعد مرتفى ، ثم عن قرار بعد قرار .

وعاش الخليل ما عاش والتوحيد في قومه مشوب<sup>(٥)</sup> بالشرك والضلالة . وفارق الدنيا والخلفاء من بعده يتقدموه وينكسون ، ويستقيمون وينحرفون ، ولم ينقض من بعده عهد إلا وهو ينبيء الناس أنها نبوة تتلوها نبوات ، وأنهاأمانة موروثة في أعقابه لا تقطع في جيل ، ولا بد لها من ورثة أبرار .. ومن شرك في ذلك فainما هو شاك في بداعة العقل . ضرورة الزمن وحكم التاريخ ، فوق الشك في الكتب والأنبياء ..

(٤) تسحاجي : تجاجي القوم : تطارحوا الأحاديبي أى الأنفاس . (٥) مشوب : مخلوط .

وإنما المستحيل في العقول أن تفرد رسالة إبراهيم في أعقابه فلا تأتي بعدها رسالة في أولئك الأعقاب .

ولا دليل في العقول على نسب الأعقاب أقرب من هذا الدليل ، ولا دليل على المرسلين منهم أثبت منه عند النظر القوم .

فلو مضت رسالة إبراهيم بغير رسالة بعدها لكان هذا هو العجب المردود ، ولو قام بذلك الرسالات التالية فرع من غير أصله ، ونبت من غير معدنه لكان هذا عجب وأولى بالرّد والارتياح .

ولا يعقل العقل إلا أنه نبي أبو الأنبياء ، كما كان وكما ينبغي لا محالة أن يكون .. وكم بين توحيد الأعقاب وبين التوحيد كالتقاء عصر الخليل من بون بعيد . إنه لأبعد من مسافة الزمن بينهما ، وليس مسافة الزمن بيتهما بالشوط القريب .. ولكن الذي يبدأ لا بد أن يبدأ ، ولا بد أن يبدأ من خطوته الأولى ولا يبدأ من منتهائه ..

ولل ذلك المبدأ يرجع اليوم ألف مليون من بني الإنسان أو يزيدون ، لا أول لهم في قداسة الحياة غير ذلك الأول ، ولا رائد لهم في موازين العدل والصلاح قبل ذلك الرائد ، ومن خلف على أعقابه من الرواد .

ومن ذلك المبدأ شخص ذلك الركب الحاشد في طريقه إلى الله ، وتقدم من اسم الله ذي العرش إلى اسم الله الرحمن الرحيم .

إنه - لا جرم - خليل الرحمن .. وإنه - لا جرم - خليل الإنسان ..

وسيرته في الصفحات التالية هي سيرة الخليلين ، على هدى الأسلاف ، وعلى هدى الأعقاب ..

وعلى هدى الأسلاف والأعقاب ينبغي أن تكتب كل دعوة عامة ، وأن توصف كل بعثة نبوية خطوب بها الناس على اختلاف المدارك والمعرف والطبياع ..

فنحن لا نتصور الدعوة في صورتها الحقيقة الشاملة إلا إذا عرفنا صورتها في نفوس الخطابين بها ، سواء منهم من فهم أو من لم يفهم ، ومن أحسن الاعتقاد أو أساء .

وعلى قدر العلم بالضلاله نفهم عمل الهدایة التي أزالتها أو عالجت أن تزيلها بما كان لها من الجهد والوسيلة .

فلا غنى في دراسة تاريخ الخليل عن الإحاطة بما ورد عنه وقيل فيه من شتى المصادر في مختلف البيئات والعصور .

ويتفقنا الخطأ هنا كما يتفقنا الصواب .

بل الخطأ هنا من الصواب أفع ، لأن رسالة النبي قائمة على إزالة خطأ وتبين الضلاله فيه ، فعلى قدر ما نعلمه من جوانب الخطأ وخياليه نعلم القوة التي تتصدى له وتصلح لعلاجه والغلبة عليه .

ولهذا نود أن نلم في كتابة هذه السيرة بكل طرف ، وأن نذهب فيها إلى كل وجهة ، ولا نقتصر على المعتمد منها في مذهب واحد أو نحلة واحدة ، سواء عرضنا لها من ناحية الأديان أو من ناحية المباحث والأراء التي ردتها التواريخ وكشفت عنها البعث المحرفية من القرن الثامن عشر إلى الآن .

إن منهج البحث تعليه علينا طبيعة البحث نفسه في الزمن الذي نكتبه فيه ونحن ندرس سيرة الخليل كما ووضحت لنا منذ فاتحة القرن العشرين ولقد أثار القرن العشرون في هذه السيرة مشكلات لم يعرفها الأقدمون وأتى فيها بمعلومات من بطون الحفائر وخفايا الآثار ، لم تكن في حساب أحد من عرضوا هذه السيرة ، قبل مائة سنة .

من هذه المشكلات التي أثارها القرن العشرون وجود إبراهيم في التاريخ : هل هو شخصية تاريخية ، أو هو صورة من صور الخيال تجمعت حولها متفرقات العقائد من هنا وهناك ..

ومن المشكلات التي أثارها هذا القرن علاقة إبراهيم بمكة وبيت الله الحرام : هل ذهب إبراهيم إلى مكة ؟ وهل كانت له علاقة ببيت الله الحرام فيها أو تلك علاقة لم تفهم على سند صحيح من الواقع ، ولم تنجل الدراسات العصرية عما يؤيدتها بالدليل المقبول ..

ونحن نكتب هذه السيرة وأمامنا هذه المشكلات من مصادرها القوية ، وأمامنا كذلك أسبابها وأسباب الإعراض عنها والرد عليها ..

ونجملها بذلة فنقول إنها لا تقوم على سند من العلم سواء كان الباحث الحديث ينفي وجود إبراهيم جزما ويقينا أو يشك في وجوده ولا يقطع باليقين إلى جانب التفويض أو جانب الإثبات ..

فاللدي ينفي وجود إبراهيم جزما ويقينا لا يستند إلى حجة واحدة من حجج العلم ولا يزيد على مجرد الإنكار . والذى يشك يبني شكه على أسباب لا يعتبرها العلم ولا العقل من أسباب الشك في وجود شيء .. لأنه يستند في شكه إلى كثرة الأعاجيب والخوارق والأساطير التى تخللت سيرة إبراهيم كما رواها الأقدمون .

ومثل هذا السبب لم يطل وجود شيء فقط وإن كانت أدعاجيه وخرافاته وأساطيره بما ترفضه جميع العقول في العصر الحديث .

فهذه الشمس يضرب بها المثل في الظهور والثبوت ، وليس أكثر من الخرافات التي رویت عن مشرقها ومغاربها وعن نشأتها وحركتها ، وعن الديانات التي تقدسها وتفرض عبادتها ، وليس أكثر في العصر الحاضر من الخلاف على عمرها وحقيقة تكوينها وأسباب حرارتها وطبيعة مادتها ، لأنها هي طبيعة المادة على العموم .

والهرم الأكبر لا يترى في وجوده أحد ، ولم يذكر عن إبراهيم بعض ما ذكر عنه من الأسرار .

ومن الزرارة بالعلم أن يقوم الشك على غير أساس .. فليست الحقيقة خصما لنا في حكمتك تقول له : تقدّم أنت بمجموع أسانيدك وإلا أنكرنا عليك دعواك .. وإنما الحقيقة قضيتنا نحن وليس بدعوى خصم يلزمك الدليل ولا يلزمك .. فما لم يكن للشك سبب فهو زرارة بالعلم وزرارة بالعقل وزرارة بأمانة التفكير ..

ومن السخف أن تلزم الأقدمين بالبرهان على سيرة إبراهيم ولا تلزم به أنفسنا ، كأنهم أصحاب الشأن كلهم ونحن ثمة غرباء متفرجون .

فلا موجب للجزم بإنكار وجود إبراهيم ولا للشك في وجوده ، اعتقادا على كشف جديد من كشف العلم في القرن العشرين .

أما علاقته بمكة والبيت الحرام فالأمر فيها أتعجب من أمر المختلفين على «شخصيته التاريخية» ؛ لأن الذين ينكرون تلك العلاقة لم يدعوا لها سندًا من العلم ولا من الكشف العصري ، بل هم يعتمدون على بعض المصادر الدينية للجزم ببطلان المصادر الأخرى ، أو هم يعتمدون على المصادر الإسرائيلية للجزم ببطلان المصادر الإسلامية ولا شأن للعلم الحديث هنا .. بل هو تمييز رواية دينية على رواية دينية تناقضها ، ولا محل لإفحام العلم العصري بين الروايتين .

بل هناك محل للتحفظ الشديد في قبول الرواية الإسرائيلية ، لأنها امترجت بسياسة الملك والتنافر عليه ، وكل دعوى المملكة الإسرائيلية في الزمن القديم قائمة على الأسلوب الذي كتب به سيرة الخليل في أيامه الأخيرة على التخسيص .

هذه نظرتنا إلى المشكلات التي طرأت على سيرة إبراهيم في القرن العشرين ، وهذه نظرتنا إلى المعلومات التي أقى بها من كشفه وأحافيره وتعليقاته ، ومبلغ حقها في تحصيص السيرة أنها تفسر بعض الغواصات ولكنها لا تنفي «الشخصية التاريخية» ولا توجب الشك فيها بحججة علمية ، وسنرى أن المقابلة بين المعلومات الحديثة وروايات الكتب الدينية وروايات الأقدمين تؤدى لنا عملا غير النفي والإنكار والتردد بين الشك واليقين : تؤدى لنا عمل الغربال والمصفاة ، ولا تنفي غير الحالات<sup>(٢)</sup> والقصور وهذا سنرجع في سيرة الخليل إلى جميع مراجعتها .

سنرجع إلى كتب الأديان التي لها علاقة بسيرة الخليل ، وإلى كتب التواريخ وروايات الأقدمين ، وإلى كتب الباحثين في المفاهير والآثار ، ولا سيما الكتب التي تعمد مؤلفوها أن يبحثوا في مواطن السيرة ومقارنتها من الألف الثالثة قبل الميلاد ، بين آثار العراق وفلسطين ومصر والجزيرة العربية وغيرها من مطان السيرة التي تناхض تلك الأقطار .

(٢) الحالات : الحالة من الطعام : ما يخرج منه من زوان ونحوه مما لا يغير فيه غلوبي به ، والرد فيه من كل شيء ، وسفرة الناس .

والأديان التي ترجع إلى كتبها ومصادرها هي : الإسرائيلية ، واليسوعية ، والإسلام ، والصاينة ، هذه الديانة الأخيرة أقل الديانات ذكراً للخليل في كتبها ، ولكنها احتفظت بيقايا كثيرة من عقائد البابليين وأخذت من الديانات الوثنية والكتانية في فارس والعراق وفلسطين وجزيرة العرب ، فهي مرجع لا يُهمّل عند الكلام على دعوة تحصل بجميع هذه الديانات ..

ومنهجنا في الأخذ من المراجع أن نقتبس ما جاء في كتب الدين ثم نرده بتفسيره من كلام أهله وكلام الثقات عند أصحابها ، حتى نستخلص منها جمِيعاً لباب السيرة فيها ، ونستوفِّ منها ما تعطِيه من موضوعها .

وننتقل من كتب الأديان إلى التواريخ التي تعتمد عليها وعلى المؤثرات المروية ، ثم نشفع ذلك بمحصول التاريخ الحديث الذي استنبطه المفريون وعلماء الآثار من البحث في المراجع الأخرى .

ولا ننوي أن نفصم على هذه المراجع تعليقاً لا يستلزم سياقها ، بل نمشي مع كل مرجع مقبول أو غير مقبول حتى يقيم لنا معلماً هادياً من سالم الطريق ، وقد يجيء المعلم المادي من طريق الرفض كما يجيء من طريق القبول فإن الذي يقول لنا : لا تسيراوا من هنا كالذي يقول لنا سيراوا من هناك ، وكلها صالح للهداية واجتناب الضلال .

فإذا أوضحت هذه المعلم آخر الأمر لم تبق إلا الخلاصة التي يصح التعويل عليها ، وعلى قدر طول الطريق يكونقصد في ختامه ، لأنَّ الخاتم الذي تعددت من أجله المعلم والأعلام .

ونحن على رجاء مع القاريء أن تأتي هذه الخلاصة مصفاة من الشوائب والدخائـل ، وأن نستخرج منها صفة الخليل كما صحت في النظر بعد المقابلة بين مصادرها وأجزائها ، ونترك منها ما لا سيل إلى القول فيه على بيته وعلى ضوء هذه المعلومات مجتمعات .  
ونحن مبتدئون بالباب الأول فيما يتوحد من كتب العهد القديم ، ثم تابعوه بما يؤخذ من كتب الأديان على الترتيب ..

## المراجع الإسرائئيلية

أفضل سفر التكوين في سيرة إبراهيم عليه السلام ، وأثبتت مولده في «أور» الكلدانيين ، ورفع نسبة إلى سام بن نوح ، فهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن دعو ابن فالح ابن عابر بن ساخن بن ارفكشاد بن سام بن نوح ..  
وذكر أبناء تارح فقال : إنه ولد إبرام وناحور وحاران ، وإن حaran ولد لوطا ومات قبل أبيه في أرض ميلاده «أور الكلدانيين» .

وإن إبرام وناحور المذكورة زوجين ، اسمهما ساراى وملكة بنت حاران .. أما ساراى فهي بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء في الإصلاح العشرين على لسان إبراهيم : «وبالحقيقة أيضا هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست ابنة أمي فصارات لي زوجة» ..

وجاء في الإصلاح الحادى عشر أن «تارح أخذ إبرام ابنه ولوطا بن حاران ، وساراى ، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان ، فأتوا إلى أرض حاران<sup>(١)</sup> وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات في حاران» .

وجاء بعد هذا في الإصلاح الثانى عشر أن الرب قال لإبرام : «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريتك ، فأجعل لك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك من يياركك ومن يلعنك الله ، وفيك تبارك جميع قبائل الأرض ..

«فذهب إبرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط ..

وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران فأتوا إلى أرض كنعان ومعهم ذخائر وعيid وماشية ، واختار إبرام سكنه من شكيم<sup>(٢)</sup> إلى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون ..

(١) موقعها الآن بين حاور ونهر الفرات في شمال العراق .

(٢) في موقع نابلس الآن على الأرجح .

ووظهر الرب لإبرام وقال : لسلك أعطي هذه الأرض ، فبني هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له ، ثم التقل من هناك إلى الجبل ونصب خيمته شرقاً من بيت إيل من المغرب ولما من الشرق ، ثم والى رحلته إلى الجنوب ..

وأحدثت مجاعة في الأرض ، فانحدر إبرام إلى مصر ، وقال لسارى امرأته وهو على مقربة من مصر : إن علمت أنك امرأة حسنة المظاهر ، فإذا رأك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلوني ويستيقونك . قولي أنك أختى ليكون لي خير بسيك وتحيا نفسك من أجلك ..

«فلم دخل إبرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جداً ، ومدحها رؤساء فرعون لديه ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيراً يسبها وصار له بقر وغنم وحمير وعبد وإماء وائن وجمال .

«فضرب الرب فرعون وبنته ضربات عظيمة .. ودعا فرعون إبرام وقال له : ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخربني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت لي : هي أختى حتى أخذتها لتكون زوجى .. خذها وأذهب ، ووكل به أنساً شيعوه إلى خارج الديار ..

«وعاد إبرام إلى بيت إيل حيث كانت خيمته قبل انحداره إلى مصر ، ولم تحتمل الأرض إبرام ولوطاً ومن معهما من حاشية وماشية ، واشتعل رعائهما وحو لهم الكهانيون والفرزيون<sup>(٣)</sup> .

قال إبرام لأبن أخيه : «لا تكون مخالفة بيني وبينك ، وبين رعائى ورعاياك . إننا إخوان . أليست الأرض أمامتكم ؟ فاذهب حيث شئت . إن ذهبت شمالاً ذهبت أنا إلى اليمن وإن ذهبت يميناً ذهبت أنا إلى الشمال ونظر لوطن فرأى أمامه أرضًا خصبة كأرض مصر ، فاختار دائرة الأردن وارتحل مشرقاً ونقل خيامه إلى سدوم ، وأهلها جد أشرار .

وبقى إبرام في كتعان فقال له الرب : «ارفع عينيك وانظر في الموضع الذي أنت فيه من شرقه إلى مغربه ومن شماليه إلى جنوبيه ، فإني معطيك جميع الأرض التي تراها ولسلك من بعدك ، واجعل لك نسلاً كثراً الأرض لا يخصيه إلا من استطاع أن يخصى ترابها ، فاضرب في الأرض طولاً وعرضًا كما تشاء» .

(٣) لعلهم قبيلة من الكهانيين كانت تسكن العراء في قرى مسورة .

فُنِقَل إِبْرَامْ خِيَامَه وَأَقَامَ عَنْدَ بُلُوطَاتِ مَرَا الَّتِي هِي جِيَرُون<sup>(٤)</sup> وَبَنَى فِيهَا مَذَبَحًا  
لِلرَّب ..

وَنَشَبَ قَتَالٌ بَيْنَ أَمْرَاءِ الْبَادِيَةِ وَالْمُخْضَرِ فِي تِلْكَ الْبَقَاعِ فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومْ وَمَلِكُ  
عُمُورَةِ وَمَلِكُ أَدْمَةِ وَمَلِكُ صَبُورِ وَمَلِكُ بَالْعَنِ الَّتِي هِي صَوْغَرْ ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعْهُمْ  
فِي عُمَقِ السَّدِيمِ<sup>(٥)</sup> مَعَ كَدِرْلَعُورِ مَلِكِ عِيلَامْ ، وَتَدْعَالِ مَلِكِ جَوَيْمْ ، وَأَرِافَلِ مَلِكِ  
شَنْعَارْ ، وَأَرِيُوكِ مَلِكِ الْأَسَارْ ، أَرْبَعَةُ مَلُوكٍ مِنْ خَمْسَةِ ..

وَعُمَقِ السَّدِيمِ كَانَ فِي آيَارِ حَمْرَ كَثِيرَةَ ..

فَهَبَرَ مَلِكَا سَدُومْ وَعُمُورَةَ وَسَقَطَا هَنَاكْ ، وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ ، فَأَخْذَنَا  
جَمِيعَ أَمْلَاكِ سَدُومْ وَعُمُورَةِ ، وَجَمِيعَ أَطْعَمَتْهُمْ وَمَضَوْا .

وَأَخْذَنَا لَوْطَا أَبْنَى إِبْرَامَ وَمَضَوْا ، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومِ .

فَأَقَى مِنْ نَجَا وَأَخْبَرَ إِبْرَامَ الْعِرَابِيَّ ، وَكَانَ سَاكِنًا عَنْدَ بُلُوطَاتِ مَرَا الْأَمْوَرِيَّ ، أَخَى  
أَشْكُولِ وَأَخَى عَانِرِ ، وَكَانُوا أَصْحَابُ عَهْدِ مَعَ إِبْرَامِ . فَلَمَّا سَمِعْ إِبْرَامَ أَنَّ أَخَاهُ سَيِّ  
جَرْ غَلْمَانَهُ الْمُشْمَرَنِينَ وَلَدَانَ بَيْتِهِ ، وَعَدْتَهُمْ ثَلَاثَةَ وَثَمَانِيَّ عَشَرَ ، وَتَعْبُهُمْ دَانَ ، وَدَهْمَهُمْ  
لِيَلَا هُوَ وَعْبُدُهُ فَكَسَرُوهُمْ ، وَتَعْبُهُمْ إِلَى حَوْبَةِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ دَمْشَقَ وَاسْتَرْجَعُ  
مَا أَخْذَوْهُ ، وَاسْتَرْجَعَ لَوْطَا أَخَاهُ أَيْضًا وَسَبِّيَ النِّسَاءَ وَالرِّجَالِ ..

فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومْ لِاستِقْبَالِهِ بَعْدَ رَجُوعِهِ ، وَأَنْجَرَ (مَلِكِي صَادِقَ) مَلِكَ شَالِيمَ خَبْرًا  
وَخَمْرًا ، وَكَانَ كَاهْنًا لِلَّهِ الْعَلِيِّ ، فَبَارَكَ إِبْرَامَ وَقَالَ :

مَبَارِكُ إِبْرَامَ مِنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَبَارِكُ اللَّهِ الْعَلِيِّ الَّذِي أَسْلَمَ  
أَعْدَاءَكَ إِلَيْكَ . فَأَعْطَاهُ إِبْرَامَ عَشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَقَالَ مَلِكُ سَدُومُ : أَعْطِنِي  
الْفَوْسَ . أَمَا الْأَمْلَاكَ فَخَذْلَهَا لِنَفْسِكَ .

فَقَالَ إِبْرَامُ لِمَلِكِ سَدُومِ : رَفِعْتَ يَدِي إِلَى الرَّبِّ إِلَهِ الْعَلِيِّ ، مَالِكِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،  
لَا أَخْذُنَ حَيْطًا وَلَا شَرَكَ نَعْلَ وَلَا شَيْئًا مَا هُوَ لَكَ ، فَلَا تَقُولُ : إِنِّي أَغْنَيْتُ إِبْرَامَ .  
لَيْسَ لِي إِلَّا مَا أَكَلَهُ الْفَلَمَانِ . وَأَمَا نَصِيبِ الرِّجَالِ الَّذِينَ ذَهَبُوا مَعِيْ : عَانِرَ وَأَشْكُولَ  
وَمَرَا ، فَلَهُمْ نَصِيبُهُمْ يَاخْذُونَهُ ثُمَّ خَاطَبَ الرَّبِّ إِبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلًا : لَا تَخْفَ يَا إِبْرَامَ .  
أَنَا تَرَسُّ لَكَ ، وَأَجْرُكَ عَظِيمٌ .

(٤) هِي الْيَوْمُ الْخَلِيلُ . (٥) هِي بَرِ الْمَلْحِ .

قال إبرام : أَيُّهَا السِّيدُ الرَّبُّ ، مَاذَا تَعْطِينِي وَأَنَا ماضٌ عَقِيمًا ، وَمَالِكٌ بَيْتِي هُوَ الْبَعْرُ الدَّمْشَقِي<sup>(٦)</sup> .

وقال إبرام أيضًا : «إِنِّي لَمْ تَعْطِنِي نِسْلًا ، وَهَا هُوَ ذَا ابْنِي بَيْتِي وَارْثَتِي ... فَكَانَ كَلَامُ الرَّبِّ لَهُ : لَا يَرِئُكَ هَذَا . بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ هُوَ وَارِثُكَ . ثُمَّ قَادَهُ إِلَى الْخَارِجِ وَقَالَ : انظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعَدَ النَّجُومَ إِنْ أَسْتَطَعْتَ .. هَكَذَا يَكُونُ نِسْلُكَ .

فَآمَنَ بِالرَّبِّ ، فَحَسِبَهُ لَهُ حَسْنَةً ، وَقَالَ لَهُ : أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيَّنَ لِيَعْطِيكَ هَذِهِ الْأَرْضَ تِرْثَتِهَا .

فَقَالَ : أَيُّهَا السِّيدُ الرَّبُّ ! يَمَّاذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرْثَاهَا .

قَالَ : خُذْ عَجْلَةً ثَلَاثَةً ، وَعَنْزَةً ثَلَاثَةً ، وَكَبِشاً ثَلَاثَيَا ، وَيَمَّا مَوْهَمَةً وَحَمَّامَةً .

فَأَخْذَ هَذِهِ كُلَّهَا وَشَقَّهَا مِنَ الْوَسْطِ وَجَعَلَ كُلَّ شَقٍّ مُقَابِلًا صَاحِبَهُ ، وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشْقَهُ . وَجَعَلَ إِبْرَامَ يَرْجُرُ الْجَوَارِحَ التَّيْ تَهْبِطُ عَلَيْهَا .

وَلَا صَارَتِ الشَّمْسُ إِلَى الْمُغَيْبِ وَقَعَ عَلَى إِبْرَامَ سِيَّاتٍ وَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ رِعْبَةٌ عَظِيمَةٌ ، فَقَالَ إِبْرَامُ : أَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّ نِسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَ لَهُمْ يَسْتَعْدِدُونَ فِيهَا وَيَسْتَدِلُّونَ أَرْبِعَمِائَةَ سَنَةٍ ، ثُمَّ أَدِينُ الأُمَّةَ التَّيْ تَسْتَعْدِدُهُمْ ، فَيَخْرُجُونَ بِأَمْلاَكَ جَزِيلَةً ، وَتَمَضِي أَنْتَ إِلَى آبَائِكَ بِسَلَامٍ ، وَتَدْفَنُ بِشَيْءَةٍ صَالِحةٍ ، ثُمَّ يَرْجِعُ نِسْلُكَ فِي الْجَيْلِ الرَّابِعِ إِلَى هَذَا ، إِذَا لَمْ يَمِدْ ذَنْبُ الْأُمُورِيَّنَ .

«ثُمَّ غَابَتِ الشَّمْسُ وَرَأَتِ الْعَتمَةَ عَلَى الْأَفْقِ ، وَإِذَا تَنُورُ دُخَانٍ وَمَصْبَاحٍ نَارٍ يَجُوزُ بَيْنَ تِلْكَ الشَّطَّوَرِ .

«وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ<sup>(٧)</sup> مَعَ إِبْرَامَ مِيقَاتَهُ قَائِلًا : لِنِسْلِكَ أَعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْضَ مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفَرَاتِ : الْقَيْنِيَّنَ وَالْفَرَزِيَّنَ وَالْقَدْمُونِيَّنَ وَالْخَشِينَ وَالْفَرَزِيَّنَ وَالْأُمُورِيَّنَ وَالْكَعْنَاعِيَّنَ وَالْجَرْجَاشِيَّنَ وَالْبَيْوَسِيَّنَ» .

\* \* \*

(٦) هو ي McNabb أمين الدر الموكيل بشئونه ويلاحظ أن جملة حروف الاسم - وهو يكتب بالعبرية بغير ألف بعد العين تساوي ٣١٨ عدد الكلمات ، وهذا يقول بعض المفسرين أن الاسم كافية عن العدد .

(٧) من العادات المرعية في كثير من أتم الرعاة أن يمر المعاهمدون بين شفين من ذبيحة ، ويرد بعضهم قوله «لقطع عهداً إلى هذه العادة» .

ورجع الإصلاح السادس عشر إلى ساراي فجاء في أنها لما تلد دفعت جاريتها المصرية «هاجر» إلى إبرام وقالت له : هو ذا الرب قد أمسكتني عن الولادة .. فادخل إلى جاريتي لعل أرزق منها بنتن ..

فلما رأت هاجر أنها حبت «صغرت مولاتها في عينيها ، فقالت ساراي لإبراهيم : ظلمي عليك ! دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رأت أنها حبت صغرت في عينيها . وبقضى الرب بيئي وبينك .

«فقال إبرام لساراي : «هو ذا جاريتك في يدك . افعلي بها ما تحسن في عينيك ، فأذلتها ساراي ، فهربت من وجهها .

«فوجدها ملاك الرب على عين الماء البرية ، على العين التي في طريق شور<sup>(٤)</sup> ، وقال : يا هاجر جاري ساراي أ من أين أتيت ؟ وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولالي ساراي . فقال لها ملاك الرب : ارجعى إلى مولاتك وانضمي تحت يديها . وقال لها ملاك الرب : تكثروا أكثر نسلك فلا يخصى ، وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبيل وتلدين ابنا وتدعنه إسماعيل . لأن الرب قد سمع لضراعتكم . وأنه يكون إنساناً وحشياً<sup>(٥)</sup> . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع إخوته يسكن ..

وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة ولدت هاجر إسماعيل ..  
ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة (الإصلاح السابع عشر) ظهر الرب لإبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامي وكن كاملاً فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً . فخر إبرام ساجداً ، وتكلم الله معه قائلاً : أما أنا فهو ذا عهدي معك ، وتكون أياً جمهور من الأمم ، فلا يدعني أسلك بعد اليوم إبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم . لأنني أجعلك أياً جمهور من الأمم ، وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمّا ، ومنك ملوك يخرجون ، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبداً ، لا تكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك ، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبداً وأكون إلهاً لهم . وقال الله لإبراهيم : وأما أنت فتحفظ

(٤) كانت في الجنوب الغربي من فلسطين بين مصر وكنعان .

(٥) الكلمة العربية تفيد معنى الشدة والخشونة «قرأ آدم» وقد تفيد في معناها كلمة متآبدة العربة .

عهدي . أنت ونسلك من بعدي في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدي . يختن منك كل ذكر .. فيكون علامه عهد بيني وبينكم . اب ثانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم . وليد البيت والمتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك .. فيكون عهدي في لحكم عهداً أبداً . وأما الذكر الأغلق .. فتقطع تلك النفس من شعبها . أنه نكث عهدي ..

وقال الله لإبراهيم : ساراً امرأتك لا تدعوا اسمها ، ساراً ، بل سُمِّها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابنا .. فخر إبراهيم ساجداً وضحك ، وقال في قلبه : هل يولد لابن مائة سنة ! وهل تلد سارة وهي بنت تسعمين سنة ؟

وقال إبراهيم لله : ليس إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعوه إسحاق ، وأقيم عهدي له عهداً أبداً لنسله من بعد ..

وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . اثنى عشر رئيساً يلد . وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدي أقيمه لإسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية ، فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم .

فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته ، وجميع المتابعين بفضة وختنم .. وكان إبراهيم ابن تسعمائة سنة حين ختن ، وإسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة ..

وظهر له الرب عند بلوطات مرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، وإذا ثلاثة رجال وافقون لديه ، فلما نظر ركبض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض ، وقال : ياسيد ! إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عهديك ، ليؤخذ قليل ماء . واغسلوا أرجلكم واتكروا تحت الشجرة ، فأخذ كسرة حبز فستدون قلوبكم ثم تجذرون . لأنكم قد مررت على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت ..

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة ، إلى سارة ، وقال : اسرعى بثلاث كيلات دقيقاً سيداً . اعجنى وأصنعي حبز ملة<sup>(١٠)</sup> ، ثم ركبض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلة رخصا<sup>(١١)</sup> جيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا ..

(١٠) حبز ملة : الله : الرماد الحار ، وحبز : ما يغير فيه . (١١) رخصا : ناعماً لينا .

«وَقَالُوا لَهُ : أَيْنَ سَارَةُ امْرَأَتِكَ ؟ قَالَ : هَا هِيَ فِي الْخِيمَةِ . قَالَ : إِنِّي أُرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ - أَيْ الرِّبَيعِ - وَيَكُونُ لِسَارَةِ امْرَأَتِكَ أَبْنَى ..

«وَكَانَتْ سَارَةُ سَامِعَةً فِي بَابِ الْخِيمَةِ ، وَهُوَ وَرَاءُهُ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ شِيفِينْ مُتَقَدِّمِينَ فِي الْأَيَامِ . وَقَدْ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةِ عَادَةً كَالنِّسَاءِ . فَضَحَّكَتْ سَارَةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً : أَبْعَدْتَ فَتَنِي يَكُونُ لَهُ مَتْعَةً وَسِيدِي قَدْ شَاخَ ؟ قَالَ إِلَرَبُّ إِبْرَاهِيمُ : لِمَاذَا ضَحَّكَتْ سَارَةُ ؟ إِنَّهَا قَائِلَةٌ بِالْحَقِيقَةِ : أَتَرَانِي أَلَدُ وَأَنَا قَدْ شَخْتُ ؟ فَهَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ بِشَيْءٍ ؟ فِي الْمِعَادِ أُرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةِ أَبْنَى !

«فَأَنْكَرَتْ سَارَةُ قَائِلَةً : لَمْ أَضْحِكْ ! لَأَنَّهَا خَافَتْ . قَالَ : لَا بَلْ ضَحَّكَتْ ..

«ثُمَّ قَامَ الرِّجَالُ مِنْ هَنَاكَ وَتَطَلَّعُوا نَحْوَ سَدُومَ ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ مَاشِيَا مَعَهُمْ لِيُشَيِّعُهُمْ ، قَالَ الرَّبُّ : هَلْ أَخْفَى عَنِ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَكُونُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَقُوَّيَّةً وَيَسْبَرُكَ بِهِ جَمِيعَ أُمَّ الْأَرْضِ ! إِنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِي بِنِيهِ وَبِيَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ وَلِيَعْلَمُوا بِرَا وَعَدْلًا وَيُؤْفَى الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ مَا وَعَدَ .

«وَقَالَ الرَّبُّ : إِنْ صَرَّا خَسْرَانَ سَدُومَ وَعُمُورَةَ قَدْ كَثُرَ ، وَخَطِيَّتِهِمْ قَدْ عَظَمَتْ جَدًا . إِنِّي نَازِلُ أَرْيَ هَلْ فَعَلُوا حَقًا حَسْبَ صِرَاطِهَا الْآتَى إِلَيَّ . وَإِلَا فَاعْلَمُ .

«وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هَنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ ..

«وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزِلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ ..

«فَتَقْدِمُ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ : أَفْتَهْلِكَ الْبَارِ مَعَ الْأَثْيَمِ ؟ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًا فِي الْمَدِينَةِ . أَفْتَهْلِكَ الْمَكَانَ وَلَا تَصْفُحُ عَنِهِ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينِ .. حَاشَا لِكَ أَنْ تَفْعَلْ هَذَا الْأَمْرِ .. أَدِيَانُ كُلِّ الْأَرْضِ لَا يَصْنَعُ عَدْلًا ؟

«فَقَالَ الرَّبُّ : إِنْ وَجَدْتَ فِي الْمَكَانِ خَمْسِينَ بَارًا فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ ..

«فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ : إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أَكْلَمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تَرَابٌ وَرَمَادٌ ، رَبِّيَا نَقْصُ الْخَمْسُونَ بَارًا خَمْسَةَ . أَهْلِكَ كُلَّ الْمَدِينَةَ بِالْخَمْسَةِ ؟ قَالَ : لَا أَهْلِكَ إِنِّي وَجَدْتُ هَنَاكَ خَمْسَةَ وَأَرْبَعينَ .

«فَعَادَ يَكْلِمُهُ أَيْضًا وَقَالَ : عَسَى أَنْ يَوْجَدْ هَنَاكَ أَرْبَعونَ قَالَ : لَا أَفْعَلُ مِنْ أَجْلِ الْأَرْبَاعِينِ . قَالَ : لَا يَسْخُطُ الْمَوْلَى ، فَأَتَكْلِمُ . عَسَى أَنْ يَوْجَدْ هَنَاكَ عَشْرُونَ . قَالَ

لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط : عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة ..

«ذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ، ورجع لإبراهيم إلى مكانه .. فجاء الملاكان إلى سدوم مساء ، وكان لوط جالسا في باب سدوم ، فلما رأهما لوط قام لاستقباهمَا وخر ساجدا ، وقال : يا سيدي . ميلا إلى بيت عبد كا وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، فقلما : لا . بل بالساحة نيت» .

وتم الإصلاح التاسع عشر بقصة هلاك سدوم ، ثم عاد الإصلاح العشرون إلى قصة إبراهيم فجاء فيه أنه انتقل من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار .

«قال إبراهيم عن سارة امرأته هي أخرى ، فأرسل (إيمالك) ملك جرار وأخذ سارة . فجاء الله إلى (إيمالك) في الحلم وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها ذات بعل ، ولم يكن (إيمالك) قد اقترب منها ، فقال : يا سيدي ! أقتل أمة بارة ؟ ألم يقل لي هو : إنها أخرى ؟ ألم تقل هي نفسها : إنه هو أخرى ؟ بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا . فقال له الله في الحلم : أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا ، وأنا أيضا أمسكتك أن تخطئ إلى . لذلك لم أدعك تمسمها . فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبى ، وسيصل لأجلك فتحيا ، وإن كنت لا تردها فإنك ومن لك ميتون ..

.. وأخذ إيمالك غنا ويقرا وعيدها وإماء وأعطها لإبراهيم ، ورد إليه سارة امرأته ، وقال إيمالك : هو ذا أرضي قدامك ، تسكن منها ما حسن في عينيك . وقال لسارة : إن قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة . هاهو لك غطاء عيني .

.. وصل إبراهيم إلى الله فشفى الله إيمالك وامرأته وجواريه فولدن . لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت إيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم ..

ثم جاء في الإصلاح الحادى والعشرين أن سارة ولدت إسحاق وختنه إبراهيم وهو ابن ثمانية أيام ، وكان إبراهيم قد أوفى على المائة ، وقالت سارة : قد جعل الله لي ضحكا وجعل كل من يسمع بأمرى يضحك .

.. ورأى ابن هاجر المصرية يزح .. فقللت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق . فقبع الكلام جدا في عينى إبراهيم ..

«قال الله لإبراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل حاربك ، واسمع كل ما تقوله سارة ، لأنك بإسحاق يدعى لك نسل ، وابن المخارية أيضاً سأجعله أمة لأنك نسلك .

«فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء ، وأعطاهما هاجر واضعاً إياهما على كتفها وصرفها .

«مضت وتأهت في برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القرية طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيداً على مرمى القوس ، لأنها قالت: لا أنظر موت الولد . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومي أحمل الغلام وشدي يدك به . لأنك سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القرية ماء وسقطت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكير ، وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس ، وسكن في برية فاران ، وأنحدرت له أمه زوجة من أرض مصر .

«وحدث في ذلك الزمان أن إيمالك وفيه رئيس جيشه كلما إبراهيم قاتلين : والله معلم في كل ما أنت صانع . فالآن أحلف لي بالله هنا أنت لا تقدر بي ولا يسللي وذربي ، وكالمعلوم الذي صنعت إليك تصنع إلى وإلى الأرض التي تغربت فيها .

«فقال إبراهيم : أنا أحلف ، وعاتب إيمالك في بئر الماء التي اغتصبها عبيده . فقال إيمالك : لم أعلم من فعل هذا الأمر . أنت لم تخبرني وأنا ما سمعت سوى اليوم .

«فأخذ إبراهيم غناً وبقراً وأعطى إيمالك ، فقطعاً كلاماً ميشاقاً ..

«وأقام إبراهيم سبع نعاج وحدها . فقال إيمالك لإبراهيم : ما هي هذه النعاج التي أقمتها وحدها ؟ فقال : إنك تأخذ من يدي سبع نعاج لكن تكون لي شهادة بأنني حضرت هذه البقر . لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع . لأنهما هناك حلفاً كلاماً .

«قطعاً ميشاقاً في بئر سبع ، ثم قام إيمالك وفيه رئيس جيشه ، ورجعوا إلى أرض الفلسطينيين ، وغرس إبراهيم أثلاً<sup>(١)</sup> في بئر سبع ، ودعا هناك باسم رب الإله السرمدي . وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أيامًا كثيرة ..

وتأنى بعد ذلك قصة الوفاء بإسحاق ..

وإن الله قد امتحن إبراهيم ..

«فقال له : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه - إسحاق - وادهب إلى أرض المريا وأصعده هناك .. فبكراً إبراهيم صباحاً وشدَّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه ، وإسحاق ابنه ، وشقق حطباً لحرقة ، وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله .»  
«وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد ، فقال لغلاميه : اجلساً أنتما هنا مع الحمار . وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكمَا .»  
«فأخذ إبراهيم حطب الحرقة ووضعه على إسحاق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين . فذهبَا كلاهما معاً .»

«وكلم إسحاق إبراهيم أبياه وقال : يا أبي فقال : ها أنا ذا يابني . فقال : هو ذا النار والخطب ، ولكن أين الحروف للمحرقة .»  
«قال إبراهيم : الله يرى له حروف الحرقة يابني . فذهبَا كلاهما معاً .»

«فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله ، بني إبراهيم هناك المذبح ورئب الخطب ، وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الخطب ، ثم مدَّ إبراهيم بيده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء . وقال : إبراهيم ! إبراهيم ! قال : ها أنا ذا .»  
«قال : لا تند يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً ، لأن الآن علمت أنك خائف الله ، فلم تمُسْكَ ابنك وحيدك عنِّي ..»

«ورفع إبراهيم عينيه ، ونظر ، وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه ، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده حرقة عوضاً عن ابنه فدعى إبراهيم اسم ذلك الموضع (يهوه يراه) حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب يرى ..»

«ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء ، وقال : بذلك أقسمت . إنـي - من أجل أنك فعلت هذا الأمر ، ولم تمُسْكَ ابنك وحيدك - أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء ، وكالرمل الذي على شاطئ البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك في نسلك جميع أمـّ الأرض ، من أجل أنك سمعت لقولي .»

ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا جميعاً إلى بئر سبع .

وحدث بعد هذه الأمور أن إبراهيم أخبر وقيل له : هو ذا ملكة قد ولدت هي أيضاً بين لناحور أخيك : عوصاً بكره ، وتوزاً أنحاه ، وفموئيل أباً أرام ، وكاسدو

وحرزوا وفلداش ويدلاف ويتؤيل ، وولد بتوئيل رقه .. هؤلاء الثانية ولدتهم ملكة لناحور أخرى إبراهيم : وأما سريته - واسمها زومة - فولدت هي أيضا طابع وجاحم وتأحش ومعكة .

وأنبا الإصلاح الثالث والعشرون بموت سارة وهي في السابعة والعشرين بعد المائة . ماتت في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان . فأقى إبراهيم ليندب سارة ويسكي عليها ، وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلاً : أنا غريب ونزل عنكم ، أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي . فأجاب بني حث إبراهيم قائلاً له : اسمعنا يا سيدي . أنت رئيس من الله يبيتنا . في أفضل قبورنا ميتك ، لا يمنع أحد هنا قبره عنك .. فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض ، لبني حث ، وكلمهم قائلاً : إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتتسوا لي من عفرون ابن صور عافرون جالسا بين بني حث ، فأجابه على مسمع من قومه لدى جميع الداخلين بباب مديتها قائلاً : لا يا سيدي .. اسمعني .. الحقل وهبتك إياه ، والمغاربة التي فيه لك وهبتك .. فسجد إبراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون في مسامع شعب الأرض قائلاً : بل إن كنت أنت إياه فليتك تسمعني . أعطيتك ثمن الحقل فأدفن ميتي هناك . فأجاب عفرون إبراهيم قائلاً له : يا سيدي ! اسمعني . أرض بأربعمائة شاقل فضة ، ما هي بيتي وبينك ؟ فادفن ميتك . فسمع إبراهيم لعفرون وزن إبراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث : أربعمائة شاقل فضة جائزة عند التجار .

\* \* \*

وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام<sup>(١٢)</sup> ، وباركه رب في كل شيء وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له : ضع يدك تحت فخذى ، فأستحلفك بالرب إله السماء ، وإله الأرض ، لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكعنائين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضي نوعشرق تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحاق . فقال له العبد : ربما لا تشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض . هل أرجع بابنك إلى الأرض التي خرجت منها ؟ فقال إبراهيم : احترز من أن ترجع بابنى إلى هناك : الرب إله السماء الذي أخذنى من بيت أبي ، ومن أرض ميلادي ، والذى كلمنى ، والذى أقسم لي قائلاً لسلك

أعطي هذه الأرض ، هو يرسل ملائكة أمامك فتأخذ زوجة لابن من هناك ، وإن لم تنشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفي هذا . أما ابني فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه ، وحلف له على هذا الأمر .

«ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ، ومضى وجميع خيرات مولاه في يده ، ققام وذهب إلى أرام النهرين ، إلى مدينة ناحور ، وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء ، وقت خروج المستقيمات ، وقال : أيها الرب إله سيدى إبراهيم ! يسر لليوم وأصنع لطفا إلى سيدى إبراهيم . ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء ، فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلى جرتك لأشرب فتقول أشرب ، وأنا أنسقى جمالك ، هي التي عيّتها لعبدك إسحاق ، وبها أعلم أنت صنعت لطفا إلى سيدى .

«وإذ كان لم يفرغ بعد من الكلام ، إذا رفقة التي ولدت بتوئيل بن ملكة امرأة ناحور أختي لإبراهيم خارجة وجرتها على كتفها ، وكانت الفتاة حسنة المنظر جداً وعذراء لم يعرفها رجل ، فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت ، فركض العبد للقاها وقال : اسقيني قليل ماء من جرتك . فقالت : أشرب ياسيدى وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته وما فرغت من سقيه قالت : استقى جمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب ، فأسرعت وأفرغت جرتها في المسقة وركضت أيضاً إلى البئر لستقى ، فاستقت لكل جماله ، والرجل يتفرس فيها صامتاً ليعلم ألم يخرج الرب طريقه أم لا . وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزانة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شوافل ذهب ، وقال : بنت من أنت ؟ أخبريني هل في بيت أبيك مكان ثمين وعلف كثير ، ومكان لبيتوا أيضاً . فخر الرجل وسجد للرب وقال : مبارك الرب إله سيدى لإبراهيم ، الذي لم يمنع لطفه وحقه عن سيدى . إذ كنت أنا في الطريق هداي الرب إلى إخوة سيدى ، فركضت الفتاة وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور .

«وكان لرفقة أخي اسمه لابان ، فخرج لابان إلى الرجل خارجاً إلى العين .

\*\*\*

ويل هذا (في الإصلاح الرابع والعشرين) وصف العبد ما حدث له حتى التقى بالفتاة فأجاب لابان بتوئيل وقالا : من عند الرب خرج الأمر . لا نقدر أن نكلمك بشر

أو خير . هؤلا رفقة قدامك . خذها واذهب ، فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب ، وكان عندما سمع عبد إبراهيم كلامهم أنه سجد للرب إلى الأرض ، وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثيابا وأعطياها لرفقة ، وأعطي تحفأ لأخيها وأمها ، فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا ، ثم قاموا صباحا فقال : أصرفوني إلى سيدى ، فقال أخوها وأمها : تهكث الفتاة عندنا أياما أو عشرة ، وبعد ذلك تمضي» .

واستشيرت الفتاة فقبلت أن تذهب مع العبد ، فصرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبد إبراهيم ورجاله ، وباركوا رفقة ، وقالوا لها : أنت أختنا . صدرى ألف ريات<sup>(١٤)</sup> ، وليرث نسلك بباب مبغضيه ..

«فقامت رفقة وفياتها وركبت على الجمال وتبعن الرجل ، فأخذ العبد رفقة ومضى .. «وكان إسحاق قد أتى من ورود بئر حتى رأى . إذا كان ساكنا في أرض الجنوب ، وخرج ليتأمل في الحقل عند إقبال المساء ، فرفع عينيه ونظر وإذا جمال مقبلة ، ورفعت رفقة عينيها فرأيت إسحاق فنزلت عن الجمل ، وقالت للعبد : من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا ؟ فقال العبد : هو سيدى ! فأخذت البرقع وتقطعت ، ثم حدث العبد إسحاق بكل ما جرى ، فأدخلتها إسحاق إلى خباء سارة أمها ، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأخيها ، فتعزى إسحاق بعد موت أمها .

«وعاد إبراهيم - الإصلاح الخامس والعشرون - فأخذ زوجة اسمها قطرورة ، فولدت له زمان ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوبا ، وولد يقشان شبا ، وددان ، وكان بنو ددان أشوريم ولطوشيم والأميم ، وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع وألدعة : جميع هؤلاء بنو قطرورة ..

«وأعطى إبراهيم إسحاق كل ما كان له ، وأما بنو السرارى اللوق كانت لإبراهيم فأعطياهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا ، إلى أرض المشرق ، وهو بعد يقيد الحياة ..

«وهذه أيام سنى حياة إبراهيم التى عاشها : مائة وخمس وسبعين سنة ، وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ، شيخا شبعان أياما ، وانضم إلى قومه ، ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناء فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صور الحشى الذى أمم ممرا ..

(١٤) ريات : جمع رية بفتح الراء وهي عشر كرات ، والكرة مئة ألف .

.. وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذين ولدت هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم : نبأيوث بكر إسماعيل ، وقیدار ، وادیل ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتبما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة .. هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم يديارهم وحصونهم : اثنى عشر رئيسا حسب قبائلهم ، وهذه سنو حياة إسماعيل : مائة وسبعين وثلاثون سنة ..

ه وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه ، وسكنوا من حولية إلى شور التي أمام مصر .  
وهذه مواليد إسحاق بن إبراهيم .. ولد إبراهيم إسحاق . وكان إسحاق بن أربعين سنة لما اتخد لنفسه زوجته رفقة بنت بتوليل الأرامي ، أخت لابان الأرامي ، من فدانه أرام .

ووصل إسحاق إلى الرب لأجل أمرأته ، لأنها كانت عاقرا ، فاستجاب له الرب فحبّلت رفقة امرأته ، وتراحم الولدان في بطنهما ، فقالت : إن كان هكذا فقيم أنا عائشة؟ .. مضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب : في بطلك أمتن ، ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب ، وكبير يُستبعد لصغر ..

(فلما أكملت أيامها لتلد إذا في بطئها توأمان ، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر ،  
فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج آخره ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه  
يعقوب ، وكان إسحاق ابن ستين سنة ولدتهما ..

(فكثير الغلامان ، وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد : إنسان البرية ، ويعقوب إنسانا  
كاما يسكن الخيام ..

(فأحب إسحاق عيسو لأن في فمه صيدا

(وأما رفقة فكانت تحب يعقوب

(وطبيخ يعقوب طبيخا فأنى عيسو من المقل وهو قد أعيما ، فقال عيسو ليعقوب :  
أطعمني من هذا الأحمر ، لأنى قد أعييت . لذلك دعى اسمه أدوم ..

(قال يعقوب : يعني اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض إلى الموت ..  
فما جدوى البكورية؟ فقال يعقوب : احلف لي اليوم ، فحلف له . فباع بكوريته  
ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خيزا وطبيخ عدس ، فأكل وشرب ومضى .

وتكرر في الإصلاح السادس والعشرين وصف الحادث الذي جرى لإبراهيم مع  
إيصالك ، فجاء فيه أنه حدث «جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم فذهب

إسحاق إلى إيمالك ملك الفلسطينيين .. وسألته أهل المكان عن امرأته فقال: هي أختي ، لأنه خاف أن يقول امرأق لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت الأيام هناك أن إيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر ، وإذا إسحاق يلاعب رفقة امرأته ، فدعا إيمالك إسحاق وقال : إنما هي امرأتك . فكيف قلت هي أختي ؟ فقال له إسحاق لأنى قلت لعلى أموت بسببها ، فقال إيمالك : ما هذا الذي صنعت بنا ؟ لو لا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبنا ، فأوصي إيمالك جميع الشعب قائلاً : الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت» .

وفي الإصلاح التاسع والعشرين أن يعقوب تزوج راحيل بنت خاله لابان ، وكانت عاقراً كما جاء في الإصلاح الثلاثين ، فقالت : هو ذا جاريتي بلهه . ادخل عليها فتلد على ركبتي وأرزق أنا أيضاً منها بينن ، فأعطيته بلهه جاريتها زوجة ، فدخل عليها يعقوب .

.. وذكر الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها فحببت ولدت ابنا ، فقالت : نزع الله عاري ودعت اسمه يوسف .

\*\*\*

وفي الإصلاح الثاني والثلاثين يسمى يعقوب إسرائيل ، وذاك أنه بعد أن عاد من رحلته إلى العراق «بقي وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذله<sup>(١٥)</sup> ، فانخلع حق فخذل يعقوب في مصارعه معه ، وقال : أطلقني لأنك قد طلم الفجر ، فقال : لا أطلقك إن لم تباركني : فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ! فقال : لا يدعني اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك ، فقال : لماذا تأسئ عن اسمي ، وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فيتشيل قائلاً : لأنى نظرت الله وجهاً لوجه .

\*\*\*

وتذكر الإصلاحات التالية خبر المجاعة التي عمّت الأرض ، وتروي هجرة يعقوب وأبنائه إلى مصر ، حيث بيع يوسف وتولى عملاً من أعمال الدولة في الجيل التالي لجبل إبراهيم كما يؤخذ من هذا السياق ، وقد انقسمت ذريته إلى أدوميين وإسرائيليين .

(١٥) حق فخذله : الحق : الثغرة التي في رأس الكتف ورأس الورك الذي فيه عظم الفخذ .

وفي العهد القديم عدا هذه السيرة المفصلة ، إشارات كثيرة إلى إبراهيم عليه السلام ، منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ، ومنها ما يصفه ويصف بعض أخباره .. من الإشارات التي لها شأن في سيرته ما جاء في كتاب يشوع أول الرسل بعد موسى عليه السلام ، ففي الإصحاح الرابع والعشرين من هذا الكتاب يقول صاحبه عن ديانة الآباء .

«وقال يشوع لجميع الشعب : هكذا قال الرب إله إسرائيل : آباءكم سكروا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلة أخرى ، فأخذت إبراهيم آباءكم من عبر النهر وسرت به في كل أرض كنعان» ..

ووصف إبراهيم بخليل الله في كتاب الأيام الثاني - وهو على الأرجح من جمع النبي عزرا - حيث يقول في الإصحاح العشرين : «أليست أنت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد» .

ووصف بهذه الصفة في الإصحاح الحادى والأربعين من كتاب إشعياء حيث يقول : «وأما أنت يا إسرائيل عبدي ، يا يعقوب الذى اخترته ، نسل إبراهيم خليل» ..

\* \* \*

وتلك هي جملة العبارات التي تدخل في سيرة الخليل من كتب العهد القديم ، وأكثرها تفصيلاً ما ورد في سفر التكوين من الكتب الخمسة التي يطلق عليها في الغالب اسم التوراة . وقبل الانتقال إلى ما ورد عن الخليل في المراجع الإسرائيلية الأخرى ، كالتلמוד والمدرash وما إليها ، نشفع ما تقدم بكلمة لازمة عن تعلقيات الشراح على سفر التكوين والكتب الخمسة ، فإن هذه التعليقات لا غنى عنها للباحث المستقصي عند مراجعة الأسانيد المتعددة ، ولها علاقة وثيقة بفهم السيرة كلها فيما تستمد من تلك الأسانيد .

## تعليق على مراجع العهد القديم

اتفق شراح العهد القديم على تعدد النسخ التي جمعت منها كتبه الخمسة ، بصفة خاصة . وأهم هذه النسخ هي نسخة الوهم ونسخة يهوا ونسخة الكهنة أو المسجلين ، ولا داعي في هذا الصدد لإضافة النسخة المسماة بنسخة الشفاعة ، لأنها تتناول الأسلوب اللغوي الذي لا يسهل التبسيط في خصائصه عند الكتابة عنه بلغتنا العربية . سميت نسخة «الوهم» بهذا الاسم لأن «الوهم» هي الكلمة التي تطلق فيها على الإله .. سميت النسخة الأخرى باسم «يهوا» لأنه اسم الإله فيها .

وتسمى النسخة الثالثة باسم الكهنة أو المسجلين ، لأنهم جمعوا كتب الشريعة وعنوا فيها عناية خاصة بالشعائر والمراسيم وأخبار الهيكل والعبادة ومن هذه النسخ ما كتب على أيام الملوك الإسرائيلية ، ومنها ما كتب في المتفا بين التهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، وأقدمها عهدا بينها وبين عصر الخليل ما يبلغ ألف سنة . وقد اجتهد الكهنة في تكميل الأجزاء التي بين أيديهم ، فقابلوا بين الأخيار المتعددة وتمموا بعضها بعض ، وبقيت آثار المراجع المتعددة في مواضع نشير إلى بعضها بما فيه الكفاية للمقابلة بين أخبار السيرة في جملتها ..

ففي الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم بئر سبع بما دار من الحديث بين الخليل وإبيمالك .

سأل إبيمالك : ما هي هذه السبع النعاج التي أقمتها وحدها ؟  
قال الخليل : إنك تأخذ من يدك سبع نعاج لكي تكون شهادة لي بمحضر البئر ..  
لذلك دُعيَ ذلك الموضع بئر سبع ..

وفي الإصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان بما يلى :

«وَحَدَثَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ عُبَيْدَ إِسْحَاقَ جَاءُوا وَأَخْبَرُوهُ عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي حَفَرُوا، وَقَالُوا لَهُ: قَدْ وَجَدْنَا ماءً، فَدَعَاهُ شَيْعَةً لِذَلِكَ اسْمَ الْمَدِينَةِ بَعْرَ سَبْعَ إِلَى الْيَوْمِ».

وفي الإصلاح الأول عن خلق الحيوان والإنسان : «فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله تعالى نعمل الإنسان على صورتنا كشبينا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب عليها» .

وفي الإصلاح الثاني : «وجعل الإله آدم تراباً من الأرض ونفع في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية ، وغرس الإله جنة في عدن شرقاً ، ووضع هناك آدم الذي جبله ، وأنبت رب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر جيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة ..»

ونص الإصلاح الثامن عشر من سفر اللاويين على تحريم الزواج بالأخت من الأب أو من الأم «المولودة في البيت أو المولودة خارجا ..» وفي الإصلاح الثالث عشر من سفر صموئيل الثاني تقول تamar لأنخيها أمنون : «والآن كلام الملك لأنه لا ي يعنيه منك» ..

\* \* \*

فمنها أن اسم البلد الذي ولد فيه الخليل قد ورد في بعض النسخ ولم يكن موجوداً في نسخ أخرى فأضيف إليها للمضاهاة بينها ..

ومن النسخ ما ورد فيه عهد الميراث لإبراهيم ، ومنها ما لم يرد فيه هذا العهد قبل مولد إسماعيل .

ويرى كثيرون من الشرّاح أنّ الأعلام قد تطلق على القبائل كما تطلق على رؤوسها وأبائهم ، ومن هنا ينعت إبراهيم بالعراني وينعت ابن أخيه بالأرامي ، أو مختلف الفرعان

من أصل واحد ، فعمل إحدى القبائل في الصيد بالبادية ، و تعمل أخرى في الزراعة والمدن حول الحاضرة .

وقد بين الشرح على العموم أن الأعمار تناقصت في الكتب الأخيرة ، وأن الوحي بالرؤيا في هذه الكتب أعم من الوحي بالمشاهدة والمخاطبة .

وستعود إلى استخلاص الفائدة من هذه المقابلات والتعليقات عند الكلام على تفصيلات السيرة ، بعد استيفاء مراجعتها من الكتب الدينية والمصادر التاريخية وغيرها .

#### المشنا :

أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة هو كتب المشنا القديمة .

«فالقرآن» هو ما يحفظ بالقراءة في الكتاب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة .

و«المشنا» هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ، ومنه التلمود على نشأته الأولى ..

وأصل مادة الكلمة من شنا أي كرر ، وهي تقابل في العربية مادة ثنى بمعنى أعاد ثانية ، واستعيرت للإعادة التي يراد بها حفظ الكلام المعاد وترجع مأثورات «المشنا» إلى أيام النفي في بابل ، حيث أقامت عشائر من اليهود منفية عن فلسطين .

وكان الغرض من «المشنا» تفسير التوراة والتعليق عليها ، وتشتمل هذه التفسيرات على عظات المعابد ، وتأويلات الفقهاء ، وشرح المفسرين من بلغوا مرتبة الرئاسة في التعليم .

وقد حضرت المشنا في القرن الثاني للميلاد ، ودونت بعد الاعتماد على الرواية أو التعليقات المترفة ، ومعظمها محفوظ بالعبرية العامية التي يفهمها المستمعون إلى مواعظه البيع وأحاديث الفقهاء .

واشتملت عند جمعها على ستة أقسام ، واحتسبت هذه الأقسام على ثلاثة وستين فصلا ، واحتسبت الفصول على ثُبُذ تبلغ خمسماة وثلاثة وعشرين ، أضيفت إليها بذلة بعد ذلك فبلغت خمسماة وأربعمائة وعشرين . أما الأقسام الستة فهي قسم الزرع وهو خاص بالزراعة والمحصولات ومعاملاتها ، وقسم الموعد وهو خاص بأوقات الموسام والأعياد ، وقسم النساء وهو خاص بالزواج والطلاق وما يتصل بهما من الأحوال

الشخصية ، وقسم العروض والتعويضات وهو خاص بسائر المعاملات والمحاكبات ، وقسم المقدمات وهو خاص بشعائر العبادة ، وقسم الطهارة وهو خاص بالغسل والتطهير من النجاسات التي حرم معها القيام بالفرائض الدينية .

وزيدت على المشنا في العصور الحديثة كتب من قبيلها تسمى بـ «التصاغوت» من مادة يضاف أى يضاف ، ومعناها الإضافات ، وأكثر هذه الإضافات من وضع الكهان الأوروبيين إلى القرن الثاني عشر للميلاد ولم تشتمل المشنا على جميع المؤثرات ، بل بقيت خارجا منها أحكام تنقل بالرواية ، وتعرف «بالبرايata» أى البرانية .

وانتهى تحخيص المشنا القديمة إلى اختيار طائفة من الأحكام المتفق عليها تسمى الجمارة أى التكميلة .

ومن مرويات المشنا والجمارة تجتمع كتب التلمود ، وهي قسمان : تلمود بابل ، وتلمود فلسطين ، ولكن التلمود لا يحتوى كل ما في المشنا والجمارة ..

ويعرف بعض المؤثرات الإسرائيلية باسم «المدراش» أو الدراسات ، وتلك تتضمن أقوال الفقهاء وحواشيهم على النصوص والمحفوظات وأشهرها مدراش رياه التي تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة ، وقد تمت عند القرن السادس للميلاد ، وترجع في أسانيدها كما جاء فيها إلى أيام إبراهيم ، ولكنها عند اليهود على درجات فمنها ما يعود عليه ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية والأمثال الوعظية ، تساق للاعتبار ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد .

ويظن بعض شراح الألمان مثل جربنباوم Grunbaum أن من المدراش بهذا منقوله عن اللغة العربية ، ولكن المقابلة بين روایاتها والروايات الإسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قرية ، وأنها على كل حال من مصادر غير إسلامية ..

بل يظن جربنباوم أن بعض العبارات ترجمة حرفية من القرآن الكريم ، كما جاء في كتاب من المدراش أن الله قال : ليوهب البرد والعزاء لخادمي إبراهيم ، والكلمة فيها معنى العزاء والراحة والسلام .

و سنشير إلى هذه الملاحظات في مواضعها ، ونكتفى فيما يلى بالمراجع الضرورية على

سبيل التثليل لكل أسلوب من أساليب الرواية والتدوين في المصادر الإسرائيلية ، ونبدأ بما له علاقة بسيرة الخليل من عهد الطوفان .

\* \* \*

يطلق اسم خليل الله وحبيب الله في الكتب الإسرائيلية على أنبياء غير إبراهيم ، أشهرهم موسى ويعقوب وسليمان ، ويغلب على الكتب المتأخرة وصفه بالحبيب ، ويعتقدون أنه هو المقصود بقول أرميا في الإصحاح الحادى عشر «حبسي في بيتي» .

وفي كثير من كتب المدراش والتعليم يقال : إن الدنيا خلقت من أجله ، وإن أبناء نوح ضلوا عن سوء السبيل وعبدوا الأصنام وكان جد إبراهيم يدعى (رو) فسمى ابنه (سروج) أي ذهبوا بعيدا ، وصدق في هذه التسمية ، لأن سروج حين كبر وولد له ابن سماع ناحور وعلمه السحر والتجليم وعبادة الأصنام ، وكان الشيطان (مسطها) يرسل أعوانه لكيد البشر ويطلقهم على البنور وهي على وجه الأرض كأنهم الغربان لتلقطها وتفسدها . وهذا سمى ناحور ابنه تيرح أو تارح . ويقول شراح كتاب «اليوبيل» أحد هذه الكتب التعليمية أن الاسم بهذا المعنى غامض ، ولكنه قد يرجع إلى كلمة آرامية بمعنى المحو والشحوب .

وتزوج تارح من إيماتى بنت كرنايب ، فرزقا إبراهيم . وكان مولده مرصودا في الكواكب فأطلع عليه الترسو واستشار الملائكة من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات وإغراق العطايا والحوائز على أهليهن ، ليفرحوا بمولده البنات .

وأحسن تارح أن أمرأته حامل ، فلما أراد أن يتتحقق من ذلك صعد الجبلين إلى صدر أمه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل ، وهربت أمه حين جاءها الخاضق فأولت إلى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة وهي تدعوه له ، فبقى ثلاثة عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث في الكهف أقل من ذلك على روايات أخرى ، وأرسل الله جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكتير قبل الأوان .

وخرج من الكهف ليلا وهو في الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هي الأرباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا . يل هذه هي الرب . فلما أفلت وظهر القمر قال :

بل هو هذا .. فلما أفل قال : ما هذه بآرباب إنما الرب المعبد هو الذي يديرها ويسيرها  
ويديها ويخفيها .

وفي بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوماً حيث تركته فوجدت  
في طريقها صبياً ناماً فسألها :  
ـ ماذا جاء بك إلى الصحراء؟ ..

فأنبأته بقصتها ، وعرفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ويتكلم ولما يمض على  
مولده شهر واحد ..

قال لها : إنها قدرة الله الذي يرى ولا يُرى ..

ويظن جامعو الأساطير اليهودية أن وصف الله بهذه الصفة منقول من أصل عربى  
اطلع عليه يهود الأندلس ، ثم اختلفت تفصيلاته عند نقلها إلى العبرية ..

قالت أمه وقد ازداد عجبها : ألمه غير التروذ؟ ..

قال : نعم يا أماه .. رب السماوات والأرض ، ورب التروذ بن كنعان . فاذهبي  
وبلغي التروذ ما سمعت .

وأنبأت زوجها تارح وكان أميراً من أمراء الملك ، فذهب إليه يطلب لقاءه ، فأذن  
له باللقاء فسجد بين يديه ، ولم يكن من عادتهم إذا سجد أحدهم بين يدي الملك  
أن يرفع رأسه بغير أمره ، فلما أمره الملك أن ينهض ويتكلم روى له القصة ففرع وفرع  
أعنانه وزراؤه ، ثم ملكوا جأشهم وقالوا له : علام هذا الفرع من صبي لا حول  
له ولا قوة ومن أمثاله في المملكة ألف وألف .

قال لهم التروذ : وهل رأيتم صبياً في العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان؟ ..  
وحشى الشيطان أن يسبق الإيمان إلى قلب الملك فبرز لهم وأزال ما بهم من الروع ،  
وحرض الملك على قتل الصبي ، فحشد له جنداً من القادة والفرسان وخرجوا إلى  
الكهف الذي قيل لهم أن الصبي مخفي فيه ، فإذا بينه وبينهم سحب لا ينفك النظر  
إلى ما وراءها ، وإذا بهم مجفلون لا يقدرون على الثبات ..

فلما عادوا إلى التروذ وشرحوا له ما عاينوه قال لهم : لا مقام لنا بهذه الديار !

وخرج من بلده إلى أرض بابل فلحق به إبراهيم على جناح جبريل ، ولقي هناك أبويه ،  
ثم بدأ بالدعوة إلى الله :

الإله الأحد الذي لا إله غيره : رب السماوات ورب الأرباب ، ورب الترود .  
وأنذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذي صنعوه على مثال الترود . فإن له فما ولدته  
لا ينطق ، وعييناً ولدته لا يصر ، وأذنًا ولدته لا يسمع ، وقدنًا ولدته لا يسعى  
ولا ينفع نفسه ولا يغنى عن غيره شيئاً .

وأسرع أبوه إلى الملك يبلغه أن ابنه إبراهيم طوى مسيرة أربعين يوماً في أقل من  
يوم ، ثم لحق به إبراهيم إلى قصر الملك فهز عرشه بيديه وصاح به : «أيها الشقى !  
إنك تنكر الحق ، وتنكر الله الحي الصمد . وتذكر عبده إبراهيم خادم بيته الأمين» .

ويختلف الترود فيما أمر تارح أن يعود بابنه إلى موطنها ، ثم تتكاثر الروايات في عشرات  
من المصادر من كتب المدراش والتفسيرات حول ما حدث بعد ذلك بين إبراهيم وقومه  
وبيته وبين الملاً وملك وكتمة الأرباب . مما تغنى هذه الأمثلة عن تفصيله واستقصائه ،  
وبعضه كما تقدم معمول عليه عند اليهود ، وبعضه من قبيل ضرب الأمثال بالتوادر  
والأعجيب ..

وليس من المطلوب أن تتبع هذه القصص والتوادر لأنها تستوعب ألف الصفحات ،  
ولكننا نأخذ منها ما يتنظم في أغراض هذا الكتاب ، ومنها ما يدل على تفكير واضعيه ،  
أو يفيد عند المقابلة بين المصادر المعاصرة ، أو يلاحظ فيه الوضع لطراحته الأدية  
والفنية ، أو يتمس صورة أخرى ناقصة في خبر من الأخبار .

فمما ورد في «مدراش رباء» أن آياه حنق عليه حين كسر الأصنام فخاصمه إلى  
الترود ، فسألته الترود : إن كنت لا تعبد الصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟  
قال إبراهيم : أولي من عبادة النار أن أعبد الماء الذي يطفئها .

قال الترود : فاعبد الماء إذن ؟

قال إبراهيم : بل أولي من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذي يحمله .

قال الترود : إذن تعبد السحاب ..

قال إبراهيم : وأولى من السحاب بالعبادة رفع تبده وتسير به من فضاء إلى فضاء ..

قال الترود : فمالك لا تعبد الرفع ؟

قال إبراهيم : إن الإنسان يحتويها بأنفاسه فهو إذن أحق منها بالعبادة .  
ومغزى الحوار أن عقل الإنسان قادر بالنظر في خلق الله أن يصل إلى معرفة الخالق  
وينكر عبادة الأوثان .

فلما أعيا الترود أن يخضعه سجنه ومنع عنه الطعام والماء ، ومضى عليه عام في  
غيابته<sup>(١)</sup> فأيقن الحراس أنه قد مات ، ولكنه ناداه : يا إبراهيم ! أنت بقيد الحياة ؟  
فسمع جوابه : نعم أنا بقيد الحياة .

فأمر الملك بضرب عنقه ، فلم يعمل فيه السيف .. فأُورِدَ له ناراً ودفع به إلى أحد  
أعوانه ليقذف به فيها ، فلما قاربها خرج من الأتون لسان من النار والتهم الجlad ولم  
يقترب من إبراهيم .

فتشاور الملأ عند الملك في أمره ، فاتفقوا على إحراقه وإلقائه في النار من منجنيق  
بعيد ، مخافة من ألسنة النار . ووضع الملائكة إلى الله أن ينجيه فإذاً لهم أن يعملوا  
لنجاته ما يستطيعون ، ولكنه ألى أن يعتمد في نجاته على أحد غير الله ، وإذا بالجمر  
من حوله كأنه فراش من الورد والريحان ..

ولم يصدق الترود أنها معجزة من الله ، بل قال لإبراهيم : إنها من سحرك وحيلتك ..  
أما الأمراء والوزراء فخذلوا الملك وأمنوا برب إبراهيم ..

ولم تذكر التوراة أن إبراهيم ألقى في النار ، وإنما ورد في سفر دانيال من أخبار بابل  
أن نبوخذنصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لأنهم لم يسجدوا لصنم من  
الذهب .. «حيثند امتلاً نبوخذنصر غيطاً وتغير منظر وجهه على شدرخ ، وميشخ ،  
وعبدنغو .. وأمر بأن يحمي الأتون سبعة أضعاف .. وأمر جباررة القوة في جيشه بأن  
يوثقوا شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو ، ويلقوهم في أتون النار المقدمة ، ثم أوثق هؤلاء  
الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأردفهم ولباسهم وألقوا في وسط أتون النار المقدمة .

---

(١) غيابته : الغيابة من كل شيء ما سترك منه كفية البشر لغيره .

والأتون قد حمى جداً قتل هيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ ، ومشيخ ، وعبدنغو .. وهؤلاء الثلاثة سقطوا موثقين في وسط الأتون .. حيثند تحر (نيوختننس) الملك وقام مسرعاً وسأل مشيريه : ألم نلق ثلاثة رجال موثقين في النار ؟ فأجابوا وقالوا : نعم أيها الملك ! .. قال : ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر ، ومنظر الرابع شيء يابن الآلهة . ثم اقترب نيوجلدنصر إلى باب أتون النار المتقدة ونادى فقال : يا شدرخ ومشيخ وعبدنغو ، يا عبيد الله العلي .. اخرجوا وتعالوا ! .. فخرجوا ، واجتمعت المرازية<sup>(٢)</sup> والشحن والولاة ومشيريو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم ولم تخترق شعرة من رؤوسهم ولم تتغير سراويلهم ورائحة النار ولم تأت عليهم ، فأجاب نيوجلدنصر وقال تبارك إله شدرخ ومشيخ وعبدنغو الذي أرسل ملاكه وأنقذ عبده الدين انكلوا عليه .

والشبه بين هذه القصة وقصة إبراهيم ظاهر ، وساع دانيال بها في بابل له دلالته في هذا الصدد ، ولكن بعض الشرائح يزعم أن القصة لم تكن معروفة قبل يوناثان بن عزييل الذي كان يجهل اليابالية فالتبس عليه معنى (أور) لأنها بالكلدانية تعنى النار وبالعبرية تعنى النور ، وظن أن نجاة إبراهيم من «أور الكلدانيين» يعني نجاته من نار الكلدانين .

ولكن هؤلاء الشرائح ينسون أن القصة قديمة وردت في باب الفصحيات من القسم الثاني من المشنا ، وهو قسم المaware الموقت<sup>(٣)</sup> : وأنها أطول أصولاً وفروعاً من أن تبني على خطأ في ترجمة الكلمة ، ولا سيما الكلمة التي يعرفها كل يهودي يذكر «أورشليم» ويفهم معنى أور ومعنى شليم ، وهو معرفون لأجلهم القوم بالعبرية ، ومن معانيها الشعبية الشائعة دار السلام ، على صواب أو على خطأ .

وزعم شايروا Shapira أن القصة من وضع كعب الأحبار ، ولا تعوיל على أقوال شايروا هنا لأنه زور بعض الوثائق على المتحف البريطاني ، وانكشف تزويره فيبح نفسه في روتردام (١٨٨٤) .

(٢) المرازية : جمع مريزان بضم الزاي عند الفرس : الرئيس المقدم على القوم دون الملك .

(٣) مصححة ٢١٢ من الجلد الخامس من أساطير اليهود المقدم ذكره .

ومن المعلوم أن ترجمة يوناثان - أى ترجمته - كان المعتمد الأكبر فيها على شروح الربانيين ولم تكن نقلًا مباشراً من نصوص التوراة .

ولابد أن يلاحظ هنا أن الكنيسة السريانية التي يعيش أتباعها في بلاد الكلدان القديمة بين سوريا والعراق ، والتي اشتهر آباءها بدراسة السريانية - وهي الآرامية بعينها - لا تعتبر أن القصة ناشئة من غلطة في الترجمة وتقيم لجأة الخليل من النار حفلاً سنويًا في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني .

على أنه من الراجح جداً أن اليهود رجعوا إلى المصادر العربية في رواية قصص المدراش وما إليها ، لأنهم كادوا أن ينحصروا في بلاد الدولة العربية من صدر الإسلام إلى القرن الثالث للهجرة وكانت بحوثهم الفقهية في ديناتهم أن تكون اقتباساً من بحوث علماء الكلام المسلمين وكانت اللغة العربية أن تكون معتمدتهم الوحيدة في الثقافة العليا والثقافة العامة ، حتى كانوا يكتبون العربية أحياناً بمحروم عربية ، ولكن الاحتراس واجب على آية حال من تلك العلل التي يستند إليها بعض المستشرقين في نسبة الأخبار إلى المصادر العربية الإسلامية ، ومن أمثلة هذه العلل أن بعضهم يرد إلى المصادر الإسلامية قصص المدراش التي تقول أن جبريل هدى إبراهيم إلى عين ماء يغسل فيها قبل العبادة ، فإن التطهير بالاغتسال قبل العبادة شعيرة قديمة في الأديان وليس مقصورة على الوضوء في الإسلام ، وقد قيل إن الصابحة محرفة من السابحة لأنها تفرض الاغتسال في شعائرها قبل كثير من العبادات . ولابد من التفرقة بين المصادر العربية والمصادر الإسلامية في كثير من الروايات ، فقد يكون المصدر عربياً إسرائيلياً لا علاقة له بتاريخ الإسلام ..

\*\*\*

ومن أشهر الروايات في التبرؤ والخليل تلك القصة التي يعللون بها اختلاف الألسن بين الأمم ، وخلاصتها أن التبرؤ هذا أراد أن يتحدى الله إبراهيم فبني له برجاً عالياً وصعد عليه ليناجز<sup>(٤)</sup> الله في سماه ، ثم طفق يرمي السماء بالسهام حتى عاد إليه سهم منها وقد اصططغ بالتعيّج<sup>(٥)</sup> الأخر فخيل إليه أنه أصاب مرماه ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض وسقط معه قومه ، ونهضوا من سقطتهم وهم يتضاحكون بكلام

(٤) ليناجز : ناجر القارس فرنه : يمارزه حتى يقتله أو يقتل . (٥) التعيّج : الدم .

لا يفهمونه لأن السماء أرسلت عليهم سهاما من الصواعق زلزلت البرج وقوضت أركانه وتركتهم في بلبل حائرین لا يدركون ما يفعلون وما يقولون ، ولا يفقه السامع منهم ما يقال له أو يفعله في حيرته . قال الرواية : ولهذا سميت المدينة في موضع البرج «بابل» من تبليل الألسنة والأفكار .

\* \* \*

ويندر الاتفاق على أصل قصة واحدة من القصص التي تفيض بها كتب المدراش وحواشيها ، بل تروى الأسماء والأعلام أحيانا على روايات متعددة ، ومن ذلك أئمهم يذكرون سارة باسم اسكاج Iscah ويقولون : «إنها مأخوذة من النظر» ، ويوردون بين اسم إبراهيم واسم إيثان الإزراحي في المزמור التاسع والثمانين ، ويقولون : إن داود كتبه بمشاركة الخليل .

وللتوضيح بين الاسمين هنا دلالة خاصة ، فإن إيثان الإزراحي منسوب إلى زارح وينطق بهمزة في أوله على العادة في النطق بالساكن ، وقد تكون الحاء والإياء للنسبة كما يقولون في (مزراحي) بمعنى مصرى ، ويكون إيثان منسوبا إلى آزر ، وهو الاسم الذى ذكر في القرآن كما سيأتي بيانه في المصادر الإسلامية .

ومن الواجب أن يتلفت هنا إلى المقاربة بين زارح وزارع وتارح ، وقد تقدم أن لاسم تارح علاقة بحبوب الزرع التي تلتقط قبل تمكنها من التربة ..

فلا محل إذن لنقد الاسم كما جاء في القرآن الكريم ، اعتقادا على ذلك الاختلاف ليسير في اللفظ القديم ، وقد ذكر يوسيبوس Eusobius المؤرخ المسيحي اليوناني أن آبا إبراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم بعضهم — ومنهم سنكلر تسديل ، صاحب كتاب مصادر الإسلام ، وهو من أشد المتعصبين قدحا في الإسلام — أن للاسم أصلا في الفارسية القديمة بمعنى النار ..

\* \* \*

ومن الاختلاف في الأخبار المدرashية التي اتصلت بالتاريخ أن بعضها أنكر أن يقال عن الخليل أنه عالم بالنجوم ، وردا على الربيين الأقدمين الذين زعموا أنه كان يحمل

ف قلبه زجا فلكيا يكشف به الغيب لمن يسألونه من ملوك الشرق والغرب ، فقال صاحب مدراش : رباه إنه نبي وليس بمنجم . وانصلت هذه الروايات المدرashية بالتاريخ فقال يوسيفوس المؤرخ الإسرائيلى المشهور : إن الخليل درس علم النجوم ولكن في مصر لا في بابل واستند في ذلك إلى رواية ارتيانوس Artapanus الذى زعم أنه أقام بعصر عشرين سنة واطلع على أسرار الكهانة وعلم الفلك وطوالع النجوم ، وفي قصة أخرى لم يذكرها يوسيفوس يقال إن إبراهيم هو الذى علم المصريين الفلك والتنجيم .

ولكن كتب المدرash تتفق على وصف الخليل بالسماحة والكرم والعطف على خلق الله من الإنسان والحيوان ، ومن أحاديثها في ذلك أن إبراهيم سأله ملكى صادق : كيف خرجت سالما من سفينته نوح ؟ فقال له : بالخير الذى فعلناه .

قال إبراهيم : و، الخير الذى تفعله فى سفينته ؟ هل كان فى السفينة من فقير تسدى إليه المعروف ؟ إن نوحا قد حمل معه بنيه فهل كان فيهن فقير ؟ قال ملكى صادق : بل كان معنا الحيوان والطير وكما لا نام حتى نطعمها ونسقها .

وقد عاش إبراهيم حياته يطعم الفقير ويحسن إلى الإنسان والحيوان ويفتح بابه للضيوفان ولا يجلس إلى الطعام إلا إذا نادى على الرائع والغادى في الطريق ليجلس معه إلى طعامه .

وما من علامة أدل على صدق النسب إلى إبراهيم من نظرة سليمة (لا تحسد) ونفس مطمئنة وقلب وديع .

وتذكر «مدراش رباه» فيما تذكر أن إبراهيم شفيع أمته يوم القيمة ، وأنه يقف على باب جهنم فلا يدع إسرائيليا مختونا يدخلها . ومن عظمت سياته منهم وحرم التوبة في آخرته فلن يدخل النار مختونا . بل توضع له جلدته من جلود الأطفال الذين ماتوا قبل المختان ، وصحت لهم نعمة الغفران ..

\* \* \*

أما (سارة) فقد خصتها (المشتنا) بقسط كبير من الأخبار والتواتر ولم يخل منها خبر أو نادرة من خلاف كثير ..

فهي تارة أخت غير شقيقة لإبراهيم ، وهى تارة بنت أخيه الذى مات قبل الهجرة إلى كنعان ..

وهي المرأة الوحيدة التى خاطبها الله ، وهى نية تنظر إلى الغيب وتدعو الله أن ينذر ذرية إبراهيم بما سيلقون من الحزن والشدائد ، ولكنها فى مواطن كبيرة تعاقب لخالفة السنن وضعف اليقين .

ولم تخلق امرأة قط بجمال سارة . فأجمل النساء بالقياس إليها كالفرد المسوخ .. وقد بلغ من فتنة جمالها أن إبراهيم لم يلأ منها عينيه ، وإنما لمح خيالها فى الماء وهم يعبرون بعض الجداول إلى مصر ، فخاف على فرعون وقومه فتتها ، وحملها فى تابوت وهم يعبرون تخوم الديار ، وسألته عمال المكوس عما فى التابوت فأباهم أنه شعير .. قالوا : بل نأخذ المكوس على قمح . قال : خذوا ما تشاءون ، فعادوا يطلبون الضريبة على بيار ، فأجاههم إلى ما طلبوا ، فارتباوا فيما يخفى وأمروه أن يؤدى الضريبة على ورق التابوت ذهباً فقبل وأعطاهم سؤلهم .. فحيرهم قوله كل ما يسومونه أن يذله وخارهم شك عظيم ، ففتحوا التابوت عنوة فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون ولما حاول فرعون أن يقترب منها رصد له حارسها من الملائكة فجعل يضربه على يده كلما بسطها ، وعلى قدمه كلما سعى إليها ، وأصبح فإذا هو مصاب بالجذام وبالعنة ، وإذا بنذر من الله ليرسلن الوباء على فرعون وقومه إن لم يرجع سارة إلى إبراهيم ..

ويفسر بعض المدرash عقめها بأن الله أحب أن يسمع صلواتها ، ويفسر عقمهما في مدراش آخر بأنها قد نزحت عن خلقة الرحم وبروى في كثير من الحواشى أنها أرضعت مائة طفل يوم ختان إسحاق .

وبعض الحواشى يتكلم عن فرعون وإبراهيم وفرعون يوسف كأنهما ملك واحد ..

فلما شكا فوطيفار إلى فرعون لأنه أقام عبده الذى اشتراه بعشرين ديناراً حاكماً على مصر – يعني يوسف الصديق – قال يوسف : بل أنت اقترفت خطيئة عظمى يوم اشتريت أميراً من نسل سام بالثمن كاشترى العبيد ، وإنما يشتري بالثمن أبناء كنعان ،

ولأن أردت برهانا على نسيي فدونك المثال الذي صنعه فرعون لجدى سارة ، فهو ينبع بالشبه الذي يبني ويبنيها ، ثم جاءوا بالمثال فإذا بالشبه بينه وبين يوسف جد قريب .. والكلام على أول سارة يدور تارة على حاران وتارة على تارح فمن أقوال الحواشى عن حاران أنه احترق بالنار حين اقترب منها ، لأنه قاربها متحينا لقدرة الله ، ومن أقوالها عن تارح أنه عاش حتى رأى إسحق في الخامسة والثلاثين من عمره .

وأشهر الروايات عن تارح أنه كان مثلاً يصنع الأصنام ، وأن إبراهيم اهتدى إلى ضلال هذه العبادة لأنه رأى آباء يصنعها ويصلحها ، وكان يبيعها لأبيه ، فعجب للذين يشترونها كيف يعبدون صنماً مصنوعاً بالأمس ومتهم من جاوز الخمسين .

وكان لاحور - أخي إبراهيم - صنم يسمى زيوكس Zuechus ولالي جانبه صنع يسمى جواف ، وأولهما مصنوع من الذهب والثانى مصنوع من الفضة ، وأما الأصنام الأخرى فمن الخشب أو الطين وحاور إبراهيم آباء - وقد رأى الأصنام تحترق ذات يوم - فقال له : يا أبايت ! إن النار أحق بعبادتك من أصنامك ، لأنها تحرقها ، ثم قال : «يد أبا لا أحسب النار إلها لأن الماء يخمدها ، ولا أحسب الماء إلها لأن الأرض تتبلعه ، ولا أحسب الأرض إلها لأن الشمس تجففها وتنشر على الكون كله أشعتها ، ولا أحسب الشمس إلها لأن الظلام يمحوها ، ولا أحسب القمر والنجم التى تظهر في الظلام آلة لأنها تختبئ عند طلوع النهار ، وإنما الإله القدير على كل شى هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها ، وحالقى وهادى إلى الحق المبين .

ولم يستمع إليه أبوه فذهب إلى أمه وسألها أن تعد طعاما للأصنام ثم أهوى على الأصنام يحطمهما ووضع القدوم في يد كييزها ، وأسرع أبوه على صوت الخطام فسألته : ماذا دهها ؟ قال : هذا أخي عليها فكسرها ولا يزال القدوم في يديه ، فصاح به أبوه : إنك لتكذب فيما في وسع هذا الصنم أن يفعل ما زعمت . قال إبراهيم : عجبنا لك يا أبايت ! تعبد هذه العجزة التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ، ثم وثب على الصنم الكبير فأخذ القدوم من يده وضربه فألقاه ، وهرب من وجه أخيه .

ونخت الاقتباس من المرويات الإسرائيلية برواية الكتاب الذى يسمونه سفر التكويرين

الصغير ، وينسبون إليه الدقة في إيراد التواريخ بأرقام السنين والاعتدال في أسلوب الكلام على المبالغات والتبيهات الوثنية ، ونعني به كتاب اليوييل :

فهذا الكتاب يقول إن نوحًا عليه السلام توقف بأرض الكلدائيين سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد ، وأن تيرحا أو تارحا أبا إبراهيم ولد سنة ١٨٠٦ وولدت زوجته «ادنا» ابنة إبراهيم سنة ١٨٧٦ وسماه «إبرام» على اسم أبي جدته لأمه واسمها ملكة ، وهذا بحسب السنين من تاريخ الخليقة .

\*\*\*

وهذه الأخبار والتواتر تزدحم بها مئات المحواشي والتفسيرات ، ومعظمها مسطور في المجلدات السبعة التي جمعت أساطير اليهود وسبقت الإشارة إليها ، وكل ما عداها فهو من قبيلها .

وحققتها التي تخرج بها منها جيًعا أنها مرويات متواترة بالسماع ، يتناقلها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل ، ولا يظهر فيها الاعتماد على النصوص المكتوبة ولا سيما نصوص التوراة ، لأنها تختلف هذه النصوص وتتقاضها أحياناً ، وبينها ولاشك روايات متأخرة في تصورها وروايتها ، ولكنها تبني على قديم ثابت ولا تخلق شيئاً من لا شيء ، فلا بد وراءها من أصل منقول غير الأصل المكتوب ، ولم يثبت نصوص العهد القديم هي الأصل الوحيد الذي تدور عليه هذه المحواشي والتعليقات .

## المراجع المسيحية

المصادر المسيحية المتفق عليها بين الكنائس هي الأنجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والخواريين ، وهي المعروفة بالعهد الجديد ..

وهذه الكتب لم تزد شيئاً على سيرة الخليل كما جاءت في سفر التكوانين وبعض كتب العهد القديم ، ولكنها جاءت بتطور هام في دعوته كما تلقاها اليهود في عصر الميلاد ، ويفيدوا هذا التطور الهام في مسائل ثلاثة من كبريات المسائل الدينية ، وهي مسألة الحياة بعد الموت ومسألة الوعد الإلهي للشعب اختار وعلاقته بالقومية أو الإنسانية ومسألة الشعائر وعلاقتها بالروحانيات والجسديات .

ففي عصر الميلاد كانت طائفة كبيرة من اليهود وهي طائفة الصدوقيين تنكر القيامة بعد الموت ولا ترى في الكتاب الحقيقة دليلاً واضحاً عليها وكانت الطوائف الأخرى تؤمن بالثواب والعقاب على الجملة ولكنها لا تتسع في وصفهما ولا ترجع في هذا الوصف إلى سند متفق عليه .

وكانوا إذا وصفوا سوء المصير عبروا عنه بالذهب إلى الهاوية (شبول) وإذا وصفوا الرضوان قالوا عن الميت : إنه انضم إلى قومه أو اجتمع بقومه . وفي أذهانهم صورة غامضة عن وجود هؤلاء القوم في عام غير عالم الحياة الدنيا .

وانتشرت بين أهل فلسطين من اليهود وغيرهم عقائد المصريين في اليوم الآخر ، لأنهم كانوا يترددون على الإسكندرية ، كما كان أهل الإسكندرية يترددون عليهم ، ولم تكن في العالم معاهد للثقافة والبحث أكبر من معاهدها ، غير مستثنى من ذلك رومه ولا أثينا ولا المدن الشرقية التي كان لها قبل ذلك شأن مذكور في العلم والفن والحكمة وانتشرت بينهم كذلك عقائد الفلسفه اليونانيين في خلود الروح والتغيير بينها وبين الأجساد التي يعرض لها الفناء .

فلم ظهرت الدعوة المسيحية جدّدت بوصف نعيم الآخر لم يكن معهودا في كتب اليهود ، ولكنه وصف لا سبيل لهم إلى الاعتراض عليه ، لأنّه قائم على قاعدة من دعوة إبراهيم .. ففي مسألة الحياة بعد الموت ضرب لهم السيد المسيح مثل إبراهيم ولما ذر  
والرجل الغنى في العالم الآخر فقال :

«كان إنسان غنى يلبس الأرجوان والبرز وينعم كل يوم في رفاهة ، وكان عند بابه رجل مسكين مطروح مضروب بالقروح يشتكي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدته ، بل كانت الكلاب تأني وتلحس قروحه ، فمات المسكين وحمله الملائكة إلى حضن إبراهيم ، ومات الغنى ودفن فوق عيشه في المساواة وهو يتذمّر ، ورأى إبراهيم من بعيد ولما ذر في حضنه ، فنادى وقال : يا إبراهيم ! أرحمني ، وارسل لعاذر ليبل طرف أصبعه بماء ويرد لسان ، لأنّ معدب في هذا اللهب» .

«فقال إبراهيم : يا ابنى ! اذكر أثلك استوفيت حيراتك واستوفت لعاذر بلايه ، والآن هو يتعرى وأنت تتذمّر ، وفرق هذا بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى أنّ الذين يريدون العبور من هاهنا إليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يهازون إلينا ، فقال : أأسأك إذن يا رب أن ترسله إلى بيتك ، لأنّ لخمسة أخوة يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا إلى موضع العذاب هذه» .

«قال له إبراهيم : عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم ، فقال : لا يا رب إبراهيم ، بل إذا مضى بهم أحد من الأموات يتذمّر ، فقال له : إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء فمن قام لهم من الأموات فما هم بمصدقيه<sup>(١)</sup> .

والشرح يقولون : إن هذه العلة يجوز أن تكون خبرا ويجوز أن تكون مثلا ضربه لهم السيد المسيح من قصة معروفة لديهم ، ويقول لوثر كلارك Lowther Clarke شارح التوراة والإنجيل : إن اسم لعاذر «البعاذر» معناه «إليل آزر» أو الله أuhan ، وأنه من الأسماء التي قد تطلق على المجهولين عند ضرب الأمثال (كما نقول في اللغة العربية زيد وعمرو وبكر وخالد) وقد سبق مثله في كلام إبراهيم عن خدام داره .. قال : وإن في مأثورات مصر قصة شبيهة بها عن مصير المحسن والمسيء يجوز أن تكون معروفة بين يهود فلسطين ولم يذكر اسم علم فقط في مثل من أمثلة السيد المسيح غير هذا المثل .

وأيا كان المعتمد من أقوال الشرح فلا خلاف بينهم على أمر واحد ، وهو وصف الحياة الأخرى وما فيها من الثواب والعقاب بهذه الصفة ، فإنه معنى جديد لم يسبق له مثيل في كتب العهد القديم ، وإذا استثنينا كتاب المكابيين - وهو من الكتب المختلف عليها - فلم تأت عبارة حضن إبراهيم أو غيره من الأنبياء بهذا المعنى في كتاب من

(١) إنجيل لوقا : الإصلاح السادس عشر .

كتب التوراة قال «جورج ستمبسون» STimpson في مصنفه الذي سماه «كتاب عن الكتاب» .

«كان رجاء الحياة بعد الموت مقصوراً في أيام العهد القديم على البعث الذي سيعقب ظهور المسيح ، ولكن الكلام عن السماء والجحيم وحضن إبراهيم كان شائعاً على عهد عيسى (عليه السلام) بين طوائف من اليهود ، ومن ثم مثل الفس ونعازير في إنجيل لوقا ، وفيه يقول عيسى : فمات المسكين وحمله الملائكة إلى حضن إبراهيم . ومن هذه العبارة أصبح حضن إبراهيم مرادفاً لمعنى النعيم أو السماء» .

وقد ورد في سفر أیوب أن نفسه ستري الله بغير الجسد حيث يقول في الإصلاح التاسع عشر «وبعد أن يفتحي جلدي هذا ، وبدون جسدي ، أرى الله ... وورد في المزمور السادس عشر «إنك لن تترك نفسى في الهاوية» .. وورد في الإصلاح الثاني عشر من سفر دانيال : «وكتيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار ...» .

ولكن ورد في سفر التكوين أن الهاوية مصير جميع المواق ، وجاء على لسان يعقوب في الإصلاح السابع والثلاثين ، وهو يذكر على يوسف : وقال : إن أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية» .

وهكذا جاء على لسانه في الإصلاح الثاني والأربعين : «تنزلون شيئاً بحزن إلى الهاوية» .

وجاء على لسان أیوب في الإصلاح الرابع عشر «لذلك تواريني في الهاوية وتحفيني إلى أن ينصرف غضبك وتعين لي أجلاً فخذكري» .

ولما يأتى البعث من القبور بعد ظهور المسيح كما جاء في الإصلاح السابع من سفر دانيال : «والملائكة والسلطان ، وعظمة الملائكة تحت كل السماء تعطى لشعب قدسي العل» .

وكل ما ورد في العهد القديم باسم جهنم فهو في الأصل العبرى باسم شبول أو الهاوية .

أما عقيدة الحياة بعد الموت للأبرار والأشرار فقد وضحت في عصر المسيح على نحو

لم يكن معروفاً قبله ، ولم يكن المفهوم في ذلك العصر أن الأبرار يذهبون فعلاً إلى صدر إبراهيم ، وإنما كان المقصود أن إبراهيم يرحب بذرتيه في عالم الرضوان .

\* \* \*

ومن العقائد التي ظهرت مع المسيحية أن رسالة إبراهيم روحية وليس جسدية ، وأن المقصود بذرتيه : من يسيرون على نهجه ويعملون بوصيته ، فهي رسالة إنسانية وليس عصبية مقصورة على قوم من الأمم ..  
ففي الإصلاح الثامن من إنجيل متى يقول السيد المسيح :

(الحق أقول لكم : لم أجد في إسرائيل ليهانا بقدر هذا ، وأقول لكم : إن كثيرون سُيأتون من المشارق والمغارب وينكرون مع إبراهيم وأسحق وبعثوب في ملوكوت السموات وأنا بنو الملكوت فمطرحون إلى الظلمة الخارجية ...) .

ومثل هذا في كلام يحيى المختلس - أو يوحنا المعمدان - (.. اصنعوا أنتما تليق بالتبوية ولا تبتذلوا تقولون في أنفسكم : لنا إبراهيم أبا ، لأنني أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم). .

وتكرر هذا المعنى من كلام السيد المسيح في إنجيل لوقا حيث جاء الإصلاح الثالث عشر :

«إذن أقول لكم إن كثيرين سيفطرون أن يدخلوا ولا يقدرون من بعد أن يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وأبدأتم تتفقون خارجاً وتترعون الباب قائلين : يا رب ايارب افتح لنا .. يجيب ويقول لكم : لا أعرفكم .. من أين أنت؟ .. تباعدوا عننا يا جميع فاعلى الظلم . هناك يكون البكاء وصراير الأسنان ، متى رأيتم إبراهيم وإسحاق وبعثوب وجميع الأنبياء في ملوكوت الله وأنتم مطرحون خارجاً ، ويأتون من المشارق ومن المغارب ، ومن الشمال والجنوب ، وينكرون في ملوكوت الله ، وهو ذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين» .

وفي الإصلاح الثاني من إنجيل يوحنا أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به : «إنكم إن ثبتم في كلامي فالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحق والحق يحرركم» فأجابوه : إننا ذرية إبراهيم ولم تستبعد لأحد فقط ، فكيف تقول : إنكم تصيرون أحراراً؟ قال : الحق الحق أقول لكم : إن من يعمل الخطيئة فهو عبد للمخطيئة ، والعبد لا يبقى في البيت أبداً . أما الابن فيبقى إلى الأبد .

ثم قال : لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم !  
وقال بولس غير مرة : إن الختان لا يجعل الإنسان ابنًا لإبراهيم وإنما أبناؤه من يسلكون  
في خطوات الإيمان ، وإن إبراهيم «أب لنا جميعاً والله جعله أباً لأمم كثيرة» .

كما جاء في رسائل بولس إلى أهل رومية «لأن الكتاب يقول : إن كل من يؤمن  
به لا يخزى ، ولا فرق بين اليهودي واليوناني ، لأن ربنا واحداً للجميع» .. «وإن حكم  
الناموس يتم بالروح لا بالجسد» .. «وإن اهتمام الجسم موت ، وأما اهتمام الروح فهو  
الحياة والسلام» .

\*\*\*

وتوسيع الشراح المحدثون في التعليق على آقوال بولس الرسول وأمثالها فقال الدكتور  
جورج دنكان Duncan في أحد ث تفسيراته لرسالة بولس إلى أهل غلاطية «ما له بعض  
المغزى أنه في حين أن قصة ختان إبراهيم تقوم على المصدر المتأخر لكتاب التوراة الخمسة  
الذى نسميه بنسخة الكهان ، فإن معظم قصص إبراهيم ... ترجع إلى مصادر نسخة  
يهوا وألوهيم الفى تقتربن بتعاليم الأنبياء الأولى ، وهى تشف عن نزعـة دينية لا تختلف  
الشرعيات التي بروزت خلال فترة النفى وحسب ، بل تناقضها ، ولا جرم تنزل هذه  
القصص منزلة الرضى والإعجاب عند اليهود الذين كانوا في الأزمة المتأخرة لا يعطفون  
على منهج الشرعيين ومن ثم كان الفيلسوف فيلون الإسكندرى المشهور بالتوفيق الكبير ،  
ويبدو في الإصلاح الحادى عشر من الرسالة إلى العبرانيين أنه كان ذلك الحين اتجاه  
مستعد في بعض البيئات لاعتبار حياة إبراهيم كلها دائرة حول الثقة بالغيب» .

يريد الشارح الحديث بالتوفيق الذى اشتهر به الفيلسوف فيلون توقيه على المخصوص  
بين مذهب الروحين المتعلقين بالإيمان ووجودان النفس وبين الشرعيين أو الكهان الذين  
كانوا يتشددون في المراسم والشعائر وكل ما يعتمد في القيام به على الكهانة والوظائف  
الهيكلية ومنها الختان وأعمال الطهارة والكافارة ، وهذه هي الشعائر التى كان كهان  
إسرائيل يحرصون عليها في مفاهيم بابل ، إبقاء على معالم العبادة الاجتماعية ، ومحوها  
من نسيانها واندثارها إذا وكل الأمر كله إلى عقائد الوجدان في نفوس الآحاد متفرقين ،

وقد كان فيلون مطليعاً على نسخ التوراة الأولى ، ومنها تسبحة يشير فيها سفر التكوير إلى إبراهيم باسم الخليل قبل أن تعرف هذه التسمية في كتب الأنبياء .

وقد نقل بولس بعض الشعائر من المدلولات الحسية إلى المدلولات النفسية الرمزية وانفتح الباب واسعاً لهذا التحول منذ قال السيد المسيح : إن أعمال الإنسان هي التي تظهره أو تتجسه ، ثم مضى بولس في هذا الطريق على الرغم من معارضة بطرس وزملائه ، لأنه أدرك أن اشتراط الختان ومراسم البيع والهيكل لقبول الوثنيين في الدين الجديد عائق شديد يوشك أن يصد هم جميعاً عن الإصغاء إليه ، وقد انتهى الأمر في القرون الحديثة إلى إسقاط هذه المراسم في مذهب اليهود الذين سموا أنفسهم بالأحرار أو يهود الإصلاح وشاع مذهبهم منذ القرن التاسع عشر بين اليهود والغربيين .

وتتابعت تفسيرات الآباء للشعائر الجسدية بالرموز النفسية من القرن الأول للميلاد ، فأخذ بها معظم الكنائس الشرقية والغربية وفيما يلى مثال من تفسيرات هذه الرموز منقول من كتاب الدر الثمين في شرح سفر التكوير<sup>(٢)</sup> .

وإن الخطية هي غلفة<sup>(٣)</sup> النفس ، فإذا نحن تعبدنا خن روح القدس تلك الغلفة التي جعل الله غلفة اللحم إشارة إليها ، وإنما غلفة اللحم إذا اختفت لا يمكن عودتها ، وأما هذه الغلفة التي هي الخطية فإذا اختفت روح القدس يوم العمودية وظهر الإنسان منها فالشيطان يعود فيقاتله بها فينبغي له أن يقاتله دائماً ولا يفعلها .

إلى أن يقول : أما قول الله لإبراهيم إن ملوكاً تخرج منك فليس بملوك أرضية يمتدح الله ويُفخر ، ولو كان الذي أمره الله بالختان قال له : إن ملوكاً تخرج منك ، وتحقق ذلك أن الذي يختتن الخاتمة الروحانية المتقدم ذكرها فعقله يكون ملكاً وحاكمًا على أفكاره وعلى شهواته ولذاته ...

\* \* \*

وظلت أخبار التلمود والمدراش عن إبراهيم شائعة بين المسيحيين كما كانت شائعة قبل الميلاد ، لأنهم يرجعون إلى العهد القديم وشروحه وتفسيراته ، ولكنهم اعتبروا أن بشائر إبراهيم كلها مرهونة بظهور المسيح الذي يكون الخلاص على يديه ، ومن أجل المسيح تلقى إبراهيم تلك البشائر من الله ، فانتشرت الكرامات المعجزات التي نسبت

(٢) طبع سنة ١٨٩٥ بمصر ونقل من نسخة خطية كتب سنة ١٤٠٩ قبطية .

(٣) غلفة : الغلفة بالضم الجلدية التي يقطعنها الختان .

إلى الأنبياء والآباء قبل الميلاد انتشاراً كبيراً والمعجزات التي نسبت إلى الأنبياء والآباء قبل الميلاد انتشاراً كبيراً في صدر المسيحية وزمنا طويلاً بعد نشأتها الأولى إلى ما بعد القرون الوسطى ، وجعل الرواة المسيحيون يلحقونها بمعجزات المسيح ويحسّبونها مقدمة لا تم إلا بتحقيقها الموعودة ، وهي دعوة المسيح إلى النجاة .

وعلم بعضهم إلى تفسير كتب العهد الجديد بهذه العقيدة في أقوال غير معتمدة . ولكنها سرت بين السواد والعلية كما سرت من قبل تفسيرات العهد القديم .

فمن أمثلة ذلك عبارة وردت في رسالة بطرس الأولى حيث يقول في الإصلاح الثالث : «إن المسيح أيضاً تأمِّلَ مرة واحدة من أجل الخطايا .. مماتاً في الجسد حتى في الروح »<sup>(٤)</sup> وبالروح أيضاً ذهب فوعظ الأرواح التي في السجن ، إذا عصت قدماً حين كانت آنذاك تتضرّر مرة في أيام نوح » .

فبني بعضهم على هذه العبارة قصة لا يعتمدها المفسرون الكتائيون وقالوا في تفسيرها : إن السيد المسيح هبط إلى الماوية - سنة ثلاث وثلاثين للميلاد - وأطلق منها أرواحاً صالحة ذهبت إليها قبل بعثته ، ولم تكن لها جنائية تعاقب عليها ولكنها كانت في حاجة إلى التطهير بماء العماد لدرك نعمة النجاة ..

وسرت هذه القصة من السواد إلى العلية من أمثال الشاعر الإيطالي الكبير دانتي البيجيري صاحب الكميديّة الإلهيّة ، فقال في القصيدة الرابعة من الحوار بينه وبين الشاعر الروماني القديم «فرجينيل» قائله في طبقات الماوية :

«لم تكن ثمة شكانة تسمع إلا الأنين الذي يهز الأجواء الأبديّة ، وكان ينبعث من تلك الأحزان التي لا عذاب فيها : أحزان الجموع المكونة من الأطفال والنساء والرجال . فقال لي أستاذى : إنك لم تسأل عن هذه الأرواح التي تراها هنا . وأود أن أعرفك بها قبل أن تقدم في طريقنا [إليها] لم تخطئ ، وكان لها فضل ، ولكنه لا يغدو حاجتها إلى العماد وهو الإيمان الذي أنت به تدين .. «فإنها تقدمت عصر المسيح فلم تعبد الله على سواء ، ومن هذه الأرواح كنت المتحدث إليك .. «فتشى قلبي حزن عظيم عند سماعه ، لأنني أعرف أناساً ذوي فضل كبير معلقين في تلك الطبيقة ..

«وقلت له : أخبرني يا أستاذى ، أخبرنى . وأردت اليقين من هذا الإيمان الذي يغلب كل خطأ : لم يخرج من هذا المكان أحد خرج منه بفضل أو بفضل غيره وأدركه النجاة بعد خروجه »

(٤) يقول الدكتور وندل هاريس Harris : إن كلمة : أخوخ حذفت من نسخة قديمة في هذا الموضع ، ويكون أخوخ على هذا هو الذي وعظ الأرواح .. تراجع ترجمة Moffat طبعة سنة ١٩٥٠ صفحة ٢٩٥ .

ووفهم طوبية كلامي فأجابني قائلاً : لقد كتبت هنا حين لحت قادماً جليلاً عليه إكيليل النصر ، فإذا هو قد بدأ فأخذ في التظل أباًنا الأقدام - آدم - وابنه قايبيل ونوحًا وموسى المشرع المطهير ، ثم إبراهيم الأب وداود الملك ، وإسرائيل وأباه وبنته ، ومتهم راحيل التي صنع من أجلها الكثير وأخرج غيرهم ، وباركهم ونجاهم ، وأعلم أن أحداً قبل هؤلاء لم يكن نبياً .

وبهذه الصيغة وما شابها سرت أخبار العهد القديم وتفسراته بين المسيحيين ، ثم تفرق رأى الكائس المسيحية في النظر إلى العهد القديم ، فمنها ما يعتبره وحياً متولاً بجميع تفصياته ، ومنها ما يقصر الوحي على كتب الشريعة وهي الكتب الخمسة التي نعرف بكتاب موسى ، ومنها ما يعتبره كله أخباراً تاريخية أو وقائع مروية في صيغة شعرية .

وعلى حسب النظر إلى هذه الكتب يختلف النظر إلى إبراهيم من حيث اعتقاد العصمة أو الخطيئة .

فمن أتباع الكنيسة الإنجيلية من ينقد مسلك إبراهيم حين قال : إن سارة أخته ولا يبال أن يصرح بالنقد في كتب التدريس كما فعل الأستاذ ولIAM نكلسون حيث قال في موسوعته الموجزة عن التوراة تحت مادة إبرام :

إن مسلك إبرام هنا هو أشد المواقف التي تحيل إلى إسحاق الستار عليها في سيرة هذا الرجل الجليل ، لقد كان عملاً لا يواهم مقام تلك الشخصية العظيمة ، ولا جرم ففي وجه الشمس سفعمات ، ومثل هذا دليل على صدق تاريخ الكتاب وأن مؤرخيه لم يستروا نفاصاً قط في أحسن الناس<sup>(٤)</sup> .

ومن شراح الكنائس الأخرى من لا يلوم إبراهيم على هذا المسلك ويشيد به لأنَّه أسلم نفسه إلى مشيئة الله وأيقن أنه لن يخذله ولن يصنع ما يعاب ، فهو آية على إيمانه وغلبة الثقة بتدبير الله على وساوس الخوف والريبة في نفسه .

ويتوسط بعضهم بين النقد والإعجاب كما فعل الدكتور جوليبلود Guillebaud فيقول :

إن هذه الخطايا سجلت بأيدي فاعليها ويرضاهما وموافقتهم ، وحفظتها أبناؤهم وذرارتهم من بعدهم . فلم كان ذلك ؟ إن شيئاً من هذا لم يسجل على ملوك بابل ومصر ، وتکاد سيرتهم أن تبدو كاملة نقية من العيوب ، وقد محبت من تلك الصور كل وصمة وجلبت فيها كل زينة . ولكن

من ياترى من ذوى العقل السليم بعد هذا يود أن يتبع مثال رمسيس أو بنو عدننصر كما يود المسيحيون أن يدرسوا حياة إبراهيم ويعقوب وداود؟ إن العلة غير بعيدة المثال ، فإن أبطال العهد القديم أناس حقيقيون لهم حس كحسنا وشعور كشعورنا ، وسيرتهم صادقة الخبر وعيوبهم سافرة للنظر ، فمن هدف السيرة الأمينة يستطيع القارئ أن يتصدر التذير ويتفق مثل هذه السقطة ، ويغتنم مع هذا شجاعة وإلهاماً من قلعة الإيمان المتصر في تلك السير ... .

\* \* \*

وكذلك تبدو لنا صورة الخليل كما تمثلت في المراجع المسيحية من كتب العهد الجديد ومن المرويات الشعبية التي تناقلتها الألسنة وسررت إلى كتب الأدب ذات الصبغة الشعرية إلى ما بعد القرون الوسطى .

وقد عنيت المراجع المسيحية في العصر الحديث بناحية من تاريخ الخليل أهم من تلك المرويات الشعبية في نظر القارئ العصري وهي الناحية التاريخية ..

فالمراجع المسيحية تشغلها هذه الناحية التاريخية في القرن الأخير بعد أن شاعت بدعة الشك في وجود أقطاب الأديان ، وفي مقدمتهم إبراهيم وسلاطنه الأولون ..

وليس الناحية التاريخية عامة هي التي تعنى في هذا الباب لأننا سنفرد لها باباً خاصاً يدور على الكشف المخفي والبحوث المقابلة في أقوال المؤرخين المحدثين .

ولكن الناحية التاريخية التي نعني بها في هذا الباب - باب المراجع المسيحية - هي الناحية التي تفرغ لها الدارسون ليلحقوها بالكتب الدينية وشرح العهدين القديم والجديد ، فهي مقصورة على هذه الناحية ، ومحورها الغالب عليها هو المضاهاة بين تواريχ الكتب الدينية والمواقيت التي اتصلت بها من تواريχ الأمم الغابرة .

\* \* \*

فمن أحدث هذه المراجع كتاب «موجز التعليقات الحديثة على الكتاب» من تأليف نحو ثلاثة علماء اللاهوت في إنجلترا ، وكلهم من المطلعين على كشف الآثار التي لها علاقة بتواريχ التوراة والأنجيل .

يدرك المؤلفون في الفصل الذي عنوانه «العالم في أيام إبراهيم» أن لوحات من الألوان التي كشفت بمدينة أور قد وجد عليه نقش باسم «إيراما» يرجع على ما يظهر إلى زمن

سابق لزمان إبراهيم ، ومن هذه الكشوف لوح آخر منقوش عليه شريعة حمورابي وفيها أحكام مماثلة لأحكام الشريعة الموسوية ، ومع هذه الكشوف ألواح كتبت عليها جداول للضرب ومعجمات للمفردات اللغوية وسجلات لأنظمة الحكومة وأسانيد بما وصل إلى المياكل من حساب القراءين فقد نشأ إبراهيم إذن في مدينة ليست بالهينة والعالم يومئذ قديم .

ويشيرون في هذا الفصل إلى نقوش كشفت على جدار قبر من القبور الأثرية بقرية بشى حسن بمصر يرجع تاريخها إلى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، وبين تلك النقوش صورة قافلة مؤلفة من سبعة وثلاثين من الساميين بقيادة أبيشوا Abichua يحملون بضائع بلادهم ليستبدلوا بها غلة مصرية .

وأشاروا إلى الكلمة «عبرى» ومعناها ، فقالوا : إنها وجدت من آثار «رم سن» سلف حمورابي ، كما وجدت في نص من النصوص البابلية التي كشفت في بلاد الحبيثيين الأقدمين من آسيا الصغرى – وتسمى اليوم بوغاز كوى – ووُجِدَت كذلك في نصوص حورانية عند بلدة توزى بالعراق وكان لها معنى أعم من معناها الخاص بعد ذلك بأرباء إسرائيل ، وفيهم منه أن الكلمة كانت مرادفة لكلمة الجنود الرحل الذين يستأجرهم قادة الجيوش ..

قالوا : وإن عاصمة الحبيثيين التي رفعت عنها الأنماض سنة ١٩٠٦ قد كشفت فيها ألواح بالخط المسمارى دلت على مفتاح اللغة الحبيثية ، وأن الحبيثيين كانوا يتكلمون لغة هندية جرمانية على مشابهة باللاتينية ، وقد نزحوا من الشرق إلى آسيا الصغرى وامتدت دولتهم شرقاً إلى الفرات وجنوباً إلى قادش ، وهم بنو «حث» الذين أشار إليهم إبراهيم في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكويرن إذ يقول : «وكلم بني حث قائلاً : أنا غريب ونزلت عندكم أعطيوني ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى» ..

وقالوا : إن أسماء الملوك التي وردت في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكويرن قريبة من بعض الأسماء التاريخية ، فاسم امرأفل قريب من اسم حمورابي البابلي وتدعى قريبة من تدحاليا الحشى والأسماء الأخرى وجدت لها مشابهات من هذا القبيل ، ولكن لا يوجد الدليل القاطع على وحدة المسمى ..

وكان الرعاعة أو المكسوس (هاك شاسو) يحكمون مصر من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة ، وفي هذه الفترة حدثت هجرة الآباء العبريين إلى الديار المصرية .

\*\*\*

ومن كتب التعليقات كتاب كالذى تقدم في موضوعه ، إلا أنه أوسع شرحا وأحدث عهدا - لأنه طبع طبعة المدقحة سنة ١٩٥٢ - وعنوانه «تعليقات موجزة على الكتاب» ، مؤلفه جوزيف أنجوس Angus من أكبر فقهاء اللاهوت .

يقول مؤلف هذا الكتاب : «إن الآثار تحتمل أن امرأفل - الذي حازب إبراهيم - هو حمورابى الذى كان ملكا على بابل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، والمحفريات المسماوية تربط بين اسمه واسم معاصره «أرى آكرو» .. في حين أن كدلعومر يشابه قدار لعمار بمعنى خادم لعمار أحد الأرباب الكبار في شرق الدجلة السفل ، واسمه منقوش على حجر من ألواح حمورابى ، وكان هذا قبل ارتباط أرض إسرائيل ببلاد شنوار بعدة قرون . قال المؤلف : وكانت مصر عند هجرة إبراهيم ثم هجرة يعقوب والله ، خاضعة لحكم الرعاة المكرهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسماية سنة ، ومن ثم كان الترحيب بإبراهيم ثم الترحيب بيعقوب وإقطاع قومهم أرضا في البلاد .

قال : وفي عصر إبراهيم كانت في أرض فلسطين الجنوبيّة جالية من الحيثين ، ولكن عاصمتهم كانت إلى الشمال تبعد كما جاء في كتب العهد القديم من لبنان إلى الفرات .

وقال عن «أور الكلدانين» مدينة إبراهيم أنها كانت في الموضع الذى يسمى الآن المغير على الفرات الأدنى ، ولم تكن في أورفة كا خطرا بعضهم من قبل لتشابه اللفظ بين أورفة وأور .

وتقول تعليقات أbingdon التي اشتركت في تأليفها نحو سبعين عالما من علماء التاريخ الديني والتوراني :

«على حاشية الهرال الخصيبي انتشرت خلال الفترة التاريخية جماعات من القبائل الرحيل تشتعل بالصيد ثارة وبالغارات ثارة أخرى وبالمرعى بين هنا وذاك ، وهم الذين نسمتهم في الزمن القديم بالأراميين ، ومع استحالة الحياة المستقرة على الزراعة أو التجارة أو تقسيم الحقوق وسكنى المدن في ظل ذلك النظام الاجتماعي - يميل القوم إلى تجميع أنفسهم في جوار مراكز من مراكز الحضارة يعاملونه ويتجرون معه وقد يتصلون معه ببعض الصلات السياسية ..

وف وسع أمثال هؤلاء القوم أن يعيشوا على إنتاج قطعائهم وصيدهم ، ولكنهم غالباً ما يعتمدون على صلتهم بالمدينة – كما يحدث اليوم في الجزيرة العربية – لتحصيل غلات الحقل ومصنوعات المعمل بالمقاييس على مقتنياتهم ..

فإن تاريخ العبريين الرسمي ينتهي بقبيلة من هذه القبائل سكنت إلى جوار مدينة أور في جنوب العراق ، وعند نهاية الألف الثالث قبل الميلاد هاجر فريق منهم إلى الشمال بقيادة رئيس يسمى تارح ، كما جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكويرين .

وربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسي في جنوب العراق ، أصابت جرائره معيشة أهل أور ، ولعل هذا الاضطراب قد نشأ من تحول السيطرة السياسية من المدن العراقية إلى قبائل عيلام ، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة في مدينة أور ، وهذا الفرض يرجع بالحركة إلى ما بين سنة ٢٣٠٠ وسنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكيفما كانت الحقيقة ، فالهجرة قد حصلت ونزل القوم فترة بجوار حاران إلى شمال الملايين الخصيب .

ووما يستحق الملاحظة أن كل من أور وحاران كانت في القدم مركزاً لعبادة الإله – سن – الإله القمر من معibودات الساميين ، وسليقاناً اسمه مرة أخرى في شبه جزيرة سيناء .

وظلت طوائف من القبائل تترحل غرباً وجنوباً ، حيث صادف بعضها أرض المرعى والزرع وادي الفرات والأقاليم الجبلية الخصبة ، فاستقروا في مدن أشهرها دمشق ، ومدت طائفة أخرى بقيادة إبرام بن تارح (وابن قد تكون هنا يعني سليل) إلى أن استقر بها السم البطيء عند فلسطين وهي يومئذ في ظل حكومات المدن المشرفة ، ولم تزل الهجرة في مجريها تارة إلى غرب الأردن وتارة إلى شرقه ، وحياناً من دمشق وحياناً من شرقها إلى الحدود المصرية ، وخلال ذلك تمر بنا قصة عن علاقة مباشرة بين مصر وهؤلاء البدو ، وأخبار عن العلاقات بين الآباء العبريين وسكان كنعان المستقررين .

ثم يسترسل كاتب التعليقات فيقول : إن بعض العبريين وصل في هجرته إلى أرض جاثان بمصر ، ويرجع أن دخولهم لأول مرة كان على عهد دولة الرعاة أو المكسوس ، بين القرن الثامن عشر والسابع قبل الميلاد على وجه التقريب ..

\* \* \*

وترجح تعليقات هالي Halley الجبية أن إمرافل هو حمورابي أشهر ملوك البابليين ، وأن كارثة سديوم وعمورة التي حدثت في عصر إبراهيم تفترن بالخراب الذي قضى على سكان المدن هناك حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كما ظهر من كشف بعثة البريات وكيل Albright and Kyle سنة ١٩٢٤ .

ويضع هالي للحوادث المصرية مقابلاً من حوادث التوراة ، فيوضع عصر إبراهيم مقابلاً للأسرة الثانية عشرة حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر يوسف مقابلاً للأسرة

ال السادسة عشرة سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ، على سبيل الاحتمال ، وعصر موسى مقابل للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بين سنتي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد ، وتظهر الغرابة في تقديرات هال ومدرسته عند الرجوع إلى عصر إبراهيم وعصر يوسف وبينهما في تقديره نحو ألف ومائتي سنة ، والعلوم أن يوسف بن يعقوب وأن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ، وهذا مع اعتقاده أحياناً على نقوش الآثار وحسبانه أن وفـ الساميـن المرسوم على مقابر بيـت حـسن ، قد يكون وفـ إبراهـيم على الفـرعـون سـوـسـرـتـ الـذـى يـظـنـ آـنـهـ كانـ عـلـىـ عـرـشـ مـصـرـ فـذـلـكـ الـحـينـ .

ومن أصحاب التعليقات التوراتية المعروفيـن بالتصريح في التقدير لوثر كلارك Clarke صاحب التعليقات التي تقع في ألف صفحة كبيرة وتحـمـعـ منـ أـطـرافـ المـعـلـومـاتـ ماـ لمـ يـجـمـعـ فـمـرـجـعـ آخرـ يـشـلـ حـجمـهاـ<sup>(٣)</sup> .

فـهـذـهـ التـعـلـيقـاتـ تـضـعـ عـصـرـ حـمـورـاـيـ حـوـالـيـ سـنـةـ ١٩٠٠ـ قـ.ـمـ وـعـصـرـ الـآـبـاءـ الـعـبـرـيـنـ فـكـنـعـانـ بـيـنـ سـنـتـيـ ١٩٠٠ـ وـ ١٧٠٠ـ قـ.ـمـ وـعـصـرـ يـعقوـبـ وـأـبـيـائـهـ فـمـصـرـ حـوـالـيـ سـنـةـ ١٧٠٠ـ قـ.ـمـ ، وـنـهـاـيـةـ عـصـرـ الـتـكـسـوـسـ حـوـالـيـ سـنـةـ ١٥٥٠ـ قـ.ـمـ .

ويرجع كلارك – اعتقاداً على الآراء الحديثة – أن عصر حمورابي مختلف عن عصر الواقع التي تنسب إلى إمبراطور بمائة سنة أو أكثر ، وأن إمبراطور حمورابي لا يدلان على شخص واحد ، وأن الغور العميق الذي غلأه أمواج البحر الميت أتدم جداً من الوقت الذي قدر لخراب المدن المذكورة في قصة إبراهيم ، ويتساءل : ما هو الباعث الذي أدى بالملوك الخمسة إلى الأردن جنوباً قبل مواجهة أعدائهم الذين يحاربونهم ، وهو لا يستبعد أن يكون جيش من البابليـنـ والعـيلـامـيـنـ مـعـاـ قدـ زـحفـ عـلـىـ جـهـاتـ فـذـلـكـ المـوـقـعـ لإـرـغـامـ القـبـائلـ عـلـىـ أـدـاءـ الـجـزـيـةـ أـوـ الضـرـبةـ الـتـيـ تـفـرـضـ عـلـىـ رـعـوـسـ الـقـبـائلـ .

ويعتمد كلارك على الظواهر الأرضية (الجيولوجية) كثيراً فيرى أن العيون الحمر التي أشار إليها الإصلاح الرابع عشر من سفر التكوين هي في الغالب من النقط الذي يتکائف بالتبخر ويطفو على الماء كما كان يحدث على سطح البحر الميت ، ولا مانع أن يشاهد

على وجه الأرض قبل امتلاء الغور بالماء ، ويرتبط خراب المدن التي وردت قصتها في سيرة إبراهيم بهذه الظواهر الأرضية التي يمكن أن تستقصى في يوم قريب ، فيبني على استقصائها تحقيق حكم لتاريخ تلك الأحداث .

ويضارع هذا الكتاب في الصبغة العلمية الكتاب الذي ألفه جماعة «دراسة العهد القديم» واشترك في تأليفه أكثر من عشرة من علماء هذه الدراسات ، وهو كتاب العهد القديم والدراسة الحديثة .

يقول الأستاذ البرايت Albright وهو أحد أصحاب البعثة للكشف عن الآثار :

إن مسألة الحكسوس لا تزال على عسراها ، ولكنها أخلية في التكشاف والإبانة عن الحوادث التالية بعد البحوث التي تناولها ونلوك وستوك كاتب هذه السطور ، فتحن نعلم اليوم أنها لابد أن ترجع إلى الفترة بين سنتي ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد وأن قيادة الحكسوس في يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية أية كما كان بعض العلماء يقدرون إلى زمن قريب .

إلى أن يقول بعد استطراد وجيز عن مقبرة توت عنخ آمون :

ولكن أهم من هذا كله - تقافيا - تلك الأوراق البردية التي كشفها شستر بيتي Beatty من آثار عصر رمسيس بما احتوته من الدلالة على مدى النهضة الأدبية في ذلك العصر الذهبي ، ولخص منها بالذكر من حيث فائدتها للدراسات التوراة تلك القصائد الترامبية التي تحيي عن نظام أناشيد سليمان وإن خالقتها كثيرا في التفصيات ، وتلك الترنيمة المقاربة لعقائد التوحيد التي تدل على استمرار التوحيد الشمسي من العمارنة بعد وقوف كهنة آمون له بالمرصاد .

ويقول هذا الكاتب ، ومعه زميل من المشغليين بالكشف في فلسطين :

إن فلسطين لم تدخل في فصص التوراة قبل هجرة إبراهيم من حaran ولا يمكن بأى تقدير من التقديرات أن توضع تلك الهجرة في تاريخ سابق لنهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تأتى بعد ذلك بقرون ، ويبدو واضحا من مؤشرات سفر التكوير أن هناك دورا متوسطا من العصر البرونزى بين القرن الحادى والعشرين والقرن السادس عشر قبل الميلاد .

ويتحدث عن كشوف رأس شمرا في الشمال المقابل لجزيرة قبرص من شاطئ بحر الروم ، أنها غيرت الصورة التي كانت مرتبطة للحضارة الكنعانية في أذهاننا كل التغيير ، وأنها أثبتت أن حضارة كنعان كانت تمتد في العصر البرونزى المتأخر من غزة جنوبا إلى رأس شمرا شمالا «أغاريت القديمة» وأن اللغة والديانة والحضارة كانت واحدة في هذه البقاع ، ولم يكن اختلاف اللغة إلا من قبيل اختلاف اللهجات .. وأننا نرى اختلاف «يسوعة الفخارية» وغيرها من البقايا المادية بارزا يينا عند الجانب الأسفل .

نهر العاصي حيث تتضمن الملاعن الحورية والأمورية في معالم الثقافة العليا ولا يلاحظ على الساحل مثل هذا الاختلاف.

ثم يتحدث عن كشف تل الحريري عند وادي الفرات الأوسط فيقول :

إن الأستاذ أندرى باروت وزملاؤه أخرجوا من الأنقاصل قصراً كبيراً لمن العصر البرونزى الأوسط ، كان مزدهراً في أواخر القرن الثاني عشر وفقاً للتقديرات التي تقدم بعض حمورابى إلى ما بين سنتي ١٧٢٨ و ١٦٨٦ قبل الميلاد ..

لقد أخرجوا في هذا الموضع نقشاً فذة على الجدران وبقايا فنية أخرى ، وفوق ذلك نحو عشرين ألف لوحة وأعشاراً من اللوحات من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، كلها باللغة الأكادية التي تأثرت أحياناً باللغة الأمورية التي يتكلّمها أبناء القبائل في ذلك الإقليم .. وفائدة هذه المكتشفات التي كسرت الآن حواجز البحث في دراسات التوراة ستأتي في أكثر الأحوال من طريق غير مباشر ، ولكنها لا تنقص بذلك في قيمتها ، إذ كانت الثقافة العالمية في عصر الآباء العبريين وراء كل تطور في آسيا الغربية ، وسيصبح ميسوراً لنا عما قريب أن نركب أحجرومية اللغة الأمورية ومعجماتها من تلك الأمورية الأكادية التي كان يكتب بها كتاب ماري في الوادي الأوسط من نهر الفرات ، ويظهر أن هذه اللغة التي تتخلل أسماء الأعلام هي لغة الآباء العبريين في ليابها ، وأنها على التحقيق لغة الكلام الذي تعمّله في أعمال الفلسطينيين الرحل والمقيمين التي وردت في المخطوطات المصرية التي ترجع إلى القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد<sup>(٧)</sup>.

ثم يعرض الكاتب لكشف تلك العطشانة على نهر العاصي الأسفل وكشف حماة على أواسط النهر فيه منها علىخصوص بسيرة حياة الملك ادريبي المنقوشة على تمثاله الذي يمكن تاريه أنه يكون قريباً من سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ، وفي هذه السيرة حوادث وقعت في سوريا الشمالية مشابهة للمحوادث في قصة يوسف ، ولعلها كانت تجتمع حول نواة من عصر المكسوس ، وقد أشارت سيرة ادريبي إلى غيرة إخواته الكبار وفحط السنوات السبع وضروب من الحدس لاستطلاع الغيب ثم يعرض للكشف التي أبرزت المناسبة بين حضارة المحيدين والأراميين وحضارة إسرائيل ودمشق .

وينتقل إلى كشف الريحانية في الناحية الجنوبيّة من سهل أنطاكية وما لها من القيمة في الاستدلال على العصر الحديدي ، وأهم ما فيها بقايا هيكل من القرن التاسع قبل الميلاد على رسم قريب من رسم هيكل سليمان الذي بني في القرن العاشر .

(٧) سؤال بيان الأهمية الكبيرى الذى يتطوى عليها هذا الكشف الخطير لأنّه سيحدّد العلاقة بين اللغات السامية القديمة ومنها الأكادية لغة بابل ، والعبرية لغة الخليل ، والأرامية لغة العرب الشمالية ، واللغة العربية على العموم ، وبجمع ذلك الاستدلال على أصول المعتقدات عند أبناء هذه اللغات .

ويستطرد إلى كشف قليقية على مقرية من حدود سوريا الشمالية ، وأسانيدها ترجع إلى ما بين سنتي ٨٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد ، وطا شأنها في دراسة تطور اللغة العبرية .

ويتناول الأستاذ هينمان Heinemann من جامعة سانت اندرز بحثاً لغويًا عن العبرية ، فيقرر فيه أن الآرامية – وهي العربية الشمالية – كانت سابقة في سوريا وفلسطين لكل من اللغتين الكنعانية والعبرية ، معتمداً على كشف رأس فمرا ، وعلى الحضارات الكنعانية التي اشتغلت عليها رسائل تل العمارنة ويردها إلى نحو ١٣٧٥ قبل الميلاد

ونخت هذه الشواهد بمرجعين تقليديين من مراجع هذا الموضوع وهو أطلس وستمنستر التاريخي ، وموسعة وستمنستر المتقدمة طبعة سنة ١٩٤٤ ، وهو خاصان بجغرافية التوراة والعهد الجديد وتاريخهما ، وقد توفر على تأليفهما من وجهات النظر المتعددة نخبة من علماء هذه المباحث المشغلين في الكتب الأثرية والكتب العصرية بدرسها في الآثار والحفريات وبالاطلاع على سجلاتها ومدوناتها .

وهذا المرجعان متافقان مع أحدث المراجع المتقدمة على تقرير عصر الآباء العبريين ، واستضعاف الأقوال التي توغل به في القدم ، وقد وضع الأطلس التاريخي عصر إبراهيم بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ووضع عصر حمورابي في ختام هذه الفترة ، وعرض لقصة سنوحى الموظف المصرى الذى غادر بلاده (حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م) وعاش بين الأمراء فى سوريا الشرقية ، ولاحظ المشابهة بين الأمكنة التى أقام فيها سنوحى على نحو من البداؤة وبين الأمكنة التى عاش فيها على هذا النحو آباء العبريين ، ورجح أن وفـد الساميين المرسوم على مدافن بنى حسن قدم إلى مصر في عصر القبصـة السنوحـية وأن الدولة المصرية التي كانت قائمة بمصر هي الأسرة الثانية عشرة وقد بسطت حكمها على سوريا وفلسطين وأدارت حركة واسعة من التجارـة البحـرية بين مصر وقبرص وكريـد وشواطئ البحر الأحـمر ، وبلغـت بـحدودـها الجنـوبـية إـلى الشـلالـ الثـالـثـ حيث أـقـامـتـ حـصـنـ الحـدـودـ عندـ سـمـةـ ، وـكـانـتـ هـاـ بـعـثـاتـ إـلـىـ سـيـنـاءـ لـلـكـشـفـ عـنـ مـعـادـنـ النـحـاسـ وـالـفـيـروـزـ ، وـأـخـرىـ إـلـىـ أـرـضـ النـوـبةـ لـلـكـشـفـ عـنـ مـعـادـنـ الـذـهـبـ ..

و جاء في هذا الأطلس أن التاريخ حق وجود بلاد في أرض حاران تطلق عليها أسماء كأسماء آباء إبراهيم : فالج وسرج وناحور وتارح ، وأن اسم حاران نفسها قريب من اسم أخي لإبراهيم ، وأن وحدة الاسم قد تأثرت مصادفة في حالة شخص واحد . ولكنها هنا متفرقة في أربعة أسماء على الأقل في حيز محدود ، والمهم في هذه الملاحظة أن كتاب الأطلس يحسبون أن هذه البلاد حملت أسماء القبائل التي أنشأتها أو أن القبائل أطلقت عليها أسماءها بعد الاستيلاء عليها في القلاقل التي حدثت حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

واستطرد كتاب الأطلس من تشابه أسماء الآباء والمدن إلى الأسماء التي كانت شائعة بين الأمريين ، ومنها إبرام في صيغة أبي مرام وبعقوب في صيغة يعقوب ايل ، وذكروا أن اسم قبيلة بنيامين وجد في الواح الحفائر بوادي الفرات الأوسط ، وأن حفائر توزى في وادي الفرات الشمالي اشتملت على وصف عادات اجتماعية تفسر عادات الإرث والزواج وأصنام الأسرة (الطرافين) التي أشارت إليها كتب العهد القديم ، وأن عصر تلك الحفائر يوافق العصر الذي دون فيه الإسرائيليون كتب التوراة وما بعدها من الكتب القديمة ، وهذا عدا الآثار التي روت أخبار الطوفان وأخبار الخلقة مما لا نظير له في مأثورات مصر أو كنعان .

ومن الطبيعي أن يعني الأطلس بالواقع الجغرافية في سياق التاريخ ، وكذلك عنى الأطلس في سيرة إبراهيم بموقع رحلاته إلى مصر في ذهابه وعودته ، ومنها أرض الجنوب بين قادش وشور ، وتعرف الآن باسم وادي غزة ، وهو واد كان له شأن في تاريخ بني إسرائيل إلى ما بعد خروجهم من الديار المصرية ..

أما الموسوعة التي تحمل اسم وستمنستر أيضا – مع اختلاف المؤلفين -- فهى توافق المراجع الحديثة كذلك في تقرير زمان الآباء ، وتقرر أن وحدة اسم حمورابى واسم أمارفيل محل مناقشة واعتراض في المباحث الأخيرة ، وأن إلحاقي إيل باسم أمارفيل مشكلة تستوقف أنظار المتأخرین ..

وبعد أن ذكرت أن تاريخ حمورابى وضع في عصور مختلفة بين سنة ٢١٢٣ وسنة ١٧٩٢ قبل الميلاد عادت فقالت : إن الكشف عن الحديقة ترجح وضعه بين سنتي

و ١٧٥٠ أو ١٧٤٩ ، وأن شريعته المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية في سفر الخروج من التوراة ، وأن أسلوب المواد يتشابه في ابتداء العمل كما تتشابه العقوبات ولاسيما عقوبات القصاص قال : وبعيد أن تكون شريعة حمورابي أمام المشرع العبرى عند تدوين أحکامه ، ولكن المحتمل أن الشريعتين ترجعان إلى أصل سامي قديم .

وترى الموسوعة – اعتقادا على تقدير الأسقف يوشر – أن مولد إبراهيم يوافق سنة ١٩٩٦ ق.م ، وأن طريق الجيش الذى حاربها إبراهيم كما جاء في الإصلاح الرابع عشر من سفر التكوين كانت إلى الجنوب على حافة جلعاد وموآب ، وتدل كشوف العالمين الآثريين البرait وجلويك على أن هذا الطريق تخلله فيما مضى مدن هامة قبل سنة ٢٠٠٠ ق.م ، وظلت عامرة نحو قرن أو قرنين لا أكثر ، وفي رواية سفر التكوين أن سليمون وعمورا دمرتا في حياة إبراهيم ، ومن كشوف جلويك يظهر أن المدن التي على هذا الطريق ظلت مقفرة إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكنها في القرن العشرين ق.م كان محجة دينية حافلة بجوار المكان الذي يعرف الآن باسم باب الدرعة . فمن المعقول إذن أن يكون مولد إبراهيم حوالي الزمن الذي قدره الأسقف يوشر ، وأن سليمون وعمورا خربتا حوالي سنة ١٨٩٨ قبل الميلاد .

وتقول الموسوعة أن اسم مرافل – أحد الملوك الذين حاربهم إبراهيم – يصعب تعين صاحبه كما يصعب تعين زملائه الآخرين ، ولكن هذه الأسماء جميعا لا يبدو عليها أنها اختراع من مخترعات الخيال . إذ ليست غارة الأمراء البابليين على فلسطين وما جاورها أمرا نادرا في تلك الأيام .

\*\*\*

ونكتفي بما تقدم من هذه المراجع التاريخية التي ألمقناها بالمصادر المسيحية ، وقد ألمقناها بها لأن كتابها في جملتهم يدونون التاريخ من الجانب الذى له علاقة بكتب العهد القديم والعهد الجديد ، وتغلب عليهم رغبة في تدوينه على النحو الذى يصحح أخبارها وينقض ما تحدى الناقدين عليها ، فهو ياب في التاريخ غير الباب الذى سفرده لأقوال المؤرخين للحوادث من الوجهة العامة .

وليس أهم من تمحیص هذه الأقوال لمن يريد أن يحقق سيرة الخلیل عليه السلام .  
إذ هي ألزم ما يلزم لمعرفة العقائد والشعوب في عصره ، ومن هنا تتجلى حقيقة الرسالة  
وبواعتها ومبني الخلاف والوفاق بينها وبين ما حولها ، وكل شيء يتوقف على تقدير  
أحوال الزمن بعد تعینه ، وتقدير أحوال الشعوب في ذلك الزمن بعد التثبت من مواقعها  
وعلاقاتها .

وفيما أسلفناه بصيغ من النور نرجو أن نضيف إليه بصيغ آخر يفيض على جوانب  
السيرة جيما ، بعد الفراغ من تلخیص هذه الشواهد والمصادر .

## المراجع الإسلامية

وتأقِي مصادر الإسلام في ختام مصادر الأديان الكاذبة ، وسترى أنه ما من شيء كالمصادر الإسلامية يثبت قيام دعوة إبراهيم ، بل يثبت وجود إبراهيم الذي شُكَّ فيه أصحاب بدعه الشك في كل خبر قديم من غير سند يستندون إليه ، ولا يعني هنا أدلة تاريخية تستمد من روایات الأخبار ، وإنما يعني دليل التسلسل المنطقى الذى يصدق حين تكذب التواریخ ، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه ، ونكتفى هنا بإيراد أخبار الخليل في المصادر الإسلامية وهي : القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والتفسير وما يلحق به على سبيل التفصيل أو الاستطراد .

( ) ورَدَتْ أخبار الخليل في سور كثيرة ، بعضها أقرب إلى الإسهاب وبعضها يميل إلى الإيجاز ، وهذه هي الآيات التي جمعت سيرته في بيان مفصل .

فمن سورة مریم : (٤١ : ٤٨)

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا لِّقَانِتَةً ۚ إِذْ قَالَ لِأَيْمَنَتْ يَأْتِيَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَعْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ ۚ يَأْتِيَتْ إِنِّي قَدْ جَاءَ فِي مِنْ أَعْلَمِ مَا تَمَّ يَأْتِيكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ ۚ يَأْتِيَتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِرَحْمَنَ عَصِيًّا ۚ ۚ يَأْتِيَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابًا مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْقَنِ يَأْتِيَنَّهُمْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُ لَأَرْجِمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ۚ ۚ قَالَ سَلَّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّ إِنَّهُ كَانَ فِي حَفْنَةٍ ۚ ۚ وَأَعْزِلُكُمْ وَمَا نَدْعُونَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسْوَ أَلَا أَكُونَ يُدْعَى عَلَيْهِ رَبِّي شَقِيقًا ۚ ۚ ﴾

(١) حفنا : مبالغ إيجازى .

ومن سورة الأنبياء : (٥١ : ٧٢)

﴿ وَلَقَدْهُ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِّنْ قَبْلِ وَكُنَّا  
بِهِ عَلَمِينَ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْمَاشِيلُ الَّتِي  
أَنْتُمْ هَامِعُوكُفُونَ ٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا إِبْرَاهِيمَ نَاهًا عَنِ الْمِيزَانِ  
قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَسْمَوْهُ أَبَا أَوْكَمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٥٣ قَالُوا  
أَحْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ النَّاعِينَ ٥٤ قَالَ بَلْ رَبِّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ٥٥ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ  
وَنَاهَلُهُ لَا كَيْدَنِ أَصْنَمُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُؤْمِنِينَ ٥٦  
فَجَعَلَهُمْ جُذَادًا إِلَّا كَيْدَرَاهُمْ لَعْنَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ  
قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا إِنَّا هُنَّا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٥٧  
قَالُوا سَمِعْنَا فَيَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمَ ٥٨ قَالُوا فَأَنْتَ أَنْتَ  
عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعْنَهُمْ شَهِدُونَ ٥٩ قَالُوا إِنَّكَ فَعَلْتَ  
هَذَا إِنَّا هُنَّا إِنَّا إِبْرَاهِيمَ ٦٠ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُرَاهُمْ  
هَذَا فَسْتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ ٦١ فَرَحَّعُوا إِلَيْهِ  
أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ٦٢ ثُمَّ تُكْسِبُو عَلَى  
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَذُولَاءِ يَنْطَفِقُونَ ٦٣ قَالَ  
أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا  
يَضُرُّكُمْ ٦٤ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا  
تَعْقِلُونَ ٦٥ قَالُوا حَرَّقُوهُ وَاصْرُرُوهُ إِلَيْهِمْ كُمْ إِنْ كُنُّمْ  
فَعَلِيهِنَّ ٦٦ قَلَّتِنَا إِنَّا كُوْنِي بِرْدًا وَسَلَّمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ٦٧

وَأَرَادُوا إِيمَانَهُ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ١٧ وَبَخِتَنَكُهُ  
وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَنَا فِيهَا الْعَالَمِينَ ١٨ وَهَبَنَا  
لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ١٩ وَلَمْ يَجْعَلْنَا صَدِيقِينَ ٢٠

وَمِنْ سُورَةِ الصَّافَاتِ : (٨٣ : ١١٣)

شَيْعِيلِمْ لِإِبْرَاهِيمَ ٢١ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ يَقْلِبُ سَلِيمِ ٢٢ إِذْ قَالَ  
لِإِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٢٣ أَيْقَنًا ٤ إِلَهُهُمْ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ  
فَمَا ظَلَّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٢٤ فَنَظَرَ نَظَرَةً فِي النُّجُومِ ٢٥  
فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ٢٦ فَنَوَّأْعَنَهُ مُدَبِّرِينَ ٢٧ فَرَاعَ إِلَى الْهَمَّٰنِ  
فَقَالَ أَلَا تَأْكُونُ ٢٨ مَا الْكُوْكُلُ لَا تَنْطِقُونَ ٢٩ فَرَاعَ عَلَيْهِمْ ضَرِيْا  
بِالْيَمِينِ ٣٠ فَأَفْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْقُونَ ٣١ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا شَحَّوْنَ  
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٣٢ قَالُوا أَبْتُوا اللَّهَ بِتَبَيْنَانًا فَأَفْغَوْهُ  
فِي الْحَجَّيْرِ ٣٣ فَأَرَادُوا إِيمَانَهُ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْقَلِينَ ٣٤  
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدِنَاينَ ٣٥ رَبِّ هَبَّ لِمِنَ الْصَّابِرِينَ  
فَبَشَّرَنَاهُ بِغُلَمٍ حَلِيمٍ ٣٦ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ  
يَتَبَيَّنَ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ أَنِّي أَدْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ٣٧ قَالَ  
يَتَأْبَتِ أَفْعَلَ مَا تُؤْمِنُ وَسَتَجْدُنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْصَّابِرِينَ ٣٨  
فَلَمَّا أَسْلَمَهُ إِلَيْهِ الْجَيْنِ ٣٩ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَابَ إِبْرَاهِيمَ ٤٠ قَدْ  
صَدَقَتِ الرُّؤْيَا ٤١ أَنَّا كَذَلِكَ بَخْرِي الْمُسْخَسِينَ ٤٢ إِنَّ هَذَا هُوَ  
الْبَلْوَالِمِينُ ٤٣ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ٤٤ وَرَرَكَنَاعِلَيْهِ فِي

(٣) نافلة : النافلة العطية يتبرع بها معطها من صدقها أو عمل غير .

(٤) إفك : الإفك : الكذب

الآخرين ﴿٢﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ بَعْدِي الْمُحْسِنِينَ  
 ﴿٤﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ وَقَسَرَنَاهُ بِإِسْحَاقَ لَيْتَ أَمَنَ  
 الصَّالِحِينَ ﴿٦﴾ وَبَرَكَنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا  
 مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِيتٌ ﴿٧﴾

ومن سورة البقرة : ( ١٢٥ : ١٢٢ ) ﴿٨﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ  
 وَأَمْنًا وَأَتَيْذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ  
 وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتَهُ لِلطَّاهِيفَيْنِ وَالْعَدَافِينَ وَالرُّشْحَعَ  
 السُّجُودِ ﴿٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيْ أَجْعَلْ هَذَا بَلَدَاءَ أَمْنًا وَأَزْرَقَ  
 أَهْلَهُ وَمِنَ الشَّمَرَاتِ مِنْهُ أَمْنٌ وَنِنْهُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمِنْ كُفَّارِ  
 قَائِمَتِهِ وَقَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيُسَانَ الْمُصَيْرُ ﴿١٠﴾  
 وَإِذْ يُرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدُ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّا الْقَبْلَ  
 مِنْهَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ  
 لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أَمْمَةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنِاسِكَ حَوْثَ عَلَيْنَا  
 إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا  
 مِنْهُمْ يَشْلُوْ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ  
 وَرُئِيْكَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ  
 مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ أَضْطَفَيْتَهُ فِي الدُّنْيَا  
 وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ وَأَسْلِمْ  
 قَالَ أَسْلَمْتُ لَرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ  
 وَيَعْقُوبَ يَبْيَنِي إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِي لِكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُونُنَ إِلَّا  
 وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾

ومن سورة آل عمران : (٩٣ : ٩٧)

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا إِنْ أَسْرَيْتَهُ إِلَّا مَا حَرَمَ إِنْ سَرَأَتْهُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ  
الْتَّورَةُ لَهُ قُلْ فَأَتُوا بِالْتَّورَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
١٢٣ فَمَنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾  
قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّعِنُوا مَلَهُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا  
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٤ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي  
بِسْكَةً مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ١٢٥ فِيهِءَاءِ يَكْتُبُ مَقَامَ  
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَايَةً ۝﴾

ومن سورة البقرة : (٢٥٨)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِيعِ  
أَنَّهَا أَتَهُ اللَّهُ الْمُكَلَّكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُخْيِي  
وَيُمْبَيِّثُ قَالَ أَنَا أُخْيِي وَأَمْبَيِّثُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي  
بِالشَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتَتْهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبَهَتَ الَّذِي  
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهِيدُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾

ومن سورة الأنعام : (٧٤ : ٨٣)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْمَهُءَاءِ زَرَّ أَتَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي  
أَرَنَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١٢٦ وَكَذَلِكَ ثُرَى إِبْرَاهِيمَ  
مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوْقِنِينَ ١٢٧  
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الْأَيَّلُ ١٢٨ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا أَرْتُ فَلَمَّا آفَاهُ

(٥) جن عليه الليل : دخل.

لَا أَحِبُّ الظَّفَرَ **٧٦** فَلَمَّا رَأَهُ الْقَمَرُ بَارِزًا قَالَ هَذَا  
رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَى قَالَ لَيْلَتْنَا لَمْ يَهِدِنِي رَبِّي لَا كُوْنَكَ مِنَ الْقَوْمِ  
الضَّالِّينَ **٧٧** فَلَمَّا رَأَهُ الْشَّمْسَ بَارِزًا غَاهَ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا  
أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَتَ قَالَ يَلْقَوْنِي إِنِّي بَرِّي **٧٨** مَمْلَكَتُكُونَ  
إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
خَنِيفًا وَمَا آتَيْتَ الْمُشْرِكِينَ **٧٩** وَحَاجَةَ قَوْمِهِ قَالَ  
أَتَحْكِمُ بِجُنُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ **٨٠**  
إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسَعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفْلَى  
تَنَزَّلُكُونَ **٨١** وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشَرَّكْتُهُمْ وَلَا  
تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشَرَّكُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ  
سُلْطَانًا فَإِنِّي الْقَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ **٨٢**  
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَكُنُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أَوْ لِهِنَّكَ لَهُمُ الْأَمْنُ  
وَهُمْ مُهْتَدُونَ **٨٣** وَتِلْكَ حُجَّتُنَا إِنَّهُمْ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى  
قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتَنِي مَنْ نَشَاءُ إِنْ رَبِّكَ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ **٨٤**

وَمِنْ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ : (٤١ : ٢٥)

﴿ وَإِذْ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَءَ اِمْنَا وَأَجْنِبَنِي وَبَعْنَى  
أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ **٤١** رَبِّي إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ  
فَمَنْ تَعْنِي فِي إِلَهِهِ مِنِّي وَمَنْ عَصَمَنِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ **٤٢**  
رَبِّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ  
الْمُهَرَّمِ رَبِّنَا يُقْيِمُوا الْأَصْلَوَةَ فَأَجْعَلْ أَفْعِدَةَ مِنْ النَّاسِ

تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقُهُم مِّنَ الشَّمَاءِ لَعَلَّهُمْ شَكُورُونَ ﴿٢٧﴾  
 رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا يَخْفِي وَمَا يَعْلَمُ وَمَا يَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ  
 فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي  
 عَلَى الْكِبِيرِ أَسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾  
 رَبِّي أَجْعَلْتَنِي مُقِيمًا الْصَّلَاةَ وَمِنْ دُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلَ  
 دُعَائِي ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا أَغْفِرْلِي وَلَوْلَدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ  
 الْحِسَابُ ﴿٣١﴾

وَمِنْ سُورَةِ الْحُجَّةِ : (٢٦ : ٢٧)

﴿ وَإِذْ بَوَأْنَا إِلَيْهِمْ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا شِرِيفٌ فِي  
 شَيْئًا وَطَهِيرٌ يَتَّبِعُ الظَّاهِرَيْنَ وَالْقَاهِيْمَيْنَ وَالرَّكَعَيْ  
 الشَّجُودُ ﴿٣٢﴾ وَأَذْنَنَ فِي النَّاسِ يَأْتِيْكَ رِحْمًا وَعَلَى  
 كُلِّ ضَارِرٍ يَأْتِيْنَكَ مِنْ كُلِّ فَجَعَ عَمِيقٍ ﴿٣٣﴾

وَمِنْ سُورَةِ الْبَقْرَةِ : (٢٦٠)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَرِنِي كَيْفَ تُحِيِّ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْلَمْ  
 تُؤْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمِئِنَ قَلْبِيٰ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةَ مِنْ  
 الظَّيْرَنَ فَصُرِّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا  
 ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيْنَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٤﴾

(٦) بُوأنا : بُوأ له منزلة هامة ويمكن له فيه .

(٧) رجالاً : جمع راجل وهو خلاف الفارس .

(٨) ضامر : القليل اللحم من الخيل .

ومن سورة النازيات : (٢٤ : ٣٤)

﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ ضَيْفٌ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ ﴾  
 إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١﴾ فَرَأَى إِلَهٌ  
 أَهْلَهُوهُ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢﴾ فَقَرِبَ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ  
 فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَمٍ عَلَيْهِ  
 فَأَبْكَتْ أُمُّهُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَبَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقْمٌ  
 قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾  
 قَالَ فَأَخْطَبُوكُمْ أَيْمَانَ الْمَرْسَلِينَ ﴿٦﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ  
 يُجْرِمُونَ ﴿٧﴾ الرَّسُولُ عَلَيْهِ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٨﴾ مُسَوَّمَةً عَنْ دَرِّكِ  
 لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

ومن سورة هود : (٦٩ : ٧٦)

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالشَّرِّىٍّ قَالُوا  
 سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لِي أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿١﴾ فَلَمَّا  
 رَأَى أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُّ إِلَيْهِ نَسْكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً  
 قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٢﴾ وَأَمْرَ اللَّهِ قَائِمَةٌ  
 فَضَحَّكَتْ فَيَسِّرْتَهَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٣﴾  
 قَالَتْ يَوْمَئِنَى إِلَّا دُوَّلَ وَإِنَّا عَجَزُورٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ إِنَّ هَذَا  
 لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٤﴾ قَالُوا أَتَعْجَبُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَنُ اللَّهُ  
 وَرَكِنُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَحِيدٌ ﴿٥﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ  
 عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرُّوْعُ وَجَاءَ تَهْبَشَرَى يُجَنِّدُ لِنَافِقَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٦﴾  
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّلَهُ مُنْبِتٌ ﴿٧﴾ يَتَابُ إِبْرَاهِيمُ مُأْتَرٍ عَرِضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ  
 قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ إِنَّهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُوفٍ ﴿٨﴾

ومن سورة النحل عن دين إبراهيم : (١٢٠)

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً فَانِسَتِ اللَّهُ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾  
 ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْبَتْهُ اللَّهُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ١٦٠

ومن سورة الأنعام عن دين إبراهيم والإسلام : (١٦١)

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

ومن سورة آل عمران عن دين إبراهيم والإسلام وسائر الأديان : (٦٨ : ٦٥)

﴿ يَأَهِلُ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجِجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلَتِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ٦٥ هَذَا نَمْطَرُوكَهُولَهُ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجِجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنَّمَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا كَانَ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦٧ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِيَوْمِهِمْ لِلَّذِينَ أَتَبْعَثُهُ وَهَذَا النَّحْيُ وَالَّذِينَ مَأْمُونُوا وَاللَّهُ وَلِيَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذه جملة الآيات التي جاء بها القرآن الكريم مطولة في سيرة إبراهيم ، أو مشيرة إلى دعوته وما فيها من سابقة للدعوة الإسلامية ، ولا حاجة من يكتب عن الدعوة الإسلامية إلى إبراز جانب منها لإثبات الانتقال من العقيدة المخصوصة في عصبية خاصة إلى العقيدة التي تعم كل أمة وتحاطب كل ملة ، فهذه المساواة بين الأمم هي صبغة الإسلام في كل جانب من جوانب دعوته من مبدئها إلى خاتمتها .

أما أخبار إبراهيم في القرآن فمثناها ما تقدم في التوراة والمشناه ، ومنها ما انفرد به القرآن . ومداره على أمرين :

أحدها : خاص بالواقع ، وهو قيام إبراهيم وإسماعيل إلى جوار البيت الحرام ..  
والآخر : خاص بالنظرة الدينية وهو على جانب عظيم من الدلالة في هذا المقصد ،  
لأنه يبين الفارق بين التجسيم والتزريه في العبادة على مدى الزمن الذي انقضى بين كتابة  
أسفار العهد القديم وقيام الدعوة الحمدية .

فالضيوف الثلاثة الذين ورد ذكرهم في سفر التكوين كانوا يأكلون ويشبعون من  
الطعام ، وكان مفهوماً من أسلوب بعض النسخ القدمة أن واحداً منهم هو الإله ، ثم  
صبح مفهوماً أنه ملك يتكلم باسم الإله ومعه صاحباه من السماء .

إلا أن القرآن الكريم يروي قصة هؤلاء الضيوف ولا يرى أنهم أكلوا وشبعوا ،  
بل جلسوا إلى الطعام ولم تصل أيديهم إليه ، وسألهم إبراهيم أن يأكلوا فلم يفعلوا ،  
فأوجس منهم خيفة وعلم من ثم أنهم من غير البشر وأن لهم شأنًا غير شأن ضيوف  
الزاد والمقام .

إن هذه النقلة ليست بالأمر الهين في تاريخ بني الإنسان . فإن النوع الإنساني قد  
انتقل من استخدام مادة الحجر إلى استخدام مادة الحديد في عشرات الألوف من  
الستين ، فهذا الانتقال بين العقل الذي يقصر عن إدراك مختلف مخلوق سماوي يخالف الأجساد  
الحية في مطالبيها المادية ، وبين العقل الذي تهياً للتعمير بين الحياة الروحية والحياة المادية ،  
هو الانتقال الذي يورخ به عصران في حياة بني الإنسان ، بينما من الفارق أبعد جداً  
ما بين عصر الحجر وعصر النحاس وعصر الحديد .

\* \* \*

وأهم المصادر الإسلامية بعد القرآن الكريم أحاديث النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ومنها طائفة عن  
الخليل تصفه وتصرف أعماله وتلم بسرته ، وللفقهاء فيها خلاف . إذ كان بعضها ينسب  
أموراً إلى الخليل لم يعهد في الأحاديث النبوية أن تنسبه إلى الأنبياء .

والحكم في هذا الخلاف أن الأحاديث التي يرويها الآحاد لا يجوز أن تخالف أصول  
الاعتقاد لأن الآحاد يجوز عليهم الخطأ والكذب ، ومثل ذلك لا يجوز في العقيدة ،  
ولاسيما العقيدة التي يقررها الكتاب .

وقد أخذ الإمام الفخر الرازى بهذا الحكم في تفسيره ، ودارت حوله مساجلة بين الشيخ عبد الوهاب التجار ولجنة العلماء التي راجعت كتابه عن قصص الأنبياء ، فقال رحمة الله :

«نص العلماء على أن الحديث إذا كانت روايته آحادا وفيه نسبة المعاصي أو الكذب إلى الأنبياء يرد» .

ففي شرح العصام على العقائد النفسية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه : إذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمتصروف عن ظاهره إن أمكن ، أو محمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة ..

وجاء في الحاشية عليه قوله : فما كان منقولاً بطريق الآحاد سواء بلغ بحد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء ..

ونحن ننهد بهذه الملاحظة للأحاديث التي نقلها ، ونختار من الأحاديث ما له علاقة بصحيح السيرة وندع للقارئ أن ينظر فيها وبين يديه ما تقدم من أقوال الفقهاء ..

ففي بعض الأحاديث أن إبراهيم كان أشبه الناس بالنبي عليهما السلام ..

وعن أبي هريرة قال :

«قال النبي عليهما السلام ليلة أسرى به : لقيت موسى ، قال : ففتحه . فإذا رجل حسبته - مضطرب - رجل <sup>(١)</sup> الرأس ، كأنه من رجال شنوة <sup>(٢)</sup> قال : ولقيت عيسى . ففتحه النبي عليهما السلام ، فقال ربعة أحمر كأنما خرج من دياره - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبهه ولده به» .

وعن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما ، فذكرروا الدجال فقال : إنه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ، ولكنه قال : «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم <sup>(٣)</sup> جعل على جمل أحمر غطروم بخلبة <sup>(٤)</sup> ، كأن أنظر إليه إذا انحدر في الوادي يلقيه» .

وعن جابر عن رسول الله عليهما السلام أنه قال :

(١) الشعر الرجل : يسكن الجيم ما كان بين الجمد والمرسل . (٢) أزد شنوة : وشنوة قبيلة عربية مشهورة .

(٣) آدم : أحمر . (٤) خلبة : حبل من ليف .

«عرض على الأنبياء ، فإذا موسى عليه السلام رجل ضرب<sup>(٥)</sup> من الرجال ، كأنه من رجال شنوة ، فرأيت عيسى بن مررم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهها عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهها صاحبكم» .

وعن ابن عباس :

«دخل النبي ﷺ البيت فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم ، فقال : أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ، هذا إبراهيم مصور فماله يستقسم؟» .

وعن ابن عباس أنه عليه السلام لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحى ، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام<sup>(٦)</sup> فقال : قاتلهم الله ! والله إن استقسا بالآزلام فقط .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم

وقال ابن عباس في قصة هاجر : «ثم جاء بها إبراهيم وبابتها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زرم ، في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جرابا فيه تم وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم .. أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه آenis ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها فقالت : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الشتبة حيث لا يرونها استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء المدعوات ورفع يديه فقال : ربنا إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك الحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أقدمة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرنـ . وجعلت أم إسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى .. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض إليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا؟ فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت

(٥) ضرب : رجل ضرب : شديد فوى العضلات .

(٦) الأزلام : الشهان التي يستقسم بها .

طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي . ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ... قال ابن عباس : قال النبي ﷺ فلذلك سعي الناس بينهما .. فلما أشرف على المروة سمعت صوتها ، فقالت : صه ! تزيد نفسها ، ثم تسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواص ، فإذا هي بالملك عند موضع زرم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول يدها هكذا ، وجعلت تعرف من الماء في سقائها وهو يغور بعد ما تعرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زرم ا وقال : لو لم تعرف من الماء لكان زرم عيناً <sup>(٧)</sup> . قال : فشربت وأرضعت ولدتها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيضة ، فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبواه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية تأتيه السیول فتأخذ عن يمينه وشماله .

«فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَتْ بِهِمْ رُفْقَةً مِنْ جَرَهُمْ ، أَوْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جَرَهُمْ مُقْبِلِينَ عَلَى طَرِيقٍ <sup>(٨)</sup> كَدَاءَ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ ، فَرَأَوَا طَائِرًا <sup>(٩)</sup> عَافِلًا ، قَالُوا : إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لِيَدُورَ عَلَى مَاءٍ ، لِعَهْدِنَا بِهَذَا الْوَادِيِّ وَمَا فِيهِ مَاءٌ ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِينَ ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ ، قَالُوا : أَتَأْذِنُنَا لَنَا أَنْ نَنْزَلَ عَنْكَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، وَلَكُمْ لَا حَقْ لَكُمْ فِي الْمَاءِ قَالُوا : نَعَمْ .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حتى شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت سترجع لنا رزقا ، ثم سألها عن عيشهم وهبتهم فقالت : نحن بشر . «نحن في ضيق وشدة ، وشكنت إليه . قال : فإذا جاء زوجك أقرني عليه السلام ، وقلولي

(٧) معيناً : الماء المعين : الماء الظاهر الحارى على وجه الأرض .

(٨) طريق كداء : طريق غليظة تصب الماشي فيها .

(٩) طائراً عافلاً : عاف الطائر استدار على الشيء وحام برأس الوقوع .

له يغْرِي عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم أحد ؟ قالت نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألني : كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . وهو يقرأ عليك السلام ويقول : غَيْرُ عَتْبَةِ بَابِكَ . قال إسماعيل : ذاك ألى وقد أمرني أن أفارقك فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم فلم يجد إسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا الرزق ، قال : كيف أنت ، وسألها عن عيشهم وهبتهم ، قالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئ عليه السلام ومرره يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل ، قال : هل أتاك من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قائل : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، وهو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك ألى ، وأنت العتبة . أمرني أن أمسكك . ثم ليث عنهم ما شاء ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زرم ، فلما رأه قام إليه فصفعا كا يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل ! إن الله أمرني بأمر . قال فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيني ؟ قال : أعينك ! قال : فإن الله أمرني أن أبني هنا بيتي ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يتناوله الحجارة ، وهو يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» .

هذه القصة التي رواها ابن عباس وتخللها بكلمات للنبي عليه السلام وهي أطول خبر عن إبراهيم نقله رواة الحديث .

أما الأحاديث التي أشرنا إلى الخلاف عليها بين الفقهاء ، وعلماء الأصول فمنها الحديث التالي وفيه غنية :

حدث أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

ولم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا نثلاث كذبات : اثنين في ذات الله قوله : إن سقيه وقوله : بل فعله كثيرون هذا ، واحدة في شأن سارة ، فإذا قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك أمرتني بغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أخْتَيَ ، فإِنَّكَ أخْتَيَ فِي إِسْلَامٍ ، فإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِكَ وَغَرْبِكَ ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَأَاهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَارِ فَاتَّهَ فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ قَدَمْتَ أَرْضَكَ امْرَأً لَا يَدْعُنِي هُوَ لَا أَنْتَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأَقَى بِهَا ، فَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَالِكَ أَنْ بَسْطَ يَدَهُ إِلَيْهَا فَقَبَضَتْ يَدَهُ شَدِيدَةٌ ، فَقَالَ لَهَا : ادْعِ اللَّهَ أَنْ يَطْلُقْ يَدِي وَلَا أَضْرِبَكَ ، فَفَعَلَتْ فَعَادَ فَقَبَضَتْ أَشَدَّ مِنَ القَبْضَتِيَنِ الْأَوَّلَيْنِ ، فَقَالَ : ادْعِ اللَّهَ أَنْ يَطْلُقْ يَدِي فَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُكَ . فَفَعَلَتْ وَأَطْلَقَتْ يَدَهُ ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ : إِنِّي بَدِئْتُ أَنْتَيِ بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِ بِإِنْسَانٍ . فَأَخْرَجَهَا مِنْ أَرْضِي وَاعْطَاهَا هَاجِرًا .. قَالَ : فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي ، فَلَمَّا رَأَاهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا : مَهِيمٌ<sup>(١٠)</sup> . قَالَتْ : حَسْرَا . كَفَ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ وَأَخْدُمْ خَادِمًا .

قال أبو هريرة : فذلك أحكم يابني ماء السماء !

وليس بعد القرآن والأحاديث النبوية من مصدر يصح أن يسمى إسلاميا غير آقوال المفسرين ..

ولأنما تسمى آقوال المفسرين مصدرا إسلاميا حين تكون مقصورة على تفسير معانى القرآن وألفاظه أو الاستشهاد بالأحاديث النبوية . فاما ما عدا ذلك فلا يناسب إلى الإسلام . وإنما المرجع فيه إلى الأخبار المروية عن النساين وأصحاب الأخبار عامة ، ومنهم اليهود الذين أسلموا والنسابون الذين توارثوا توارثاً أسلافهم بالسماع .

فمن اليهود الذين أسلموا كعب بن ماتع الحميري الذي اشتهر باسم كعب الأحبار ، كان من علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر ، وعاش في المدينة زمناً ثم خرج إلى الشام بعد مقتل عمر فأقام بحمص ومات فيها . ومنهم وهب بن منبه وهو من يهود اليمن أيضاً وكان من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن ثم أسلم وتوفي في عهد الدولة الأموية ، وكلامها كثير الرواية والنقل عن الكتب الإسرائيلية ، ويظن بهما أنهما وضعوا كثيراً مما روياه .

والعلوم أن المسلمين في صدر الإسلام لم يتحرجو من النقل عن أهل الكتاب إلا فيما ينافي القرآن الكريم . لأن المسلم يؤمن بالكتب التي تنزلت قبل القرآن ويؤمن

(١٠) مهيم بسكون الماء وفتح الياء اسم فعل يعني ما عيرك . وهي منحوة من «ماهَا يوم» العبرية ما يوم أي ما عيرك .

بأن العقائد التي تختلف عقيدته منها تحريف من الكهان والأحبار وأنهم يجهلون بعض ما عندهم من الآيات ويختفون بعضها أو يتمحلون<sup>(١)</sup> له التأويل .

فإذا دخل عالم من علماء اليهود في الإسلام ونفى من روایات دينه ما يخالف القرآن ثم يخرج المسلم أن يستمع إليه فيما ينقله عن كتبه ، وأمن له واعتبره من العلم الذي سبقه إليه أهل الكتاب ، وكذلك فعل كثير من المفسرين ، وبالغوا في الطمأنينة إلى أولئك الرواية وفاثتهم أنهم إن سلما من سوء النية لم يسلموا من الجهل وضعف السندي وقلة الشبه والتمحيص ..

وكان الفاروق عمر والإمام علي رضي الله عنهم ينهيان كعب الأحبار عن الإفاضة في روایاته وأساطيره ، وسخر الفاروق منه حين زعم له أن مقتله مكتوب في التوراة ، ولم يثبت أحد من جلة الصحابة شيئاً من تلك الأساطير ، ولكن كعب الأحبار وأمثاله قد طاب لهم أن يتحدثوا بذلك الأساطير التي ينفردون بدعواها فأفرطوا فيها وجعلوا يطربون السامعين بمجدهم كلما نفذ قديمهم المعروض وآنسوا من السامعين إقبالاً على هذه البضاعة التي لا يرحمهم فيها أحد من المسلمين .

إلا أن المصادر الإسرائيلية لا تستوعب كل ما وعاه العرب قبل الإسلام من تاريخ عقائدهم ولا سيما العقائد التي تلتصق بالکعبة ونشأتها وإقامة الشعائر فيها وأسباب تلك الشعائر منذ أقدم عصورها ، ومن الخطأ أن يقال أن الروایات عن بناء الكعبة تلفيق من اليهود لارضاء العرب والتقرب إليهم بتوحيد النسب بينهم والارتفاع بنسفهم جمیعاً إلى جدهم إبراهيم . فإن نسبة العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم مكتوبة في سفر التكوين ، ومن العرب الذين كانوا يجهلون التوراة من كانوا ينسبون أنفسهم إلى (نبات) بن إسماعيل كما جاء في تاريخ ديودورس الصقلي المتوفى بعد متصف القرن الأول للميلاد ، وقد كانت الروایات ترتفع بيناء الكعبة إلى آدم وإلى الملائكة ولاتفق بها عند إبراهيم وجاء فيما رواه التقى الفاسي صاحب كتاب شفاء الغرام أن الكعبة بنيت عشر مرات : بناء الملائكة ، وبناء آدم ، وبناء أولاده ، وبناء إبراهيم ، وبناء العمالة ، وبناء جرهم ، وبناء قصي بن كلاب ، وبناء قريش ، وبناء عبد الله بن الزبير ، وبناء الحجاج ، ثم قال :

(١) يتمحلون : تمحل الشيء : طلبه بمحنة وتكلف .

إن بناءها قبل إبراهيم لم يأت به خبر ثابت ، وقال المسعودي : إن بناء الملائكة وأدم وشيث لم يصح ، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصى فهو ترميم ، وتوسيع الأزرق صاحب كتاب أخبار مكة غاية التوسيع في هذه الروايات التي لم تستوعبها الإسرائييليات ولا يمكن أن تستوعبها ، لأن تبجيل العرب للكعبة أقدم من هذه الإسرائييليات ، وقد جاوز حدود حزيرة العرب إلى الهند ومصر كما ذكر برتون في رحلته إلى المجاز ، ولا يزال الصابعة اليوم كما كانوا قبل الإسلام يحسّبونها من البيوت السبعة التي تناظر الكواكب السبعة ويقولون إنها بيت أشرفها دارا وهو زحل ، وستبقى في الأرض ما يقى زحل في السماء .

وسيأتي الكلام بشيء من التفصيل عن سلالة إبراهيم في البلاد العربية ، ولا محل هنا لنقل الروايات المختلفة التي اقتبسها المفسرون أو المؤرخون التفسيريون ، سواء منها ما أخذوه من الإسرائييليات وما أخذوه من حفظة الأنساب وبناء الأسلاف ، فإنها جميعا على نحو ما تقدم . ولتكن نقل هنا ما فيه اجتهد للمفسرين أو ما فيه خبر يضاف إلى أخبار السيرة ويعولون على روايته .

فالمفسرون الأوائل يقولون : إن النار لم تحرق إبراهيم لأن الله سلبها خاصة الاحتراق ، والألوسى صاحب روح المعانى من المفسرين المتأخرین يقول : «أیا ما كان فهو آية عظيمة ، وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة الحمدية كرامة لهم لتابعتهم النبي الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المتشددين إلى حضرة الولي الكامل الشيخ أحمد الرفاعى قدس سره من الفسقة الذين كادوا يكونون لكتلة فسقهم كفارا فقيل إنه باب من السحر المختلف في كفر فاعله وقتلها ، فإن لهم أسماء مجهرة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ، ولا يبعد أن تكون كفرا وإن كان معها ما لا كفر فيه .. ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعى قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعا للسنة وأشدّهم تجنبًا عن مطان البدعة ، وكان أصحابه سالكين مسلكه متشددين يذيل أتباعه قدس سره ، ثم طرأ على بعض المتشددين إليه ما طرأ .. قال في العبر : قد كفر الزغل في أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت النار العراق - من دخول التيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعود بالله تعالى من الشيطان الرجيم .. والحق

أن قراءة شيء ما عندهم ليست شرطاً لعدم التأثير بالدخول في النار ونحوه ، فكثير منهم من ينادي إذا أوقدت له النار وضررت الدفوف : ياشيخ أحمد يا رفاعي أو ياشيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر منها دون تلاوة شيء أصلاً ، والأكثر منهم إذا قرأ الأسماء على النار ولم تضره الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمرة ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضره الدفوف وينادي من ينادي من المشايخ فيدخل ويتأثر والحاصل أنّا لم نر لهم قاعدة مضبوطة . بيد أن الأغلب أنهما إذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زق الخمر ويستغيث بهن يستغيث ويدخل تنوراً كبراً ويضطرم فيه النار فيقعد في النار ويشرب الخمر ويقي حتى تحمد النار فيخرج ولم يحرق من ثيابه أو جسده شيء . وأقرب ما يقال في مثل ذلك أنه استدراج وابتلاء . وإنما أن يقال إن الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره بعدم تأثير المتنسبين إليه كيما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره إذا هتفوا باسمه أو اسم متنسب إليه في بعض الأحوال ، فبعيد بل كأنك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين في بعض الأحوال إعانة له ، وقد يأخذ بعض الناس بيده ولا يتأثر لأجزاء يطلي بها يده من خاصيتها عدم إضرار النار للجسد إذا طلى بها ، فيوهم فاعل ذلك أنه كرمامة .

والشيخ محى الدين بن العربي يفسر الآية على أسلوب المتصوفة الذين يرمزنون بالكلمات إلى الأسرار فيقول : حرقوه أى اترکوه يحرق بنار العشق التي أنتم أوقدموها أولاً بإلقاء الحقائق والمعارف إليه التي هي خطب تلك النار عند روبيته ملکوت السموات والأرض والأرض بإراده الله إيه كذا قال : وكذلك نرى إبراهيم ملکوت السموات والأرض .. وإشراق الأنوار الصفانية والأسمائية عند تحليات الجمال والجلال عليه من وراء أستار أعيانكم التي هي منشأ إبقاء النار ، وانصرعوا آهتكم أى معشوقاتكم ومعيوداتكم في الإمداد بتلك الأنوار وإيقاد تلك النار . إن كتم فاعلين .  
بأمر الحق «ياتار كونى بردا وسلاماً بالوصول حال الفناء . فإن لذة الوصول تفید الروح الكامل والسلامة عن نقص الحدثان وآفة التقصان والإمكان . - وأرادوا به كيدا - بإنفائه وإحرقه .. .

ومن المفسرين الحدثين محمد على الهندي الذى ترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية واجتهد في تفسير آياته ، فقال : إن الحادث - حادث الأصنام المحطمة - قد هاج ثائرة القوم وأُودِقَ نيران ضغفهم ، وإن الآية التالية تدل على أن النار نار كيد - وأرادوا به كيدها فجعلناهم الأخرين ..

ولعلهم أرادوا إحراقه فنجاه الله من تدبيرهم ، ثم فسر الآية في سورة العنكبوت : فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو احرقوه فأنجاه الله من النار .. فقال في تفسيرها : إن أعداءه عجزوا عن إحراقه وكانتوا يدبرون له القتل والإحرق فلم يستطعوا .

والإمام البيضاوى يفسر : فنظر نظرة في النجوم فقال : إن سقىم .. فيفهم من الآية أنه ربما رأى موقع النجوم واتصالاتها أو نظر في علمها أو في كتابها ثم يقول : ولا منع منه مع أن قصده إيهامهم ، وقد سأله أن يخرج معهم إلى عيدهم الذى يعيدونه لأربابهم ، فأر لهم أنه استدل بالنجوم - لأنهم كانوا منجمين - على أنه مشارف للسقىم ، وكان أغلب أقسامهم الطاعون ، ويختلفون عدواه .. قال : وربما أراد أنه سقىم القلب لكتفهم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال ..

ومن الجديد في المصادر الإسلامية أن إبراهيم ولد على مقربة من دمشق وأن آزر عم إبراهيم ولم يكن أبوه . قال صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور : «روى وهب ابن منبه أن إبراهيم الخليل عليه السلام بن ناريج بن ناخور . وقال الحافظ السهيلى أنه كان مولوداً ببلاد حوران ، وقيل بقرية تسمى بربة من قرى دمشق في مغارة هناك معروفة ، وفيها الدعاء مستجاب .. قال الرواة : إن ساما وحاماما وبانشا أولاد نوح عليه السلام كانوا ثلاثة أقسام فكانت النبوة في أولاد ساما ومساكنهم الحجاز وما يليها ، والقوة في أولاد حام ومساكنهم المغرب ، والتجير في أولاد يافث ومساكنهم المشرق ..» .

ومن المختلف عليه بين المفسرين والمؤرخين التفسيرين قرابة سارة وإبراهيم .. فالحافظ ابن كثير يروى أن المشهور أنها ابنة عم لإبراهيم يسمى هاران ، ويقول ابن إسحاق التعلىى صاحب قصص الأنبياء نقلًا عن أهل العلم بسير الماضين إنها ابنة عمه ولا يذكر اسمه ..

ويختلفون كذلك في ولد إبراهيم الذي أمر بذبحه ، ف منهم من يرى أنه إسحاق و منهم من يرى أنه إسماعيل ، وجاء في قصص الأنبياء : أن محمد بن إسحاق روى عن محمد ابن كعب القرظى أنه كان يقول : إن الذى أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من أبنته إسماعيل .. ولم يكن يأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله تعالى من الوعود ما وعده ، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل . قال محمد بن كعب القرظى : فذكرت ذلك لعمر ابن عبد العزيز وهو خليفة ، إذ كنت معه بالشام . فقال لي عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإن لأرأه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده من الشام وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علماء يهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أى ابنتي إبراهيم الذى كان أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يخدعونكم عشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصيره على ما أمر به ، فهم يزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم» .

وسرى فيما يلى أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق في أهميته جانب البحث التاريخي الذي يراد به مجرد العلم باسم الذبح من ابنتي إبراهيم ، فإنه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود ويتعلق به الحذف والإثبات في سيرة إبراهيم ليتصل بذرية إسحاق وينقطع عن ذرية إسماعيل أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل وينقطع منها كل ما يتعلق بالعرب ، وإن هذا النزاع قد بدأ قديما قبل تدوين نسخ التوراة التي كتبت في بابل ، أى قبل الميلاد بعدهة قرون ..

و واضح أن النزاع في أوله لم يكن نزاعا على العقيدة ، فإن العهد القديم يروى عن إبراهيم أنه قدم العشر للملك صادق كاهن الله «العلى» أو عليون الذى كان معبودا لسكان فلسطين وما جاورها إلى الجنوب ، وقد زار هيرودوت بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر وروى عنهم أنهم كانوا يعبدون الله تعالى Arotal واللات أو أيليلات Alilat منذ قرون سابقة للقرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذى عاش فيه هيرودوت . فلم يكن النزاع على العقيدة في نشأته إلا فرعا من فروع النزاع على الميراث ، ولم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة إلا أنها تعزز دعواها في ذلك النزاع ، وتتفى عنه من ينزعها عليه .

و هذه المشكلة التي عرضت محمد بن إسحاق القرطبي قد صادفت فقهاء المسيحية من قبل كما صادفت فقهاء الإسلام إذ كيف يؤمن إبراهيم بذبح إسحاق وهو ابنه الموعود الذي يخرج منه شعب الله الختار؟ إن كاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول في الإصلاح الحادى عشر حلاً لهذه المشكلة «إن إبراهيم بالإيمان قدم إسحاق .. وحيده .. الذي قيل له أنه بإسحاق يدعى لك نسل إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات».

و حل المشكلة على هذا الوجه جديد في المسيحية لم ينظر إليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسلیم إبراهيم بموت إسحاق ، وأنه أطاع الله ولم يطبع قلبه ولم يحفل بمحنته على ابنه الموعود ، ويبقى من المشكلة جانب آخر وهو وصف الآبن بالوحيد ، فلم يكن إسحاق وحيداً مع وجود إسماعيل أما إسماعيل فكان وحيداً قبل مولد إسحاق .

إن فهم السيرة كما جاءت في الكتب الدينية أو في كتب الشروح والتعليقات لا يتهم للباحث ما لم يضع أمامه سر الاختلاف على إسحاق وإسماعيل ، وما نقلناه هنا من المصادر الإسلامية يوضح هذا السر بعض الإيضاح ، وربما تم إيضاحه بما يلى من مصادر التاريخ .

## مراجع الصابئة

تدين بعقائد الصابئة ملة يبلغ عدد أبنائها ستة آلاف بين رجل وامرأة و طفل ، ولا يجاوز بها المبالغ في عددها عشرة آلاف .

وهي على قلة عددها تستقل بلغة « مقدسة » خاصة ، ولها كتابة أبجدية خاصة ، وأحكام دينية في معيشتها لا تشبه في جملتها دينا واحدا ولكنها تشبه في بعض أجزائها كل دين .

ومن ثم كان لها شأنها في الدراسات الدينية .

ففيها ولاشك عقائد سابقة لجميع الأديان الكتابية ، وعقائد سابقة لدين الخليل ..  
بل فيها ، على رأى بعض الباحثين ، بقية من الديانتين المختلفتين في عصر الخليل ، لأن الصابئة يدينون بمذاهب مختلفة يرد بعضها على بعض ، ولا سيما مذاهب الكواكب والأصنام ، مما تواترت الأخبار بالاختلاف عليه بين قوم إبراهيم ومن حاربوهم واضطروهم إلى الهجرة من بلادهم ..

ويقول رايت Wright صاحب المطالعة العربية : إن حروفهم الأبجدية تشبه الحروف النبطية ، وإن لغتهم تشبه لغة التلمود الذي كتب في بابل ، ويقولون هم : إن لغتهم الأولى سريانية وإنهم كانوا يصر على عهد الفراعنة الأول وتلقوا ديانتهم الأولى عن أحجارها ثم هجرواها حين تحول أهلها عن الدين القويم .

والمحقق من أمرهم أنهم يرجعون إلى أصل قديم ، لأن استقلالهم باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، ولم ينشأ في عصر حديث وهذا يفهم الدارسون للأديان أن تحقيق لغتهم وكتابتهم يؤدي إلى جلاء الغواصع عن كثير من تاريخ الكلدان في الزمن الذي قام فيه الخليل بدعوته ، ويوّكّد هذا الفهم أن هؤلاء الصابئة يقيمون في الأقاليم الجنوبيّة من العراق حيث أقام الخليل في رواية العهد القديم ، ومنهم ذمة تحج إلى حaran التي هاجر إليها ، وينسب إليها الصابئة المحرانيون ..

ومع استقلال الصابحة باللغة الدينية والكتابة الأنجذبية ، يشتريون مع أصحاب الأديان في شعائر كثيرة ، ولا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابحة من مشابهة له في إحدى الشعائر .. فهم يشبهون البراهمة والمجوس والأورفيين أصحاب العمل السرية كما يشبهون اليهود والتصارى والمسلمين ، أو كما يشبهون الفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية في تفسير الوجود وال موجودات .

وهم كما يشبهون الجميع بمخالفون الجميع .

وتعليق هذه الخالفة أنهم تشبيهوا بأصل قديم لا يفارقونه ، أما تعليق المشابهة فليس بالعسير ، فإن مقام الصابحة عند خليج فارس يجعلهم في طريق كل ملة يتردد أبناؤها على ذلك الأقليم أو يقيمون فيه ، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطوريانيون وعرب وسريان وفيزيقيون ، واتصل به أبناء البحار كما اتصل به أبناء الصحراء ، فليس بالعجب أن تعلق بعقيدة الصابحة الأقدمين مسحة من كل ملة على طول الزمن وتتابع العهود ..

فمن مشابهتهم للبراهمة أنهم يتحرجون من ملامسة غيرهم ويتطهرون إذا لمسوا غريبا في حالة من حالات العبادة .

ومن مشابهتهم لأصحاب العقائد الأورفية - أو السرية - أنهم يكتسبون كثيرون أشد الكثبان ، ولا يشارون شعائرهم مع الغرباء ، ويتقاسمون الخير المقدس علامة على الأخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وأنخلق خلقان . فالكون الظاهر غير الكون الباطن ، ولكل مخلوق في العلانية صورة محجوبة في عالم الغيب .. حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن لا يراهم من يعيشون في العلانية .

ومن مشابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون إلى قطب الشمال وإلى الكواكب عامة ولكنهم لا يعودونها ، بل يمحسونها من مظاهر الروحانيات التي لا تبرز للعيان ..

ومن مشابهتهم للمسيحيين أنهم يدينون بالعماد ويجلون يوحنا المعمدان أو يحيى المقتول . ولكن التعميد أعم عندهم من التعميد في المسيحية ، ويندر منهم من يسكن بعيداً من الأنهر حاجتهم كل يوم إلى العماد ، وإلى التطهير بالماء ..

ومن مشايخهم لل المسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات في اليوم ، ويقولون أنها فرضت عليهم سبعا ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها في بعض واكتفى منها بثلاث ، ولكنهم لا يسجدون في صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع ، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغسلون من الجنابة ويعرفون نوافض الوضوء ولكنهم يغالون فيها ..

وعند هم ذبائح اليهود ويوم في ختام السنة كيوم اليهود . ولكنهم يحرمون الحنان ولا يبنون لهم هيكلات قائم ، بل يبنون الهيكل من القصب كما تبني الخيام ، موقوتا عند الحاجة إليه في الأعياد . فكأنها بقية أو أصل لعيد الظلال وللهيكل المنقول .

ومنهم من ينتهي إلى كاظم بن تارح ، وقد ذكرهم المقرizi بين الفرق المختلفة ، وكأنهم يقابلون دين إبراهيم بدین آخر له ينتهي إلى تارح ، إلى إبراهيم في رواية العهد القديم .

وهم ينكرون الأنبياء ويقولون أن الله لا يخاطب أحدا من البشر وإنما خلق الله الروحانيات ، أو الملائكة ، ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العياد حين يشاعون ، صنعوا لها صورا من الأواني ، وجعلوا اتجاههم إلى نجم القطب لأنه ثابت في مكانه ، لا يختلف له ذلك باختلاف الأزمان .

ولهم أقوال في تنزيه العقل الإلهي تشبه أقوال الفلسفه ، ومنهم من يحرم الطعام الذي حرمه أتباع فيشاغورس كالبصل ويضيفون إليه أنواعا من الخضر كالكرنب ولحوم الحيوان ذي الذنب ، لأنهم يستوحون الغيب في الرؤيا ، وهذه الأطعمة تمنع الرؤيا الصادقة .

والغالب أنهم عرفوا شيئا من أقوال حكماء اليونان من طريق القساوسة النسطوريين الذين هاجروا إلى جنوب العراق في صدر المسيحية هربا من الاضطهاد ، وكان أكثرهم يعرفون اليونانية ويقرأون الفلسفه ولا سيما الرواقية والفيشاغورية ، ولكن اتصال اليونان ببلاد الكلدان أقدم من المسيحية ومن اليهودية ، ومن الكلدانين أحد اليونانيون شخصيات الكواكب المعرودة وحرمات المعابد التي تقام لها ، وشعائر الطواف بها وحماية الضحايا التي ترسل في حرم المعبد وما إلى ذلك من العادات والعبادات التي اندثرت بين الصابحة

المحدثين ضرورة لا حيلة لهم فيها ، لأن إقامة الحرم في مكان مطروق إنما يقوم بقوة الحاكم ، وبناء المعابد إنما يقوم بوفرة المال وكثرة العدد ، وهم قلائل متفرقون لا يملكون الثروة ولا السلطان .

\* \* \*

والمشهور عن الصادقة أنهم يوقرون الكعبة في مكة ، ويعتقدون أنها بناء هرمس أو إدريس عليه السلام وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه السلام في كتبهم ، ويسمونه عندهم ملك العرب ، لأن الشائع فهم أنهم لا يؤمنون بالأنبياء إلا فرقاً واحدة تذكر شيئاً وإدريس وإبراهيم وبخي المغتسل وبخسيونهم تارة من الأنبياء وتارة من عباد الله الخالص الذين وصلوا بالرياضة والعبادة إلى مقام الرزق والإلهام .

وقد كان الباحثون يعججون لتتويه القرآن الكريم بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها ، ولكن الدراسات الحديثة بنت للباحثين العصررين شأن هذه الملة في دراسات الأديان كافة ، فعادوا يبحثون عن عقائدها الآن وعقائدها في عصر الدعوة الإسلامية ، وثبت لهم أنها تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتؤمن بالحساب والعقاب وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور «آلمى دنهورو» وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلم «آلمى دهشوخا» ويلبثون فيه زمناً على حسب ذنوبهم ، ثم ينقلون منه إلى عالم النور .. ولهم كتاب يسمونه (كتزة) ولعله من مادة الكنز التي تفيد معنى التفاسة والكتمان ، لأنهم يقدسونه ويختفونه فلا يطلعون أحداً على أسراره ..

إلا أن المتفق عليه أن اللغة التي كتب بها كتاب الكتز وغيرها من الكتب المقدسة عندهم هي لغة سامية الأصل قريبة من السريانية ، وتكفى نظرة في مصطلحاتهم للجزم بهذه الصلة الوثيقة بين لغتهم واللغة العربية الحديثة فضلاً عن القديمة المهجورة .

\* \* \*

فمن كلماتهم ومصطلحاتهم «آلمى» يعني عالم ، و«شمس» يعني شمس و«هي» يعني حي ، و«روحـايـاه» يعني روح و«موشـيه» يعني المسيح ، و«بهـيه» يعني يحيى ،

و«قدموي» يعني القديم ، وحران «سفلاي» يعني السفل و«ترميد» يعني تلميذ ، وأسفر يعني سفر ، و«تنياً» يعني الثاني ، و«تليثاً» يعني الثالث ، واسم الصابحة نفسه على ما يقول بعضهم مأخوذ من السابحة ، سموا به لكثره الاغتسال في شعائرهم وملازمتهم شواطئ الأنهر من أجل ذلك ، ولكنهم يطلقون على ملتهم اسم «مندالي» ولا يعرف من أين مأخذة الاسم ، واشتقاق اسمهم من السبع أرجح من نسبة الاسم إلى السبأوثر العبرية يعني الجنود – جنود السماء – أى الكواكب ، التي اشتهروا بعادتها ..

والأبجدية عندهم قريبة من أبجدية حساب الجمل على حسب ترتيبها في أبجد هوز حتى كلمن الح وهي «آ . با . كا . دا . ها . وا . زا . ها . طا . ها . يا . كا . لا . ما . نا . سا . أى . يا . صا . قا . را . شا . تا» .

ومن هذه الحروف ما يقارب مخارج الحروف التي تقابلها في اللغة الفارسية ، لأنهم تعودوا نطقها منذ زمن قديم .

ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم لأنهم يصططعون التقية ويوجبونها ، ومن ذلك أنهم يحرمون الصيام باطناً كما اشتهر عنهم ، ولكنهم يصومون جهراً ويروى ابن النديم في الفهرست أنهم يصومون ثلاثة يوماً مفرقة على أشهر السنة ، وقد يتغافلون بصيام أيام النسيء الخمسة ، ويروى عنهم أيضاً أنهم يصومون خمسة أيام يأكلون فيها الطعام نهاراً وليلاً ويحبسون أكل اللحوم المباحة لهم وهي غير ذات الذنب ، ويقال إن الصيام بتنوعه قديم عندهم يرجع إلى أيام اليابلين .

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء في سورة البقرة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِرِينَ  
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم في أيام الدعوة الإسلامية ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزوون الله غاية التزية ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية ، ولم تكن لهم هيأكل ولا أصنام عند ظهور الإسلام ، ولابد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس إلى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا ، دعاها بأسمائها فوجدت ، ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بوساطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهدایة وتؤثره نعمة الله .

وأقرب ما نتشبه به هذه العقيدة أنها كالخوض الذي تصب فيه مسارب الماء من كل مورد ، فإذا أخذت ماءه فحلته وجدت فيه أثرا من كل مسرب ، ولكنها توجد فيه على امتداد ولابد من الجهد لتصفيتها والرجوع بكل جزء من أجزائها إلى بنوته الذي صدر منه في أصله البعيد ..

وهكذا العقيدة الصابية في امتداد عناصرها وعلاقة كل عنصر منها بالعناصر الأخرى ، ولكنها على هذا الامتداد مهمة جدا في البحث عن تلك العقائد ، وبخاصة عقيدة الخليل .

فهي مهمة من وجاهة المكان ، لأنها قدية العلاقة بكل مكان تعلقت به سيرته عليه السلام ، من جنوب الفرات إلى شماله ، إلى بلاد السريان ، إلى بلاد النبطية من شمال الحجاز .

وهي مهمة من وجاهة زمانها ، لأن لغتها المقدسة تشير إلى زمان متوسط بين اللغات القدية المهجورة واللغة السريانية الحديثة ولم تكن لغة إبراهيم سريانية حديثة كالتي بقيت إلى الزمن الأخير ، ولم تكن إحدى اللغات المهجورة التي يجمع المؤرخون موادرها مبعثرة متفرقة ولا يفهمون مفرداتها وتراثها وقواعدها ، فإن تلك اللغات المهجورة قد انقطعت صيتها بن بعدها على خلاف لغة الخليل . فإذا أشارت لغة الصابية إلى زمن متوسط بين اللغات المهجورة واللغات السامية المتأخرة فهي إحدى القرائن التي يستعان بها على تحديد زمان الخليل .

وهي مهمة من جهة موضوعها ، لأنها تربينا ملتقى التوحيد القديم والوثنية القديمة ، وفيها بقايا الاصطدام بين العقدين ، وقد يكون مدار الاختلاف بين عقيدة الخليل ومخالفية حول هذا المصطدم ، فإن بقايا التنازع بين المعتقدات ظاهرة في العقائد الصابئية يكاد بعضها أن يكون ردا على البعض الآخر ، فلا وثنية ولا إيمان بالكواكب من جهة ، ولا خلاص في الوقت نفسه من الوثنية والإيمان بالكواكب على صورة من الصور ، ولعل العقيدة الصابئية كما بقيت خليط مجتمع من الجانبين بعد هجرة إبراهيم وشيعته من وطنهم القديم .

ومن هنا كانت نحلة الصابئة مهمة في دراسة الأديان على العموم ودراسة دين إبراهيم على المخصوص ، وكان لها في ذلك شأن لا يناسب عددها القليل وعزلتها التي فرضتها على نفسها وفرضتها عليها أحداث الأيام ..

## مصادر التاريخ القديم

لم يبق من المراجع القديمة ما يضاف إلى الأبواب السابقة غير أقوال المؤرخين الأقدمين .. وهؤلاء المؤرخون الأقدمون يتضمنون إلى الأديان الكتابية الثلاثة ، ويعول كل منهم على كتب دينه ، فلا ينافقها وقد يزيد عليها ما ينطوي فيها ولا ينفيها ، وقد يأتى في أخبارهم ما يخالف كتب الأديان الأخرى ويزيد عليها شيئاً لا يسلمه من يعتقدونها ، ولكن التوارييخ القديمة على العموم لم تعتمد على مصدر غير كتب الدين وتفسيراتها في كل ملة .

وليس المقام هنا متسعًا للإفاضة في التقليل من كتب المؤرخين الأقدمين ، فنحن نختار مؤرخاً من كل ملة يقتدى به المقتدون في بايه ، ونكتفى بيوسيفوس من مؤرخى اليهود ، وألى الفرج ابن العبرى من مؤرخى المسيحيين وألى الفداء من مؤرخى المسلمين .

### ١ - تاريخ يوسيفوس

«سأتكلّم الآن عن العبرانيين» ..

فأليخ بن عابر ولد له رعوس ، وولد لرعوس سiroج ، وولد لسiroج ناخور ، وولد لناخور ثيروس<sup>(١)</sup> Thermus وهو أبو إبراهيم العاشر من سلالة نوح ، وموالده في سنة ٩٩٢ بعد الطوفان .

... وكان لإبراهيم أخوان : ناخور وآران .

«وولد لآران (حران) لوطن وبنته سارة مملكة ، ومات في بلاد الكلدان في بلدة تسمى أور الكلدانيين ، وقبره هناك يرى إلى اليوم .. وتتزوج ناخور بنت أخيه مملكة ، وتزوج إبراهيم بنت أخيه سارة ، وكسر ثيروس المقام بأور حيث فقد ابنه المخرون عليه حاران فهاجر منها إلى شاران (حران) بالعراق حيث مات ثيروس وله من العمل مائتا سنة وخمس سنوات ، إذ كان عمر الإنسان قد قصر ولم يزل يقصر إلى عهد موسى فأصبحت غايته مائة وعشرين سنة وهو عمر موسى .

(١) هكذا ينطق بالإغريقية وهو تاريخ في كتب اليهود .

«ولد لناخور ثمانية من زوجته ملكة ، وهم : عز ، وبوغر وبشوئيل وخزام وعزو وآدلفاس وآدفاس وشوييل ، وهؤلاء هم أبناءه الشرعيون من زوجته ملكة . أما أبناءه الآخرون فهم : طبای وجدام وطاو وماخاس من جاريته روما .

«ولد لشوييل بنت اسمها رفقة وولد اسمه لايان ..

«ولما لم يكن لإبراهيم ولد شرعى تبنى لوطا ابن أخيه حاران وأخا زوجه سارة ، وترك بلاد الكلدائين وهو في الخامسة والسبعين ليذهب إلى كنعان حيث أمره الله وحيث ترك ذريته من بعده .

«وكان إبراهيم رجلاً متيقظ الذهن في جميع الأمور ، مقنعاً لمن يسمعه ، غير مقطوعٍ في فهمه واستدلاله . فأدرك من حقائق الفضائل ما لم يدركه سائر البشر ، واعترم أن يصحح الأفكار التي شاعت بينهم عن الله وينشرها ، فكان من ثم أول من اجتاز على المراحلة بأن الله خالق الكون واحد ، وأنه إذا وجد كائن آخر ينفع الناس فإنما يفعل ذلك بإذنه لا يفعله بقدرة من عنده ، وقد انتهى إلى ذلك من مراقبته لما يطرأ على الأرض والماء والشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية من عوارض التغير والتقلب ، أو لاح له أن هذه الأجرام لو كانت لها مشيئة لحكمت على نفسها ، فاما وهي لا تملك نفسها فكل ما تصنعه ، وكل ما ينفعنا من صنيعها ، فليس من عندها بل من عند من يتحكمها وهو الجبار دون سواه بالشكرا والطاعة منا ..

«والواقع أن هذه الأفكار هي التي أثارت عليه الكلدائين وال العراقيين فرأى من الخير بمشيئة الله ومعونته أن يرحل إلى أرض كنعان ، وهناك استقر وبني الله مذبحاً وقدم عليه القرابان .

«ويذكر المؤرخ برسوس أبانا إبراهيم ولا يسميه حيث يقول أنه في الجليل العاشر بعد الطوفان عاش بين الكلدائين رجل صدق متبحر في العلوم السماوية .. وزاد المؤرخ هكتاتوس<sup>(٢)</sup> على ذلك أنه ألف كتاباً عنه ، وقال نقولا الدمشقي في الكتاب الرابع من تاريخه أن إبراميس<sup>(٣)</sup> حكم في دمشق وكان مغبراً قدم من أرض بابل من البلاد التي

(٢) عاش هكتاتوس في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد .

(٣) حسب الكتابة الإغريقية .

تسمى بلاد الكلدانيين ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه إلى أرض كنعان - وتسمى اليوم يهودا - وفيها ذريته الذين ساكتب عنهم في كتاب آخر ، ولا يزال اسم إبراهيم مشهورا في إقليم دمشق حيث تسمى إحدى القرى بمسكن إبراهيم .

(ثم) مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع إبراهيم برخاء المصريين ، فاعتزم الهجرة إلى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أighborsها في أمر الله ، وفي نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله ، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوههم إليها .

«وأخذ سارة معه ، وخاف ولع المصريين بالنساء وأن يغتصبها عليها الملك ويقتلها من أجلها لجمالها فأوصاها أن تقول أنها اخته ، وحدث بعد وصوله إلى مصر كل ما توقعه فتساءل الناس بجمال زوجته ولم يقنع فرواتيس<sup>(٤)</sup> ملك المصريين بالسماع فهم بأخذها لولا أن الله أحبط جريمته بما فشا في مصر من الوباء والقلائل ، ثم قرب الملك قرائينه ليعلمحقيقة البلاء فقال له الأخبار : إن البلاء من غضب الله . لأنه نوى في نفسه أن يغتصب امرأة رجل غريب ..

«ولما بلغ منه الرعب سأله سارة من هي ومن هو الرجل الذي جاءت به معها ، فاعتذر لإبراهيم حين علم جلية الخبر وقال له أنه لم يتعصب لها إلا لظنه أنها اخته لا زوجته ، وإنما أراد أن يبني بها ولم يرد أن يغتصبها في نزوة من نزوات هواه ، ثم أغدق على إبراهيم ثروة جزيلة<sup>(٥)</sup> ، وطفق إبراهيم يباحث علماء مصر وتزداد شهرته بالعلم والفضيلة .

«ولما رأى إبراهيم أن المصريين متشبثون بعادات شتى يختلف بعضهم بعضا من جرائمها ويعدى بعضهم بعضا لأجلها جعل يناظرهم فيها كل فريق على حدة ويدى لهم جميعا أنها ليست على شيء من الحق ، ويحمل بذلك منهم محل الإعجاب فيعلمون أنه لم يكن على نصيب واحد من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على إقناع سامعيه في كل موضوع تناوله ببحثه ، وقد أطعلهم على علم الحساب وقوانين الفلك ، ولم

(٤) يقصد الفرعون .

(٥) في موضع آخر من تاريخ يوسيفوس يذكر أن حاكما أغار على فلسطين وأقاد سارة مع السبابا .

يكن أحد من المصريين على علم بها قبل مقدم إبراهيم ، وإنما جاءت من الكلدان إلى مصر ثم من مصر إلى الإغريق .

فثم قسم الأرض بينه وبين لوط بعد عودته إلى أرض كنعان ، وكان رعاتهم يتنازعون المرعى في مكان واحد ، فجعل لوطا يختار ما يشاء ورضاها هو بما تركه له من منخفض الأرض في تابرو - حبرون - وهي أقدم من مدينة تانيس بسبعين سنة<sup>(١)</sup> .

«أما لوط فاختار السهل إلى ناحية نهر الأردن غير بعيد من مدينة سدوم ، وكانت مدينة عامرة قضى الله عليها بالخراب لما سببها في موضعه .

«وكان سدوم مزدهرة في العصر الذي سيطر فيه الأشوريون على آسيا ، وغزرت ثروتها وتکاثر عدد شبابها وحكم أرضها خمسة ملوك هم : بالاس وبالباس وسينابان وسفير وملك البلاان - كل منهم في إقليمه ، و Zheng الأشوريون على هؤلاء الملوك الخمسة بعد أن قسموا جيوشهم إلى أربعة أقسام يقود كل جيش منها قائداً غير قواد الجيوش الأخرى ، ثم ضربوا عليهم الحصار ودارت المعركة بينهم وفرض الأشوريون جزية على الملك السدوميين ، وخضع هؤلاء الملك اثنى عشرة سنة يؤدون الجزية التي فرضت عليهم ، ولكنهم ثاروا في السنة الثالثة عشرة فجرد عليهم الأشوريون جيشاً بقيادة أمراً سيدس وأريوخ وقدر لعمر وثعال ، وعاد هؤلاء في سوريا جميعاً وأخضعوا سلالة الجبارين ثم بلغوا سدوم وعسكروا في الوادي المعروف بحفرة القار ، إذ كان الوادي كثيراً الحفر حين كانت سدوم عامرة ، ثم امتلأت الحفر بالماء بعد تدميرها وأصبحت بحيرة تسمى بالأسفلتية ، وساعدت إلى حير هذه البحيرة قريباً .

«واشتباك السدوميون والأشوريون في قتال عنيف هلك فيه كثيرون ووقع الباقون من السدوميين في الأسر ، وكان بين الأسرى لوط وقومه لأنهم حالفوا السدوميين .

«وسمع إبراهيم بالنكبة فدخله الخوف على قرينه لوط والإشراق على أصحابه وجيرانه السدوميين ، واعتزم التuggيل بإنقاذهم وخرج في الليلة الخامسة فانقض على الأشوريين بالقرب من مدينة دان على إحدى شعبتي نهر الأردن وفاجأهم قبل أن يستعدوا

(١) يرجع تاريخ تانيس إلى أكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان الشائع في القرن الأول للميلاد على غير ثقة أن حبرون بنيت سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد .

بالسلاح ، وذبح بعضهم وهم على فراشهم جاهلين بمصيرهم ، وهرب الآخرون الذين استلقوا على الفراش سكارى ولما يستغرقوا في الرقاد ، فجد إبراهيم في اقتداء أثراهم حتى بلغ (أوبه) بأرض الدمشقين ودل بذلك على أن النصر لا يتوقف على كثرة الأيدي وأن الغيرة والصلابة تغلبان العدد الكبير ، لأنه انتصر بثلاثة وثمانية عشر من عبيده وثلاثة من أصحابه على ذلك الجمع الكبير ، وأرسل بقيتهم ناجين بالمخرى إلى ديارهم .

«ولما خلص إبراهيم السديميين ومعهم قريبه لوط عاد في سلام ، ولقيه ملك سدوم في المكان المعنى بالوادى الملكى واستقبله هناك ملك سليمى ملكى صادق ، ومعنى هذا الاسم الملك الصديق وهو اسم اشتهر به بين الجميع فاختاروه كائنا الله ، وأصبحت سليمى هذه المكان الذى عرف بعد ذلك باسم (أورشليم) .

«ورحب ملكى صادق بإبراهيم ووسعه ومن معه فى ضيافته وجعل فى أثناء الضيافة يثنى على إبراهيم وينحدر الله الذى أسلم أعداءه إلى يديه ، فقدم له إبراهيم عندئذ عشر الغنائم فقبل المدية ، أما ملك سدوم فقد رجا إبراهيم أن يستيقى له كل الغنائم ولم يطلب غير رعيته التى أسرها الأشوريون ، فألى إبراهيم أن يأخذ شيئاً غير طعام عبيده ، ووهد بعض الغنائم لشركائه فى القتال ، وأولهم اسخون والآخران عنر ومامير .

«ورضى الله عن هذه المأثرة منه وقال له أنه لن يضيع جزاءه على هذا العمل الطيب ، فأجاب إبراهيم : وأى شىء يسرنى من هذا الجزاء إن لم يكن لي وريث بعدى ؟ فأنبأه الله أنه سيعقب ولداً تبلغ ذريته عدد النجوم فى كثرتها . فقرب إبراهيم إلى الله قرباناً حسب أمره عند سماعه بهذه البشرى ، وكان القربان على هذا التحمر ، إذ أخذ عجلًا ابن ثلاط سنوات وحملًا ابن ثلاط سنوات كذلك ويمامه وحمامة ، وذبحها وشطر كلا منها شطرين ما عدا الطير ، وقبل أن يقام المنذبح ، ولما تزل جوارح الطير تحوم على الذبائح ، متعطشة الدم ، سمع صوت إلهى يقول له : أن ذريته ستلقى الشر من جهة مصر أربعمائة سنة ولكنهم بعد العذاب يقلدون عدوهم ويقهرون الكهانين فى القتال ويملكون أرضهم ومداشرهم ..

«وكان إبراهيم يعيش على مقربة من بلوطة عجيج ، غير بعيد في أرض كنعان من مدينة

الحبرونيين ، حيث أحزنه عقم زوجته فصلى الله كي يرزقه ولدا ذكرًا وأمره الله أن يوقن من ذلك كما أيقن بالخير من طاعته لأمر الله الذي أمره بالهجرة من العراق .

«وأحضرت سارة بأمر الله إلى فراشه إحدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى أن يرزق منها ذرية ، فلما حلت اجرأت على إهانة سارة واحتذت سمة الملكات كائنا تصير حوزة إبراهيم كلها إلى ابنتها الذي لم يولد ، فأسلمها إبراهيم إلى سارة تؤدبها ، ولم تصير هاجر على مذلتها فهربت ودعت إلى الله وأمرها أن تعود إلى سيدها وسيدتها ووعدها أن ترضى عن عيشها إذا هي غضت من كثرياتها لأنها لقيت ما لقيته من جراء الاستطالة على مولاتها ، وأنها إذا عصت أمر ربه هلكت ولكنها إذا عادت إلى البيت صارت أما لولد يملك تلك الأرض ، فأطاعت وعادت إلى سيدها وسيدتها فسامحها ووضعت بعد قليل ولدا سمه إسماعيل أي المسنون من الله ، لأن الله استمع لصلاتها .

«وكان إبراهيم قد بلغ السادسة والثلاثين حين ولد له هذا الولد ، وبلغ التاسعة والتسعين حين تراءى له الرب وبشره بولد يرزقه من سارة ، آمرا له أن يسميه إسحاق وموحيا إليه أن أمها عظيمة وملوكا سيخرجون من نسله وأنهم يستولون بالحرب على أرض كنعان كلها من صيدا إلى مصر ، وعليهم أن يختنوا لكيلا يخالطوا بالأمم الأخرى ، وأن يكون الختان في اليوم الثاني بعد الولادة ، وسأين فيما بعد أسباب عادة الختان عندنا ..

«وسائل إبراهيم عن إسماعيل : هل يعيش ؟ فأنباء الله أنه سيعيش ويُعمر ويصبح أبي لأم عظيمة ، فشكر إبراهيم لربه هذه النعم ، واختتن هو وأآل بيته جميعا وإسماعيل الذي كان يومئذ في الثالثة عشرة ، وكان أبوه في التاسعة والتسعين ...» .

ثم مضى يوسفوس يروى قصة سدوم ، ونجاة لوط إلى صغير التي سميت بذلك لصغرها ، وإن بنتى لوط أشفقتا من هلاك الجنس البشري فولدتتا لأبيهما أبو آب ومعناها من الأب ، وعمان ومعناه ابن السلالة ، ومن ذريتهما أبناء سوريا الشرقية والجنوبية .

ثم روى يوسفوس مولد إسحاق وختانه في اليوم الثامن ، وأن العرب يؤجلون الختان إلى السنة الثالثة عشرة كما اختتن أبوهم إسماعيل ، وأن سارة عادت فأصرت على إقصاء

هاجر وابنها ، فخرجا إلى البرية وكاد الغلام أن يموت عطشا تحت شجرة من أشجار التينبوب لو لا أن هدى الملك من الرب هاجر أمه إلى بئر ماء قريب .

قال يوسيفوس : ولما بلغ الصبي مبلغ الرجال زوجته أمه مصرية من قومها فولدت له اثنى عشر ولدا هم : نبايوث ، وقدار ، وعبدائيل ، وبسام ، ومشمع ، وادوم ، وماسم ، وقدوم ، وتيمان ، وجشور ، ونافش ، وقدماس ، واستولى هؤلاء على الأرض كلها من العراق إلى البحر الأحمر وسموا بالنباتيين (النبيطين) وهم الذين سمى باسمهم جميع أمة العرب وقبائلها إكراما لشأنهم ولشهرة إبراهيم .

ثم بني إبراهيم بعد ذلك بقطورة وولد له منها ستة أبناء أقوباء على العمل سرعاً في الفهم ، وهم : زمزان وجزار ومدان ولوشاق وسوس .. فأرسلهم إبراهيم وأبناءهم يتعمرون لهم منازل على التروجلوديتيس *Troglodytis* وفي بلاد العربية السعيدة التي تمتد إلى البحر الأحمر ، ويقال أن أفرون بن مدان مجرد حملة على لوبيا واحتلها وأن أبناء أبنائه أقاموا هناك وسموا الأرض باسم أفريقيا .

ثم ختم يوسيفوس قصة إبراهيم بنبأ وفاته .

وقال : إن إسحاق وإسماعيل دفناه إلى جوار سارة في مقبرة حيرون ، وكان قد روى في ختام قصة سارة أن الكنعانيين تبرعوا بدفنتها على النفقه العامة ، ولكن إبراهيم اشتري المدفن من أخرايم بأربعين ألفاً مثقال .

## ٢ - ابن العبرى

وإذا كان يوسيفوس مثلاً للمؤرخ القديم من الوجهة الإسرائيلية فإن ابن العبرى أبو الفرج ابن هرون صاحب مختصر الدول المتوفى سنة ١٢٨٦ قد يكون المثل الوحيد للمؤرخ القديم من الوجهة المسيحية في هذا الموضوع لأنه إمام من أئمة الكنيسة السريانية التي ينتشر أتباعها في مواطن إبراهيم ويحفظون أخباره التقليدية منذ القرن الأول للميلاد .  
قال في كلامه عن دولة الأولياء - أى الآباء - في بني إسرائيل :

«من أئمتنا باسليوس وأفريم يزعمان أن من آدم إلى عابر هذا كانت لغة الناس واحدة وهي السريانية ، وبها كلم الله آدم .

«وتنقسم إلى ثلاثة لغات : أفعىها الآرامية وهي لغة أهل الراها وحران والشام  
الخارجية وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباق الشام الداخلية ،  
وأعندها الكلدانية النبطية وهي لغة أهل جبال أشور (أشور) وسواحل العراق . ويعقوب  
الرهاوی يقول : إن اللغة لم تزل عبرية إلى أن تبللت الألسن ببابل .

«فالغ بن عامر ولد له أرّاعو وعمره على الرأى السبعيني<sup>(٧)</sup> مائة وثلاثون سنة وعلى  
رأى اليهود ثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلاثة وثلاث وأربعون سنة ..

«وف سنة مائة وأربعين لفالغ فلقت الأرض أى قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح .  
فصار لبني سام وسط المعمرة فلسطين والشام أشور وسامرة وبابل وفارس والمحجّز ،  
ولبني حام التيمن كله أى الجنوب : إفريقية والزنج ومصر والتوبه والحبشه والسندي  
والهند ، ولبني يافث الجريبيا أى الشمال : الأندرلس والأفرنجية وببلاد اليونانيين والصقالبة  
والبلغار والترك والأرمي . وبعد وفاة فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين يقطان أخيه ، وشرع  
الناس في تشييد المقصون .

«وارّاعو بن فالغ ولد له ساروغ وعمره على الرأى السبعيني مائة واثنان وثلاثون ،  
وعلى رأى اليهود اثنان وثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلاثة وتسعة وثلاثون سنة .

«وفي سبعين سنة لأرّاعو قال الناس بعضهم لبعض : هلموا نضرب لينا ونحرق آجرا  
وبنني صرحا شامنا في علو السماء ، ويكون لنا ذكر كي لا تبدد على وجه الأرض ،  
فلما جدوا في ذلك بأرض شنعار وهي السامرية ونمروذ بن كوش قات رافق الصرح  
بصيده - أى جلب لهم القوت - وهو أول ملك قام بأرض بابل ، وهو الذي رأى  
شبه إكليل في السماء واتخذ مثله ووضعه على رأسه فقيل : إن إكليله نزل من السماء ..  
قال الله تعالى : هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شيء يهتمون به ، سوف أفرق لغاتهم  
كلا يعرف أحدهم ما يقول الآخر . فبدد الله شملهم على وجه الأرض ، وأرسل رياحا  
عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمروذ الجبار وتبللت لغات الأدميين ، ولذلك دعى  
اسم ذلك الموضع بابل .. وبنى نمروذ ثلاثة مدن : أرخ وخيليا - أى الراها ونصيبين -  
وأندائن .

(٧) ترجمة التوراة المعروفة بالترجمة السبعينية لاشتراك التين وسبعين مترجماً في نقلها إلى اليونانية .

«وساروخ بن أرغو ولد له ناحور وعمره على الرأى السبعيني تسع وسبعون سنة وعلى رأى اليهود تسع وعشرون سنة ، وجميع أيامه مائتان وستة واحدة ، وفي خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أبوب الصديق على رأى أروذ الكتعانى ، وبينى أرمونيس ملك كتعان سدوم وغامورا على اسم ولديه ، ومدينة صاعر على اسم أمهما .

«وترح بن ناحور ولد له إبراهيم وعمره على الرأين جميعا سبعون سنة ، وجميع أيامه مائتان وخمس وسبعون سنة ، ومات بمدينة حران ، وبينى مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد إبراهيم بعشرين سنة ، ويوسيفوس يقول : إن عوض بن آرام بناها ، ومن هنا يتفق التاريخان السبعيني العبراني .

«وابراهيم بن ترح ولد له إسحاق وعمره مائة سنة ، وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون سنة ، ولما أتى عليه خمس عشرة سنة استجابة الله في العقاب - أى الطيور - التي كانت تفسد في أرض الكلدانين وتسبح زروعهم .. وأحرق إبراهيم هيكل الأصنام بقرية الكلدانين ودخل هaran أخيه ايطني النار فاحتراق ، ولذلك فر إبراهيم وعمره ستون سنة مع أخيه ترح ، وناحور أخيه ، ولوط بن هاران أخيه المحترق ، إلى مدينة حران وسكنها أربع عشرة سنة .

«ثم خطبه الله قائلا : انقل عن هذه الديار التي هي ديار آبائك إلى حيث أمرك . فأخذ سارة امرأته ولوط ابن أخيه وصعد إلى أرض كتعان وحارب ملوك كدرل عمر وقهراهم . وفي عودة من الحاربة اجمع ملكيزدق الكاهن الأعظم وخر لوجهه بين يديه وأعطاه عشرة من السلب وباركه ملكيزدق ..

«وفي سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب في السماء ، وذريته كرمل البحار ، فوثق إبراهيم بالله حق الثقة .

وفي هذه السنة دخل إلى مصر ووشى بحسن سارة امرأته إلى فرعون فسأل إبراهيم عنها ، فقال : هي اختى من أى لا من أمى . ولم يكن يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عممه ، فأقام جدهما مقام أبيهما .

«فاحتازها فرعون إلى نفسه مختليا حتى تحقق أنها زوجته فردها إليه مع هدايا جزيلة ،

من جملتها هاجر المصرية أمة سارة ، وتقدم إليه بالانتراح من بلده خوفاً من أن يهجم  
في صدره هاجس سوء ثانياً .

«ولأنه لم يكن لإبراهيم ولد من امرأته سارة سمحت بجاريتها هاجر فوطئها إبراهيم  
وولدت له إسماعيل ، واستهانت هاجر بسارة مولاتها شاختة عليها بسبب ولدتها فأذاحتها  
سارة من عندها إلى القفر بغيظة منها . فتراءى ملك الرب هاجر قائلاً : لا تيأس من  
رحمة ربك ، فإن الله قد بارك على الصبي حين خاطب أباه إبراهيم ، وكان خاتمة البركة  
باللغة السريانية هكذا : وأكيرته طب طب وأعظمته جداً جداً .

«أقول قد اتفق في هذه الألفاظ سر عجيب لاح في عصرنا وهو أنا إذا جمعنا حروفها  
بحساب الجمل كان المحاصل ستة وستة وخمسين سنة ، وهي المدة من الهجرة إلى السنة  
التي قتل فيها آخر الخلفاء العباسيين وزوال الملك معظم جداً عن آل إسماعيل .

وبعد مائة سنة مضت من عمر إبراهيم ولد له إسحاق من سارة ، ولما حصل  
لإسحاق تسع عشرة سنة أصعده إبراهيم بجبل نابو ليضحي به ضحية لله تعالى ، فقدأه  
الله بحمل مأْخوذ من الشجرة وأنقذه ..

«والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذي فدى العالم بنفسه ، ولذلك قال  
في إنجيله المقدس : إن إبراهيم كان يرجو أن يشاهد يومي ، فشاهد وسر . وقيل في  
تلك السنة أتم ملكيزدق بناء أورشليم .

«وفي ثمان وثلاثين سنة من عمر إسحاق درجت سارة أمه وعمرها مائة وسبعين  
وعشرون سنة ، وتزوج إبراهيم قنطوراً ابنة ملك الترك .

«ولما بلغ إسحاق أربعين سنة نزل اليعازر - وليد بيت إبراهيم - إلى حران وجاء  
برفقها زوجة إسحاق ، ولما توفي إبراهيم دفن إلى جانب قبر سارة زوجته في المغارة  
المضاغفة التي ابتعاها من عفرون الحيثاني خوفاً من عود الطوفان ..

### ٣ - أبو الفداء

ونختار أبو الفداء من المؤرخين الإسلاميين ، لأنّه كتب في القرن الثامن واعتمد على كبار المؤرخين الموسوعين من قبله ، وقضى أيامه على صلة بأقطار العراق العليا وأشور القديمة وعلى علم براجع أصحاب السير فيها ، فليس أقدر منه على تلخيص تاريخ إبراهيم والتعقيب عليه من مصادره في زمانه ..

قال عن إبراهيم عليه السلام :

«هو إبراهيم بن تارح ، وهو آزر بن ناحور بن ساروغر بن رعو بن فالغ بن عاير بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وقد اسقط ذكر قينان بن أرفخشذ من عمود النسب ، قيل بسبب أنه كان ساحراً فأسقطوه من الذكر ، وقالوا شالح بن أرفخشذ وهو بالحقيقة شالح بن قينان بن أرفخشذ فاعلم ذلك ..

«وولد إبراهيم بالأهواز ، وقيل ببابل . وهي العراق . وكان آزر أبو إبراهيم يصنع الأصنام ويعطّلها إبراهيم ليبعها . فكان إبراهيم يقول : من يشتري ما يضره ولا ينفعه ! .. ثم لما أمر الله إبراهيم أن يدعو قومه إلى التوحيد دعا آباء قومه بسمه ، ودعا قومه فلما فشا أمره واتصل بنمرود ابن كوش - وهو ملك تلك البلاد . وكان نمرود عاماً على سواد العراق وما اتصل به للضحك . وقيل بل كان نمرود ملكاً مستقلاً يرأسه - فأخذ نمرود إبراهيم الخليل ورماه في نار عظيمة فكانت النار عليه يرداً وسلاماً وخرج إبراهيم من النار بعد أيام ، ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود ، وآمنت به سارة وهي ابنة عمّه هاران .

ثم إن إبراهيم ومن آمن معه وأباه على كفره فارقوا قومهم وهاجروا إلى حران وأقاموا بها مدة ، ثم سار إبراهيم إلى مصر وصاحبها فرعون ، وقيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس فذكر جمال سارة لفرعون - وهو طوليس المذكور - فأحضر سارة إليه وسأل إبراهيم عنها فقال : هذه أختي ، يعني في الإسلام . ففهم فرعون المذكور بها فليس الله يديه ورجليه ، فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم همّ بها فجرى له كذلك ، فأطلق سارة وقال : لا ينبغي لهذه أن تخلي نفسها ، ووحبها هاجر جارية لها ، فأخذتها وجاءت

ل إبراهيم ، ثم سار إبراهيم من مصر إلى الشام ، فأقام بين الرملة وإيليا ، وكانت سارة لا تلد ، فوهبت إبراهيم هاجر ، وواعتها إبراهيم فولدت إسماعيل ، ومعنى إبراهيم بالعربي مطيع الله .

«وكانت ولادة إسماعيل مضى ست وثمانين سنة من عمر إبراهيم ، فحزنت سارة بذلك فوهبها الله إسحاق ، وولدته سارة ولها تسعون سنة .

«ثم غارت سارة من هاجر وابنها إسماعيل ، وقالت : ابن الأمة لا يوث مع ابني ، وطلبت من إبراهيم أن يخرجهما عنها ، فأخذ إبراهيم هاجر وابنها وسار بهما إلى الحججاز وتركهما بمكة .. وبقي إسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة ..

«وماتت هاجر بمكة ، وقدم إليه أبوه إبراهيم وبنيا الكعبة ، وهي بيت الله الحرام ، ثم أمر إبراهيم أن يذبح ولده ، وقد اختلف في الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل ، وفداء الله بكبش .

«وكان إبراهيم في أواخر أيام بيوراسب المسمى بالضحاك ، وفي أوائل ملك أفريدون ، وكان الترود عاملًا له حسب ما ذكرناه .

«وكان لإبراهيم أخوان وهما : هاران وناحور ، ولدا آزر .

«فهاران أولد لوطا ، وأما ناحور فأولد بتول ، وبتول أولد لابان ولايان أولد لها وراحيل زوجته يعقوب . ومن يزعم أن الذبيح إسحاق يقول كان موضع الذبح بالشام على ميلين من إيليا ، وهي بيت المقدس .

«ومن يقول أنه إسماعيل يقول أن ذلك كان بمكة .

«وقد اختلف في الأمور التي ابْتَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ بِهَا ، فقيل هي هجرته عن وطنه ، والختان ، وذبح ابنه ، وقيل غير ذلك .

«وفي أيام إبراهيم توفيت زوجته سارة بعد وفاة هاجر ، وفي ذلك خلاف ، وتزوج إبراهيم بعد موت سارة امرأة من الكتعانيين ، وولدت من إبراهيم ستة نفر ، وكان جملة أولاد إبراهيم ثمانية : إسماعيل وإسحاق ، وستة من الكتعانية على خلاف في ذلك ...» .

ثم انتقل المؤرخ إلى سيرة إسماعيل وإسحاق ، فقال عن إسماعيل .. فإنه ولد لإبراهيم لما كان لإبراهيم من العمر ست وثلاثون سنة ، ولما صار لإسماعيل ثلاث عشرة سنة تطهر هو وإبراهيم ، ولما صار لإبراهيم مائة سنة وولد له إسحاق أخرج إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة بسبب غيرة سارة منها ، وقولها : أخرج إسماعيل وأمه . لأن ابن الأمة لا يرث مع أبيه . وسكن مكة مع إسماعيل من العرب قبائل جرهم ، وكانوا قبله بالقرب من مكة . فلما سكنتها إسماعيل اخطلوا به ، وتزوج إسماعيل امرأة من جرهم ورزق منها اثنتي عشر ولدا . ولما أمر الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ببناء الكعبة - وهو البيت الحرام - سار من الشام وقدم على ابنه إسماعيل بمكة ، وقال : يا إسماعيل إإن الله تعالى أمرني أن أبني له بيتك فقال إسماعيل : أطع ربك . فقال إبراهيم : وقد أمرك أن تعيني عليه . قال : إذن افعل .. فقام إسماعيل معه وجعل إبراهيم بينيه وإسماعيل يناوله الحجارة ، وكانت كلما بنى دعوا فقالا : ربنا تقبل منا .. إنك أنت السميع العليم ، وكان وقوف إبراهيم على حجر وهو يبني ، وذلك الموضع هو مقام إبراهيم ، واستمر البيت على ما بناه إبراهيم إلى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله ﷺ ، وكان بناء الكعبة بعد مضي مائة سنة من عمر إبراهيم بمنة ، فيكون بالتقريب بين ذلك وبين المجرة ألفان وسبعمائة ونحو ثلاثة وتسعين سنة .

«وأرسل الله إسماعيل إلى قبائل اليمن ، وإلى العماليق ، وزوج إسماعيل ابنته من ابن أخيه العيسى<sup>(٨)</sup> بن إسحاق ، وعاش إسماعيل مائة وسبعاً وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر ، وكانت وفاة إسماعيل بعد وفاة أبيه إبراهيم بثمان وأربعين سنة .»

ثم قال المؤرخ بعد أن استطرد إلى سيرة موسى الكليم : «وكان مولد موسى لمضى أربعمائة وخمس وعشرين سنة .. إلى أن قال عن خراب بيت المقدس سنة عشرين من ولاية مختنصر تقريباً ، وهي السنة التاسعة والتسعون بعد التسعمائة لوفاة موسى ..»

---

(٨) هو عيسى في لغة التوراة .

## مذكى

إلى هنا انتهت المصادر الدينية ومراجع التاريخ القديم التي رویت فيها سيرة الخليل إبراهيم .

وهذه المراجع هي الأساس الذي يقوم عليه كل ما تجده في العصر الحديث من أخبار المحرفيات الأثرية وتعليقات المؤرخين عليها .

ومن الواجب أن نعرف مبلغ قوة هذا الأساس قبل أن ننتقل منه إلى البناء الذي يرتفع عليه .

ففي تقديرنا أن هذا الأساس اليوم أقوى مما كان عليه عند المؤرخين العلميين قبل القرن العشرين .

فقد كانت البدعة الشائعة في القرن الماضي أن التواريχ الدينية لا تصلح أن تكون أساساً للتواريχ العلمية .

وكان يكفى أن تروي الحادثة وتنسب إلى سبب خارق للطبيعة ليقول المؤرخون العلميون أنها لم تحدث ولا يعقل أن تحدث ، ولا يقنعوا بالشك في السبب ومحاولة البحث عن سبب آخر داخل التعليقات الطبيعية ..

وكان يكفى أن يقال أن نبياً من الأنبياء عاش ثلاثة سنة أو نحوها ليقال أنه لم يوجد فقط فضلاً عن أن يكون قد وجد وقد عاش أقل من عمره المذكور ..

كل هذا قد تغير في معيار البحث الحديث أو وجب أن يتغير ، لأنه مناقض للعلم نفسه ، عدا ما هو ظاهر من مناقضته للدين .

فقد ثبت اليوم أن الأخبار الدينية سبقت المباحث المحرفية والمقارنات العلمية إلى تقرير أحكام التاريخ التي صحت في رأي المتأخرین باليراهين الحديثة ..

ومن أمثلة ذلك وحدة الأجناس السامية في نشأتها ، فإن العلماء العصريين قد عرفوا

هذه الوحدة من المقارنة بين اللغات ، ومن الدراسات الأخيرة في علم السلالات البشرية ، ومن تفسير الكتابة على الآثار المطمورة والهيكل المهجورة .

وهذه الدراسات جمِيعاً من مستحدثات الزَّمْنِ الْأَخِيرِ ، لم يستخرج منها العلماء دليلاً موثقاً به قبل مائة سنة .

فإذا احترم العالم حكمه وتقديره وجب أن يفهم أنَّ كلام الأمِّ السامية عن وحدة أصولها يستند ولا شك إلى أصل عريق وسند وثيق ، لأنَّها تكلمت عن هذه الوحدة وهي لا تعرف شيئاً من مقارنات اللغات والأحافير ولم يكن في وسعها أن تعرف شيئاً عنها قبل ألف السنين .

فمن أين جاء تلك الأمِّ أنها سلالة أصل واحد إن لم يكن لها مرجع تعلُّق عليه ولا يجوز للعلم رفضه وإسقاطه من الحساب ؟

كذلك شاعت في القرن الماضي بدعة العلم – أو أدعياء العلم – الذين رفضوا كلَّ خبر له، علاقة بالمعجزات وخوارق الطبيعة .

فإذا قال قائل أنَّ هذه المدينة دمرها الله لفسادها وعدوانها على أنبيائه أسرع أولئك الأدعياء فأبطلوا القصة كلها وقالوا : إنه لا مدينة ولا فساد ولا أنبياء ، وإنَّ الأمر كله حديث خرافية أو تلقيق خيال ..

فاليوم قد ثبتت وقائع لا شك فيها من تواریخ تلك المدن التي تواترت الأنبياء الدينية بدميرها في الزمن القديم .

وقد تابع التقييب في وادي الأردن وشواطئ البحر الأحمر ورمال الأحقاف من جنوب بلاد العرب ، فظهر من الأحافير أنها كانت بلاد زلزال وأغوار وعوارض جوية تتطابق ما وصفته الكتب الدينية من أحوال عمارها وأحوال خرابها ، وأنَّ الزَّمْنَ الْذِي وقعت فيه نكباتها قريب من الزَّمْنِ الْمُقْدُورِ لقيام الأنبياء فيها ، ولم ينحصر الأمر في دلالات الكوارث الطبيعية والأعاصير ، بل جاءت الدلالات الاجتماعية مصححة موضحة تعلم الباحثين الآباء والرصانة قبل التعجل بالرفض والإنكار .

فلم يكن أبناء الشواطئ على البحر الأحمر يعلمون شيئاً عن التواريخ التي كتبت بالإغريقية واللاتينية ثم اندثرت في القرون الوسطى وظللت مندثرة إلى أن تجددت وانتشرت بين الأوروبيين والمتعلمين على اللغات الأوربية في العصر الحديث.

ولكن القدماء على شواطئ البحر الأحمر تحدثوا عن المدن التي كانت تتحكم التجارة وتماكس<sup>(١)</sup> وتبالغ في إضافة الأرباح والآتاوات ، ولم تأتها هذه الأخبار من المراجع الإغريقية أو اللاتينية بطبيعة الحال ، فلابد من الاعتراف لها برجع معلول عليه ، وليس من الجائز أن يتعجل العالم الأمين بالشك فيه ..

ومن أمثلة هذه الأخبار مثل المزينة التي حلّت بأبرهه الأشرم صاحب الفيل الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وأن جيشه هلك بالطير الأبابيل ، ترميمهم بمحارة من سجيل ، وقال أبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس أنهم أصيروا بالجدرى (وأن من أصحابه الحجرة ، جدرته) .

فهذا الخبر عن الجدرى قد أيده من لم يرد تأييده من مؤرخي اليونان والرومان ، فقد ذكر الوزير بر كوب Prokوب من أبناء القسطنطينية أن مرض الجدرى ظهر في مصر عند منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وروى بروس Bruce الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون في تواريختهم كيف ارتدى أبرهه وأنه رجع عن مكة لما أصحاب جيشه من المرض الذي يصفونه بصفة الجدرى ، وكتب غير واحد من مؤرخي اليونان أن أبرهه زحف على مكة في مرحلة يجرها أربعة من الفيلة وأن جيشه لم يعد منه إلا القليل لكتلة من مات منه بالوباء ف AISER ما يفهمه العالم الأمين من هذا وأشباهه أن المصادر القديمة قائمة على أساس لا يجوز إهاله ، وأن المستقبل خليق أن يفسر منه أكثر مما فسرناه حتى اليوم .

وقد تمحضت مسألة الأعمار الطوال ووضعت في مواضعها من الدراسة التاريخية فليس فيها ما يعرض الباحث في تاريخ قديم أو تاريخ حديث وهذه المسألة - أي مسألة الأعمار - قد نوقشت كثيراً قبل القرن العشرين ، وتساءل المناقشو فيها : هل حساب الستين واحد بين الأوائل والأواخر ، أو هما حسابان مختلفان ؟

(١) مماكس : ماكس المشترى البائع : جادله وطلب منه سبط الثمن .

وصرروا لذلك مثلاً بأيام الخلقة ، فإن خلق العالم في ستة أيام يعني أيام غير الأيام التي تحسب بظهور الشمس وغروبها ، لأن الشمس خلقت في اليوم الرابع ، فلا بد أن يكون معنى الأيام أنها أدوار لا تحسب بالشروع والغروب .

وتقرر أن الأوائل كانوا يحسّبون للسنة رئيسين : رئيس السنة الزراعية ورئيس السنة الديوانية ، فربما اجتمع في العام الواحد رأسان للسنة على هذا الحساب ..  
وظن بعضهم أن حساب السنين كحساب الأهلة عند الأوائل ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى حيث يقول :

ورأيت الحمام يأتى على العا  
لم من قاهر ومن مهور  
وادعوا للمعمريين أمرورا  
لست أدرى ما هن في المشهور  
أبراهيم فيما تقضى من الآيا  
م عسداوا سنه بالشهور  
كلما لاح للعيون هلال كان حولاً لذيهم في الدهور  
وليس هذا الظن بالصواب ، لأن الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب  
الشمس منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل التاريخ .

واجتهد بعضهم فقال إن الأعمار المقدرة هنا هي أعمار العشائر والدعايات النبوية ، وكثيراً ما يجري الحديث حتى اليوم باسم رئيس العشيرة ويكون المقصود هو العشيرة كلها ، أو يقال ابن الشرق وابن الغرب وابن أوربة وابن أمريكا ، والمقصود هنا هو العشائر بأجمعها .

وتوافق على هذه المذاهب من التأویل أناس من كل ديانة كتابية ، فليست هي مقصورة على المسلمين ولا على المسيحيين ولا على اليهود ، بل يشترك فيها أصحاب الفقه من جميع الأديان :

ونحن هنا لا حاجة بنا إلى الفصل في هذه التأویلات ، وإنما أردنا بتمحیصها ووضعها في مواضعها أن الاتفاق تام بين أصحابها جمیعاً على أمرین :  
«أولاً» أن تقدير الأعماres في كتب العهد القديم يزداد كلما تباعد الزمن بين رواة الخبر

وبين عصور المعمرين الذين تحسب أعمارهم ، فكلما صغرت المسافة بين الزمرين كان التقدير أقرب إلى العمر المألف .

فبعد كتابة العهد القديم كان قد انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون ، وانقضى على عهد إبراهيم عليه السلام نحو أحد عشر قرنا ، فحسب عمر موسى مائة وعشرين سنة ، وعمر إبراهيم مائة وخمس وسبعين سنة ، ويزداد التقدير إلى أكثر من ذلك كلما أوغل الزمن في القدم إلى ما قبل التاريخ .

فيهذه القاعدة أصبحت تقدير الأعمار مساعدا على تقرير وقت الكتابة وتقرير الفترات بين العهود ، فلم يطل حساب المراجع القديمة بهذا الاختلاف بين الأوائل والأواخر في حساب الأعمار الطوال ، بل جاء فيه ما يساعد على الموازنة والقياس .

و<sup>هـ</sup>ثانياً يلاحظ أن حساب العهود بينما وبين الأوائل لا يختلف حساب الأعمار ، فإن الأثير مثلا يقول اعتمادا على مصادره جهينا : إن عهد إبراهيم مضى عليه ألفان وسبعمائة ونحو ثلاثة وتسعين سنة قبل الهجرة الحمدية ، وهذه التقديرات لا تطيل العهود والفترات بينما بنسبة الطول في أعمار الأفراد المعمرين ، فإن هذا الحساب قريب من حساب علماء الأحافير وطبقات الأرض الذين يقيسون الفترات بمقاييس تكون الطبقات وتتابع الظواهر الجيولوجية ، وسيأتي فيما بعد أن التفاوت بين تقديرات علماء الأحافير أنفسهم لا يقل عن التفاوت بين تقدير ابن الأثير على حسب مصادره وبين تقديرات هؤلاء العلماء مجتمعين .

وأيا كان مقطع الرأى في هذه المسائل جهينا فليس منأمانة التاريخ أن يستند إليها أحد في نفي الأخبار التواترة ، ولا سيما أخبار العهود والدعوات ، ولا تزال الأسانييد الأولى أساسا قويا لتاريخ الأمم ، ترجع فيه دلائل الثبوت على دلائل البطلان .

وبهذا الوزن تنتقل من المصادر الأثرية إلى ما بعدها ، وتعتمد على هذا الأساس ثم لا ينبعها هذا الاعتماد أن تفرق بين الأسانييد في درجة القبول وميزان الترجيح ..

ولا ننتقل من الكلام من المصادر الأثرية في جملتها حتى نضيف إليها مصدرانا يستمد قوله من السكوت ولا يستمدتها من البيان والإيضاح فلا يخفى أن السكوت المعتمد

يدل على كثير ، وربما كان في ميزان الصدق أدل من الكلام الذي يتعرض للتورية والمحال .

فإذا علمنا من بعض التواريخ أنها تسكت عمداً عن بعض الأمور فقد علمنا شيئاً صحيحاً يبين لنا تلك الأمور المسكوت عنها ، وبخاصة حين نعلم سبب السكوت .  
لقد سكتت مصادر اليهود عن حالة العرب الدينية كل السكوت ، وترجع هذه المصادر إلى القرن السابع قبل الميلاد .

وقد تعمدت هذه المصادر أن تخرج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من الله ، وقالت : إن هذا الوعد إنما هو حق لأبناء إبراهيم من سلالة إسحاق .  
إن انتساب العرب إذن إلى إسماعيل قد كان تارياً مقرراً لا سيل إلى إنكاره عند كتابة المصادر اليهودية التي حصرت النعمة الموعودة في أبناء إسحاق ..

ولو لم يكن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم تارياً مقرراً في ذلك العصر – عصر كتابة المصادر اليهودية الأولى – لما كانت بهم حاجة إلى التمييز بين أبناء إسحاق وأبناء إسماعيل . إذ كان يمكن أن يقال أن النعمة الموعودة من نصيب أبناء إبراهيم عامة ليخرج من هذا الوعد من لم يكن من اليهود لا يناظرهم أحد في الانتساب إلى إبراهيم .  
لكن انتساب العرب إلى إبراهيم كان تارياً مقرراً كما هو واضح مما تقدم ، فلم يكن في الوسع إنكاره ، ولم يكن ثمة مناص من التفرقة بين أبناء إبراهيم من سلالة إسماعيل وأبناء إبراهيم من سلالة إسحاق .

وأكثر من ذلك أن كهان اليهود كانوا يحسون من العرب منافسة دينية . فضلاً عن المنافسة الدينوية ، فلو لم يكن للعرب حياة دينية يخشى الكهان منافستها لكان يمكنهم أن يحصروا وعد إبراهيم في أبناء المؤمنين دون أبناء الوثنيين الذين لا يعرفون الله الواحد الأحد ، فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثة إبراهيم الروحية ، ولا تدعوا الحاجة إلى أكثر من ذلك الاستثناء .

ولا شيء غير خطر المنافسة في النسب وخطر المنافسة في العقيدة الدينية يلجم الكهان إلى حصر النعمة الموعودة في أبناء إسحاق دون أبناء إبراهيم وقد لوحظ أن الكهان

يحصرون النسب شيئاً فشيئاً كلما أحسوا بخطر المنافسة على سلطانهم وسلطان هيكلهم على المخصوص .

فخصصوا أبناء يعقوب بعد أن كان الوعد عاماً شاملًا لأبناء إسحاق أجمعين ، وقالوا : إن الإسرائيликين هم أبناء يعقوب دون غيره ، وإسرائيل هو لقب يعقوب . ثم انقسمت دولة اليهود إلى دولة في الشمال تسمى مملكة إسرائيل ودولة في الجنوب تسمى مملكة يهودا ، فقال كهان الهيكل : إن النعمة الموعودة محصورة في أبناء داود . وقبل ذلك بزمن طویل كان اللاويون يحصرون الرياسة الدينية فيهم دون غيرهم ، لأنهم يقولون : إن اللاويين قبيلة موسى الكليم .

فاستثناء أبناء إسماعيل لم يحصل عيناً منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل ، ولا بد من منافسة دينية ودنوية دعت إلى هذا الاستثناء ، وإلى السكوت عن الحالة الدينية التي تخشى منها المنافسة ويشعر بها الكهان .

ولعل المنافسة في الحقيقة كانت بين الإيمان بـ «يهوا» والإيمان بالإيل أو الإله ، فأن العرب الأقدمين لم يذكروا «يهوا» قط بين أربابهم ، وإنما ذكروا الإيل والإله والله تعالى ، وكان اليهود يبعدون الإيل كما يبعده العرب ، ومن ذلك تسمية إسماعيل وإسرائيل وبتوئيل . فلما تشابه النسب بالانتهاء إلى إبراهيم ، وتشابهت العبادة بالاتفاق على اسم الإله ، جدت الرغبة بالكهان في الاستئثار من جهة والاستثناء من جهة أخرى ، فمحضروا النعمة الموعودة في أبناء إسحاق ثم في أبناء يعقوب ، ثم في أبناء داود ، جرياً على عاداتهم المطردة في أمثل هذه الأحوال .

ومهما يكن من أمر هذا التاريخ المسكوت عنه فوجود النسبة إلى إسماعيل قديم لم تكن فيه حيلة لليهود ولا للعرب .

فلو أراد العرب أن يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها إلى جارية ، وتحصل غيرهم بالانتهاء إلى السيدة المختارة .

ولو كان في وسع اليهود أن يمحضروا النسب إلى إبراهيم لما ذكروا شيئاً عن نسبة غيرهم إليه ..

فالاتساب إلى إبراهيم لم يكن مسألة اختراع و اختيار ، ولكنه كان مسألة تاريخ مقرر لا بد من البحث فيه على هذا الأساس ، ومن هنا قيمته التاريخية التي نصيفها إلى الأسانيد القوية في سيرة الخليل .

ويقضى استيفاء البحث في الأخبار المskوت عنها أن نشير هنا إلى المراجع التي ذكرتها كتب العهد القديم ولم يبق لها أثر بين هذه الكتب ولا بين غيرها من المراجع الإسرائيلية .

فليست الكتب التي ضمت إلى العهد القديم هي كل كتب التوراة المعترف بها ، لأن الكتب التي جرى الاستشهاد بها على ألسنة الأنبياء من بني إسرائيل لم توجد كلها بين أسفار التوراة ، كما هو واضح من الشواهد الكثيرة التي ثلم بعضها في هذا السياق .

ففي ختام كتاب الأيام الأول يقول الكاتب : «وأمور داود الملك الأولى والأخيرة هي مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرأى وأخبار ناثان النبي وأخبار إسرائيل وأخبار جاد الرأى ، مع كل ملكه وجيروته والأوقات التي عبرت عليه وعلى إسرائيل وعلى كل مالك الأرض» .

فهناك على هذا كتب تاريخية لم توضع بين كتب العهد القديم ، لأن كتاب صموئيل موجود بينها ، ولا يوجد بينها كتاب للنبي ناثان ولا للرأى جاد ..

وفي الإصلاح التاسع من كتاب أخبار الأيام الثاني أن «بقية أمور سليمان الأولى والأخيرة إما هي مكتوبة في أخبار ناثان النبي ، وفي نبوة أخيها الشيلوني وفي رؤى يعلو الثنائي على يرבעام بن نباطه» .

وقد تقدم أن كتاب ناثان غير موجود ، وكذلك نبوة أخيها الشيلوني ورؤى يعلو الرأى ، فإنهما غير موجودين على انفراد أو على اتصال بغيرها من الكتب المعروفة .

وفي الإصلاح الرابع عشر من كتاب الملوك الأول : «وأما بقية أمور يرבעام كيف حارب وكيف مالك فإنها مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك إسرائيل» .. وجاء في الإصلاح السادس عشر من كتاب الملوك الأول : «إن بقية أمور يعشنا وما عمل وجيروته ، أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك إسرائيل» ..

وليس في كتاب الملوك شيء عن هذه الأمور ، ولا عن أمور تاريخية أخرى وردت الإشارة إليها مردودة إلى نحو ثلاثة كتابا لم يبق منها أثر محفوظ ..

ومن هذه الأمور ما هو منسوب إلى الله كما جاء في الإصلاح الحادى والعشرين من كتاب العدد حيث يقول الكاتب : «لذلك يقال في كتاب حروب الرب واهب في سوفة وأودية أرنون ومصب الأودية» .. أو كما جاء في الإصلاح العاشر من كتاب يشوع : «حيثند كلام يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على جبعون وباقمر على وادي إيلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبا في سفر يasher ؟ ..

وليس بين المراجع المحفوظة كتاب يasher الذي أشير إليه في هذين الموضعين ، وقد أشير إليه في موضع آخر في كتاب صموئيل الثاني حيث يقول : «ورثي داود بهذه المرأة شاول ويغر ياثان ابنه ، وقال : إن يتعلم بنو يهودا نشيد القدس ، هو ذا مكتوب في سفر يasher» .

ويؤخذ من مراجع كبيرة كالكتاب الرابع لعزرا وكتب الحكم فيلون وكتب آباء الكنيسة الأولين أن أسفارا غير الأسفار الخمسة كانت تنسب إلى موسى عليه السلام .

وصفة القول في هذا الصدد أن المراجع الإسرائييلية قد سكتت عن بعض الأمور ولم تستوعب أمورا أخرى في سجلاتها المحفوظة فليس من الجائز أن يعترض المعارضون على أمر من الأمور التاريخية لأنه غير مذكور في تلك المراجع ، وإذا جاز أن يذهب بعض السجلات من تاريخ سليمان وأبنائه فمن الجائز أن تذهب سجلات أقدم منها في التاريخ ، كالسجلات التي حفظت عن عهد إبراهيم ، وهي أقدم منها بعده قرون .

وإذا صرفا النظر عن هذا كله ، ولم نقدر أن هناك أخبارا مسكونا عنها ، وأنباءا ضائعة فالمسألة التي لا يصح الخلاف عليها عند المقابلة بين المصادر القديمة ، هي نقص المصادر اليهودية حتى في أخبار البلاد المجاورة لمملكة إسرائيل ، فإن المصادر الإسلامية أوف بأخبار هذه البلاد من مصادر اليهود ، ويكفى لتقرير ذلك أن كتب اليهود لم تذكر قط أخبار عاد وثمود ، وإنفرد القرآن الكريم بذلك بما جاء عنها في المؤثرات

العربية ، ولو لا أن اسم عاد واسم ثمود قد وردا في جغرافية بطليموس لكان من البسيط على الذين يحملون اسم الخراقة على أطراف أستheim أن يزعموا أنها إحدى الخرافات ولكن اسم عاد Oadita واسم ثمود Thamudita قد وردا في جغرافية بطليموس ، وليس موقعهما كما وصفه الجغرافي الكبير بعيدا عن مملكة إسرائيل ، فإذا كان بطليموس قد سمع بهما فلا يعقل أن يكون أمرها مجهولا عند كتاب العهد القديم ، وإنما المعقول أن السكوت عن كل رسالة في أبناء إسماعيل هو المقصود .

ومن الواجب تقرير هذه الملاحظات قبل الانتقال إلى مصادر الأحادير وتعليقات المؤرخين المحدثين .

## الأحافير والتعليقـات

### البلاد والسكان :

بلاد الشعوب التي تعرف بالسامية - أو على الأصح بالعربية - هي شبه جزيرة العرب ، ومن شبه جزيرة العرب هاجرت بعد القبائل إلى بلاد الهملاج الخصيب بين وادي الفرات والبحر الأبيض المتوسط وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة إلى الحبشة في إفريقيـة .

والرأي الغالب أن الهجرة تتبع طريقها من جنوب الجزيرة إلى شرقها في محاذة البحر الهنـدي فالخليج الفارسي فنهر الفرات إلى أقصاه شمالاً ، ويرتفع بعض المؤرخين بأول فوج من أفواج الهجرة العربية إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، ثم تتابعت الأفواج من هذا الطريق إلى ما بعد التاريخ .

فالأشوريون والأكاديـون والبابليـون والكلـدانيـون هم أفواج متلاحقة على فرات متباعدة تراوح الفترة منها بين ستةـمائة سنة وألف سنة ، وأقدمها ما أقام في الشمال ، لأن الأقاليم الشمالية في وادي النهرين كانت أخصب الأقاليم وأصلحتها للزراعة والمراعـى خلافاً لأقاليم الجنوب التي كانت مغمورة بماء البحر الملـح وظلـت كذلك زمناً طويلاً قبل أن ينحصر عنها الماء وتصلـح فيها الأرض للسكن والزراعة . فلما انحصر عنها الماء أصبحـت أعمـر الجـهـات في وادي النهرين ، لقيام المدن على شواطئـها ووفرةـالمواردـفيـها من التجارة والزراعة .

ومن شمال العراق ، كانت قبائل المهاجريـن الأوائل تـنـحدـر إلى بـادـيـة الشـام وإلى شـواـطـىءـالـبـحـرـالـأـبـيـضـالـمـوـسـطـعـلـىـمـقـرـبةـمـنـصـحـرـاءـسـيـنـاءـ.

فالقبائل العربية التي أقامت في فلسطين من شمالـها إلى جنوبـها إنما قدمـتـإـلـيـهاـعـلـىـالـأـكـثـرـمـنـالـشـرـقـلـاـمـنـالـجـنـوبـ،ـوـلـمـيـظـهـرـلـنـاـمـنـالـآـثـارـمـاـيـدـلـعـلـهـجـرـةـكـبـيرـةـمـنـطـرـيقـالـحـجـازـشـواـطـىـءـالـبـحـرـالـأـبـيـضـقـبـلـالـدـعـوـةـالـإـسـلـامـيـةـ.

وسبب ذلك أن الحجاز - كما هو معلوم - واد غير ذي زرع ، فلم يكن فيه من السكان من يزحفون في حشد كبير لغز البلاد الشمالية ، وكان معظم الرحلة فيه للتجارة مع القوافل التي تذهب وتعود ، ولا يبقى منها في الشمال إلا العدد القليل ، ولكنه مع هذا كان طریقاً غير منقطع من طرق التجارة القدیمة . لأن سلوك القوافل بين اليمن والعقبة على طريق البر أیسر من سلوكها بحراً مع قلة السفن واعتماد العرب في أسفارهم على الجمل الذي سموه بمن سفينة الصحراء .

وربما حدث مرات أن يوغل العرب الشماليون جنوباً كلما ضاقت بهم مساكنهم أيام المغرين عليهم أو حاقت بهم نكبة من الزلازل والصواعق وهي كثيرة في تلك البقاع ، كما ظهر من آثارها الباقة إلى هذه الأيام ..

ولهذا يعتقد المؤرخون أن اليمن هي مصدر العربية الأول ، ويلاقى هنا رأى المؤرخين المحدثين ورأى المؤرخين الأقدمين من أهل الحجاز ، إذ كانوا يقولون أن العرب العاربة هم أهل اليمن ، ثم يلهمون العرب المستعربون ..

ولكن هذا الترتيب إذا صحي من حيث النسب لا يصح من حيث الارتقاء باللغة العربية ، فإن اللغة العربية الأولى في اليمن لم تبلغ من الصدق والفصاحة وانتظام القواعد ما يلعته لغة الحجاز ، فهي نهاية الدورة بعد مطاف اللغة العربية من أقصى الجنوب في شبه الجزيرة إلى أقصى الشمال في العراق ، إلى الرقعة الوسطى بين العراق والبحر الأبيض المتوسط ، وهي لا تزال تتسع وتتهجد في كل مرحلة من مراحل المطاف ..

على أن البقايا التي تختلف منذ عشرات القرون قبل الميلاد لا تدع مجالاً للشك في وحدة اللغة بين الأمم العربية في شبه الجزيرة العربية وفي أرض الملال الخصيب ، ويقول ألبرایت Albright في كتابه عن أحافير فلسطين<sup>(١)</sup> .

«إن اللغات السامية المشهورة في القدم هي الأكادية - الأشورية - البابلية - والسامية الشرقية والسامية الغربية ، وتنقسم هذه إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أي المعينة والسببية والأثيوبيّة ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث ، وكل تقسيم من

هذه التصنيفات فإنما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه أقل جداً من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التي درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير ، إذ أن اللغات السامية القديمة - عدا الأكادية - تقارب في الأجرودية والنطق بحيث تشارك كل لهجة وما جاورها ولا يلاحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلاحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية .. ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع ألف الثانية قبل الميلاد لم يكبد الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة في هذه الأيام ، ولم تكن الأكادية نفسها منفصلة عن سائر اللغات السامية الغربية أكثر من الانفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين» .

ويقر علماء المقارنة الدينية مثل هذا عن التقارب بين عبادات العرب الأولين . فيقول الأستاذ أندرسون في مجموعة العهد القديم والدراسات العصرية<sup>(٢)</sup> : «إن الله الكعنائين الأعلى - إيل - يعبد بأسماء متعددة بين الساميين الغربيين ، ويعرف باسم شدائ ، وايل عليون ، وسام ، وصادق ، وحداد ، ويرى الخليل Engenell أن اسم يهوا واحد من هذه الأسماء كان مهملاً على عهد موسى فأحياء موسى بدعوته ، ثم امترج اسم يهوا بالصيغة الأخرى ولا سيما صيغة إيل عليون في أورشليم وتم هذا الامتراج بسهولة لأنها عنوان على إله واحد» ..

ثم قال : إن الوحدانية التي كانوا يدركونها في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها كانت وحدانية تغلب لرب من الأرباب على سائر الأرباب ..

ويقول بول Woolley صاحب أهم المباحث في تاريخ إبراهيم : «إنه من المحتمل جداً ، وإن لم يكن ثابتاً ثبوت اليقين - أن اسم يهوا كان معروفاً عند بعض قبائل سوريا الشمالية قبل زمان موسى بعهد طويل»<sup>(٣)</sup> .

والظاهر أنهم كانوا إلى الزمن الذي كتب فيه المزמור الخامس والثلاثون بعد المائة من المزامير المنسوبة إلى داود ، يصفون يهوا بأنه «فرق جميع الآلهة» ..

والظاهر كذلك أنهم كانوا إلى ما بعد خروجهم من مصر لا يرعنون أنهم هم يهواون

على القبائل الأخرى ، بل يخطر لهم كما جاء في الإصلاح الأول من سفر التثنية أن الرب «بغضه» لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم إلى أيدي الشتنة أن الرب «بغضه» لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم إلى أيدي العموريين ويلكلهم على أيديهم» .

وظاهر كذلك أن وحدة الأصل واللغة كانت توقع اللبس في تسمية القبيلة الواحدة أو الشعب الواحد ، فتسخن اليهوا من العهد القديم تسمى سكان غرب الأردن بالكتعنائين ، ونسخة الوهم كانت تسميهما بالعموريين كما يرى من مراجعة الإصلاح الأول من سفر القضاة .

ويعنينا في هذا الفصل أن نبرز هذا التشابه في السلالة العربية منذ أقدم العصور التاريخية ، فلم نعثر في مصدر واحد على خبر يفهم منه أن إبراهيم التقى بمن يعارض عقيدته الإلهية بعد خروجه من موطنها الأول ، وقد كانت في طريقه عبادات محلية مختلفة وأرباب محليون مختلفون ، وشأن هؤلاء كشأن الأولياء والقديسين الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة في الأمم التي تؤمن بالوحدانية ، فأبناء الجهة يفضلون أولياءهم وقدسيهم وقد يتحولون من جهتهم إلى جهة أخرى فلا ينكرون التشفع بالأولياء والقديسين في الجهة التي تحولوا إليها ، لأنهم أصحاب الحق فيها . أما العقيدة الإلهية فهي واحدة أو متقاربة ، ولو لا ذلك لما كان الخليل عليه السلام يوقر ملكي صادق ويقدم قريانه للإله عليهم كما روى سفر التكوين ..

إنما اشتد الخلاف الديني وخلاف العصبية بين أبناء هذه الشعوب عندما وقر في أذهان طائفة من العبريين أنهم هم وحدهم ذرية إبراهيم الخاتمة ، وكانت دعواهم هذه طارئة لم يسمع بها إلا بعد أيام موسى بمئات السنين ، وفي هذا يقول سفر التثنية : «أنتم مارون بتخ إخوتكم بني عيسو الساكنتين في سعير ، فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأنني أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم . ولعيسو قد أعطيت جيل سعير ميراثا .. طعاما تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا .. ومتى قربت إلى تجاه بني عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم لأنني أعطيك من أرض بني عمون ميراثا ، ولبني لوط قد أعطيتها وهي أيضا تحسب أرض رفائيلين ،

سكنوها قبلا .. لكن العمونيين يدعونهم زرميين : شعب كبير وكثير وطويل كالعناقين أبادهم الرب من قدامهم فطردوهم وسكنوا مكانهم إلى هذا اليوم ... .

هكذا كانت حال الشعوب المتفرعة على الأصول العربية ، ولكنها لم تكن وحدتها في بقاع الهلال الخصيب أو بين البحرين ، إذ كانت هذه البقاع مفتوحة للواردين من الشرق والغرب والشمال ، وما حدث في عهود التاريخ المعلوم قد حدث مثله في العهود التي لم يدركها التاريخ فقد نزح قوم من الشرق يدعون بالسومريين ، وأناس من الغرب يدعون بالحيثين ، وأناس من الشمال مجاهلون يسمون المؤرخون تارة من السومريين وتارة من الحيثين ..

فالسومريون في الغالب من أصل مغولي ، وسواء ثبت أنهم من المغول أو ثبت غير ذلك ، فالأمر الذي لا شك فيه أنهم من غير الساميين أو السلالة العربية ، لأنهم كانوا يتكلمون لغة غروية Agglutinative بعيدة جداً في أصولها وقواعدها من اللغات السامية الاشتراكية ومنها العربية Inflectional .

ومن المقابلة بين صورهم وتماثيلهم وبين الصور والتماثيل العربية في أرض بابل وغيرها يندو الفرق واضحاً بين الملامع والقسمات ، فضلاً عن الفروق البعيدة في الطبائع والعادات ، ولكنهم لم يعرفوا باسم غير الاسم الذي أطلقه عليهم العرب الأقدمون ، وهو اسم السومريين أي سر الرؤوس كما جاء في وصفهم على الآثار .

والحيثيون على الأغلب آريون قدمو من الشرق إلى آسيا الصغرى قبل فجر التاريخ ، ولا بد أن يكون مقدمهم إلى آسيا الصغرى بعد احتلال الساميين للهلال الخصيب بقوة لم يستطع الحيثيون أن يتغلبوا عليها ، وإلا لما تجاوزوا هذه البقاع الخصبة إلى ما رواها .

ويذهب أناس من المؤرخين الحديثين إلى أن العموريين أيضاً من الأقوام التي لا تنتمي إلى سلالة سامية عربية ، ومن هؤلاء المؤرخين العلامة سايس Sayce المشهور .. وحجته في ذلك أن صورهم على معبد رمسيس تختلف في اللون والقامة صور الأقوام الأخرى من أبناء آسيا الغربية ، وهي حجة لا تنفي وحدتها أمام اللغة وانقطاع الصلة بينهم وبين كل قطر من الأقطار التي يفرض الفارضون أنهم قدمو منها ، ولا يعقل أنهم

قدموا من أوربة عن طريق أفريقية وهي حالية ثم اختاروا بقاع فلسطين وسورية دون غيرها ، ولا يعقل كذلك أنهم حاربوا أبناء البلاد التي وقعت في طريقهم وتغلبوا عليهم واجتازوهم دون أن يسلبواهم أرضهم ويستقرروا فيها ، وليس أقرب إلى التقدير الصحيح من مجئهم في زمن قديم من الشرق عند وادي الفرات ، ولعلهم ينتهيون إلى الأرض المعروفة باسم (امرو) هناك ، ولا اعتداد بلون البشرة أو طول القامة ، فلم يثبت قط أن الجو العربي منذ الأزلمنة الحالية كان يستلزم السمرة والقصر ، ولم ينزل بين أجناس الجنوب عمالقة غير العموريين .

ذلك يجعل الحال من حيث السكان في بلاد النهرين والهلال الخصيب ، فمن شرق الدجلة إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط عشائر عربية تقيم وتترحل وينافس بعضها بعضا على المرعى والمورد كلما ضاقت بها البقاع أو جاءها من الجنوب وارد جديد .

وكان السلطان الأكبر على هذه العشائر للدولة التي تقوم في العراق ، سواء كانت دولة الأشوريين أو الأكاديين أو البابليين ، أو كانت دولة السومريين قبل هؤلاء آجمعين .. لأن هذه العشائر تقيم وتترحل في بقاع لا تفصل عن بقاع النهرين ، وربما دخل بعض البقاع في حوزة مصر وتولاها حكام من قبل فرعون ، وربما اقتدى بعض العشائر بالمصريين في العادات والعبادات ، وربما انتقل بعضهم إلى مصر مرتددين أو متجررين فاقتبسوا كذلك من عاداتها وعبادتها ، ولكن وحدة اللغة ووحدة المكان ووحدة العادات كانت هي الغالبة على طول الزمن ، وهذا كان الولاية المصريون على آسيا الغربية يكتبون إلى فرعون بالخط المسماوي وعلى ألواح الطين المطبوخ ، كما كان يكتب البابليون والأشوريون ..

وحدث غير مرة أيام ضعف الدول أن تجبرى العشائر القوية عليها فنهرمتها وتنشئ فيها دولتها : حدث هذا من العموريين والعيلاميين في وادي الفرات ، وحدث من الرعاة الذين اشتروا باسم الهكسوس في وادي النيل ، ويرتبط تاريخ الخليل كالي بقيام هذه الدول وانتقال هذه العشائر من أماكنها كلما قامت لإحداثها دولة مستقرة في الحواضر والعواصم ، وهجرة إبراهيم على اتصال وثيق بالزراعة التي تشاوحتها من تبدل النظم

وتبدل العبادات والكهانات وحلول الجديد منها محل القديم ، مع المساومة والمصالحة بين النظام المُقبل المعهول به والنظام المدير المهجور ..

ولكنا على كثرة الأحافير لا نجد بينها خيرا يعين لنا التاريخ في حادث من الحوادث تعيين الجزم واليقين . ولم يهدى المقربون إلى تاريخ منها إلا على وجه التقرير ، وبعد الموازنة والترجيح .

وعلة ذلك أن الدول الكبرى في تلك العهود لم تكن موحدة الحكومات ، بل كانت منقسمة موزعة يتولاها في الوقت الواحد ثلاثة أو أربعة أو أكثر من ذلك ، فإذا حاول المنقب أن يضع لهم ترتيباً متعاقباً لم يثبت أن ينكشف له من محفورات جديدة أنهم كانوا في عصر واحد ، ومن الأمثلة ومن الأمثلة الكثيرة على هذا أن المقربين كانوا يعيّنون سنة ١٩٤٠ قبل الميلاد لحكم حمورابي ثم انكشفت أحافير (مارى) للأستاذ أندريل باروت André Parrot قدموها قرناً كاملاً إلى نحو سنة ١٨٤٠ لأنهم وجدوا ملوكاً معاصرین له وكانتوا يحسبونهم سابقين له في موطنـه .

وفي مصر كان المظنون أن ترتيب الأسر متعاقب ، ثم ظهر من النقوش المتواقة في الزمن أن الأسر الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة حكمت في عصر واحد بين أقاليم الوجه البحري والصعيد ، وأن الإصلاحات التي تمت في إقليم الشلال لم تكن من عمل المكسوس المعاصرين ، وأن من هؤلاء المكسوس من كان يرسل الهدايا والإتاوات إلى ملوك الصعيد .. ويقول المؤرخ بترى Petrie أن الصورة التي على معبد بنى حسن هي صورة رئيس من المكسوس ، وأن الكلمة مرتبة من هيك يعنى أمير ومن شو اسم القبيلة ، وأنه يضاهي اسم (حيان أو ش) المنقوش بين أسماء الملوك الشماليين على معبد تحتمس الثالث بالكرنك وأسم حيان هذا خليق أن يقف عنده القاريء ، لأنه قريب من اسم ريان الذي حسبه مؤرخو العرب الأقدمين بين أسماء ملوك الرعاعة ، ونتيجة هذا التداخل في أزمنة الأسر الحاكمة أن يتبين الأمر على المؤرخ عند تعين أوقات الحوادث وتعيين اسم الأمير الذي تسبـ إليه ، وقد مضى زمان على المكسوس في الوجه البحري وهم رواد يطلبون المراعي والضيافة ولا يجسرون على المنازعـة في الملك ، فإذا وجدت لهم آثار سابقة لعصر دولتهم فلا يلزم من ذلك تعديل

تاریخ الدولة ، لأن دخول الهكسوس إلى مصر للمرعى والرحلة من مكان إلى مكان غير دخولهم بجماعتهم وجنودهم للسيطرة وإقامة الملك بأسمائهم ، وكل ما يدل عليه السماح لهم بالدخول وإهمال الخليفة في أمرهم أن فراعنة الصعيد كانوا يومئذ في شاغل بالنزاع عن الخليفة والتحصين .

ولا داعي كذلك لتخطئة المؤرخين الذين نسبوا في فلسطين ، فعينوا للهكسوس تاريحا غير تاریخ دولتهم بالديار المصرية ، فإن زحف الهكسوس على جنوب فلسطين سابق بالبداية لقيام دولتهم بالوجه البحري من أرض مصر . فالمقيبون في مدينة أريحا علموا من بقاياها أنها خربت بالزلزال وقد اندفعت البراكين ثلاثة مرات ، وعلموا من أساليب البناء ونقش الفخار وأثر التحلل على المسوجات في طبقات الأرض متى كان الموعد المقارب لكل كارثة من هذه الكوارث . وفي الدور الثالث وجدوا مقابر للهكسوس واستطاعوا أن يعيروا وقتاً لوجودهم بأرض كنعان حوالي سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وعلموا أن أمير (أريحا) تواطأ مع الهكسوس على غزو مصر وأن هؤلاء أقاموا معه موظفاً يسمونه كاتب الوزير للرقابة على البواخر وخزائن الغلال ، وأن الفترة كانت فترة اضمحلال وهزال أصاب الدول في مصر والعراق وشجع الرعاة والقبائل الرحيل على غزوها وتوطيد أقدامهم فيها فكان هجوم الهكسوس على مصر معاصرًا لهجوم قبائل البدو من عيلام وعمور على بابل ، وكانت الأرض التي في طريق مصر موزعة بين العمالقة الحيثيين والبيوسين والعموريين ، وليس بينهم ذكر للعبرانيين ..

إلا أن المقيبين الذين عينوا زمناً للهكسوس حوالي سنة ١٧٥٠ لم يعرفوا من هم هؤلاء الهكسوس<sup>(٤)</sup> على وجه التحقيق ولكنهم استخلصوا من «خط السيرة» الذي أتبعوه بعد خروجهم من مصر منهزمين أنهم عادوا إلى مواطنهم في شمال سوريا ، وأنهم على الأرجح مرجع قديم من الآراميين والحيثيين ، ولم يطل مقامهم بمصر أكثر من قرن ونصف قرن ، ثم تعقبهم المصريون ودمروا المدن التي تواطأت معهم على غزو الديار المصرية ، ومنها أريحا ، وقد وجد المقيبون فيها بين الفصوص الكثيرة فص خاتم باسم خاميس أو أحمس قاهر الهكسوس .

(٤) كتاب قدمة أريحا للأستاذ جارستن ج. Garstang.

إلى هذا التاريخ لم يكن للعبيرين الذين يسمون أنفسهم بأبناء إسرائيل أى أثر بين القبائل التي في طريق مصر ، ولم يذكر لهم اسم في أثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٠ قبل الميلاد .

في هذا الأثر يروى الفرعون مرتقاً خبر حملته التأديبية على عسقلان وجزير ويوانام وإسرائيل ، ويقول أنه مما إسرائيل فلم تبق منها باقية ، ويفيد خبره هذا أن النصب الذي أقيم بعد ذلك مسجلًا لانتصار رمسيس الثالث على العموريين والفلسطينيين والحيشيين سنة ١١٩٠ قبل الميلاد ، ولم يرد فيه ذكر لإسرائيل .

وعصر إبراهيم قبل هذه الفترة على التحقيق ، فمن القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لم يكن لإبراهيم وذراته مقام في غير الجنوب عند جিزار أو وراءها جنوبا ، ولم يكن لإبراهيم مقام في حبرون ، وهذا يرجح الدكتور (كاميل) أن إبراهيم لم يدفن في مغارة مكفييل بحبرون على مقربة من أورشليم ولكن الذين انتسبوا إليه تعلقوا بذلكى هذا المدفن لتسويغ دعواهم في مملكتهم ، ولا بد هنا من إبراهيمين أحدهما جاء بعد الآخر بزمن طويل .

ويذهب الدكتور كاميل بعيداً جداً في هذا الفرض . فيشير إلى ورود اسم إبراما في الآثار البابلية . وقد ورد في خلال قصة زراعية حيث قيل : إن إبراما استأجر ثوراً للزراعة من أحد الفلاحين ، ولا شأن لإبراما هذا بسيرة الملئيل .. ولكن الدكتور كاميل يسرد أسماء أخرى في الأحاديث قريبة من هذا الاشتقاء ، ومنها «ابراهام» ، وهو على رأى الدكتور قد يكون أمر مرامي الذي هو أموراني يعنيه . وهو لا شك جد من جدود العموريين الذين ملكوا بابل ، وكانت منهم شعبة تملك بيت المقدس وحبرون بجوارها ، فلما امتنع العموريون والعربون ، واشتركوا في العبادة وفي السيادة صعد العربون بنسائهم إلى جد مدفون في حبرون يسمى إبرام وذكروا أن قبره مشتري بالمال من ملوك الأرض<sup>(٥)</sup> الأصلاء ، فليس في دفعه ثمة عدوان ولا ادعاء .

وقصة الإبراهيمين قد لها إليها كاتب منقب لا يغلو في فروضه على هذا المثال ، وهو السير ليونار صاحب كتاب إبراهام والكشف الأخرية ، فقد رجع أن إبراهام غير إبرام ، وقال أن تسمية الحفيد باسم الجد كانت مألوفة جداً في البلاد البابلية كما يظهر من مقابلة أسماء الملوك من أسرة واحدة ، فإذا كان لإبراهيم جد باسم إبرام جاء في كثير من الروايات للأقرب إلى المؤلف أن المتأخرین بعد عصره جمعوا بين أخبار الاثنين ، ووصلوا عمر أحدهما بعمر الآخر فبلغوا بهما مائة وخمساً وسبعين سنة ..

وغير بعيد أن يكون العربيون المتأخرون قد تكلموا عن إبراهيمين لا عن إبراهيم واحد ، فهذا التاريخ الغامض قد زاده اختلاطاً على اختلاط دعوى الطائفة العربية التي تتنسب إلى إبراهيم أنها ذريته التي تركه في الأرض والسماء ، وأنها ورثت أرض فلسطين من أيام إبراهيم مع أنهم كانوا إلى أيام موسى يشترون المرعى والمورد فيها بالفضة ، ولم يستطعوا أن يدخلوا فلسطين إلا بعد ضعف العموريين والحيثيين والمكسوس .

ومن حقائق التاريخ المطردة أن الملك هو بلاء القبائل الرحل فلما ملك الحيثيون والمكسوس ضاعوا واندحروا ، ولما هجم العموريون على بابل فملكتها ضاعوا واندحروا في بابل وفي بيت المقدس ، ولما دخل العربيون أنفسهم بيت المقدس وملكوا فيها ضاعوا واندحروا وساق<sup>(١)</sup> بهم ما حاقد بالقبائل الأولى ..

فالمملک هو نهاية كل قبيلة من تلك القبائل ، وقد ظلت كلها قبائل نامية إلى أن ملکت ، فانتهت بذلك إلى دورها الأخير .

وعلى هذه السنة عاش العموريون والكتناعيون والحيثيون ، وعاش معهم العربيون قلة ضعيفة إلى أقصى الجنوب من تلك البقاع ، فكان وطن إبراهيم عند سيناء وشمال الحجاز ، وكان الجنوب مفتوحاً له وأيسر له من الشمال ، حيث تحول القبائل التي بلغ من قوتها أن تغير إحداها على بابل وتغير الأخرى على مصر ، فأيسر من إجلاثها عن أرضها أن يبقى حيث هو أو يمتن في الجنوب ويستقبل الحجاز ، وعبرة التاريخ هنا أن المتحدلقين الذين خطر لهم أن ذهاب إبراهيم إلى الحجاز أعنجهة ملقة بیرون بالنظر الصادق أنها هي التقدير الصحيح ، وأن الأعنجهة هي اتجاهه من الجنوب إلى الشمال .

<sup>(١)</sup> ساق . حاقد بالتشيء : أحاجي به ، وبهم العذاب نزل وأحاط .

## اللغة

ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم أن إبراهيم عليه السلام كان عربا ، وأنه كان يتكلم اللغة العربية .

ولكنها الحقيقة التاريخية التي لا تحتاج إلى فرض غريب أو تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه ، وإنما الفرض الغريب أن يحيد المؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب إبراهيم إلى قوم غير قومه الذين هو منهم في الصميم ..

وليس معنى هذا بالبداوة أنه كان يتكلّم العربية التي نكتبها اليوم أو نقرأها في كلام الشعراء الجاهلين ومن عاصرهم من العرب الأقدمين ، فلم يكن في العالم أحد يتكلّم هذه اللغة في عصر إبراهيم ولا في العصور اللاحقة به إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد ..

إنما اللغة العربية المقصودة هي لغة الأقوام التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها وإليها في تلك الحقبة ، وقد كانت لغة واحدة من اليمن إلى مشارف العراق والشام ونحو فلسطين وسيناء .

ولقد عرفت تلك اللغة حينا باسم اللغة السريانية غلطا من اليونان في التسمية ، لأنهم أطلقوا اسم أشورية أو أسورية على الشام الشمالية ، فشاعت تسمية العربية باسم السوريانية والسريانية من المكان الذي أقامت فيه بعض قبائل العرب الوافدة من شبه الجزيرة منذ أقدم العصور ، قبل عصر إبراهيم بزمن طويل ..

واشتملت هذه اللغة السريانية في بعض الأزمنة على عدة لغات لا تختلف فيما بينها إلا كما اختلفت لهجات القبائل العربية قبل الدعوة الإسلامية ، ومن هذه اللغات لغة آرام وكنعان وأدوم ومواب ومديان وما جاورها في الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء . وربما كانت المفاجأة أشد على من يسمع أن الخليل لم يكن عربيا من العربين ..

فقد مضى زمن طويل والناس يفهمون أن العبرية واليهودية كلمتان بمعنى واحد ،  
ولم تكن اليهودية قط مرادفة للعربية في معنى صحيح .

فالعبرية في نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحل في صحراء الشام ، وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالمجنود المرتزقة هنا وهناك حسب الواقع والمناسبات ، وبهذا المعنى وردت الكلمة العبرى والإبرى والهبرى وما قاربها لفظا في أحافير وتل العمارنة وفلسطين وأسيا الصغرى والعراق ، وجاءت بهذا المعنى في الكتابات المسماوية والفرعونية ولم يكن للיהודים وجود في ذلك الحين ..

ولما وجد اليهود واتسروا إلى إسرائيل كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية : إنها لغة كنعان ، ثم انتوت العبرية في الآرامية التي غلبت على القبائل جميرا بين فلسطين والعراق مع اختلاف يسير بين الآرامية الشرقية والآرامية الغربية ..

وأصبحت العبرية لهجة تختلف ببنطق بعض الحروف ، كما تختلف القبائل ببنطق الشين والكاف أو نطق الميم واللام إلى هذه الأيام .

ففي الإصحاح الثاني عشر من سفر القضاة يقول : «كان رجال جلعاد يقولون له : أنت من إفرaim ؟ فإن قال لا . كانوا يقولون له : قل شبولث فيقول سبولث . فكانوا يأخذونه ويدبحونه» .

ولما كشف حجر موآب المشهور<sup>(١)</sup> وجدت الكتابة عليه قرينة جدا من العبرية ، وهو يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

وقد أقام هذا الحجر ملك موآب ميسا بن شموس ، وقال فيه أن الإله شموس (أى الشمس) نصره على الله إسرائيل ، وأنه بنى هيكل بعل معون ، وذكر (اشتار شموس) في موضع آخر كما قال : إنه جر محاريب (بيهار) أيام ربه المعيد ، وكان هذا الرب راضيا عنه بعد جفاء وعقاب وظهور من أحافير اليمن والشام وفلسطين أن أسماء الإله واحدة في جميع هذه البلاد ، ففي كلامها اسم بعل والرب وإيل وصادق بمعنى

(١) كشفه «كلين» الألماني سنة ١٨٦٨ .

المعطى الوهاب ، ومن هذا التشابه اسم ملكي صادق في فلسطين واسم بعل صادق في معين وحضرموت .

ومن أقوى الأشياء دلالة على العلاقة بين إبراهيم والهجاز أن اسم بعل يطلق كثيراً على الإله في ديانات جميع القبائل ما عدا القبائل التي دانت بدعة إبراهيم وخلفائه ، فإن إطلاق اسم البعل على الإله مكرر فيها لا يذكرون إلا عرضاً في تركيب الأسماء التي يتوارثها الناس بغير نظر إلى معناها ، وقد ورد اسم البعل في ديانات الجزيرة العربية ما عدا ديانة الكعبة أو ديانة الحجاز ، ومن قال : إن اسم (هبل) تصحيف لاسم (يهوا بعل) لم يستند إلى دليل ولا قرينة معقولة . إذ لا معنى لتصحيف الكلمة في اسم الصنم مع وجودها في اللغة بمعنى السيد أو الزوج إلى اليوم ، ولو كانت الكلمة منسية لما كان بالتصحيف من غرابة ، وأما وهي مفهومة معروفة فتصحيفها في اسم صنم معبد غير معقول ، وأبعد من هذا القول أن يقال أن (هبل) منحوت من كلمة يهوا وكلمة بعل فإن الدعوة إلى يهوا تناقض الدعوة إلى بعل ، ومن آمن بهذا لم يؤمن بذلك .. إلا أن يقال أن اسم (يهوا) مأخوذ من لغة العربية الحجازية أو الجنوية ، وينبغي لمن يقول هذا أن يستشهد بأمثلة لوجود الكلمة مفردة ومترنة يدخل في أثر ثابت ، وليس لهذا الأثر وجود ..

ويرجح بعضهم أن اسم إبرام يتألف من أب ورام ، وأن رام هنا يعني أحب ، فاسم إبرام إذن يعني محبوب الله ، وهو وصف يوافق تلقينه بخليل الله ، ويستبعد مرجليوت<sup>(٢)</sup> أن تكون (رام) من مادة الرفعة كالaramaة التي تطلق على القرية في البناء العالى ، وتجمع على رام كاتجتمع ساعة على ساع وحالة على حال وحانة على حان .

وينقل مرجليوت عن جلizer Glaser أن الملك الحميري شرحبيل يغور ذكر اسم الله في الحجر المنقوش على سد مأرب فسماه «بعل السمائين والأرضين» وأنهم عرفوا التوحيد في منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينقل عن دسو Dussaud أن الأحافير النبطية التي ترجع إلى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الآرامية والعربية الفصحى ..

(٢) رسالته في مطبوعات الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٢٤ .

وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيراً بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفي سنة قبل الميلاد . فإن أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفي والنفي وتصريف الأفعال مشتركة في اللغة العربية واللغة الآشورية التي تسبّب إليها السريانية كما تقدم ..

وهذا التقارب هو الذي أوحى إلى الأستاذ دويري أن يترجم اسم (دمقى اليشو) بحبب الله من المقة بمعنى الحب والإيل بمعنى الله وضمير الإضافة ، وجاء فلي فظن أن هذا الاسم يطابق في الزمن والصفة اسم الخليل إبراهيم ، وإن الخليل كان ملكاً من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليع الفارسي لأن الأقوال متواترة بمقام الخليل هناك في أور الكلدانين ، ولأن اسم (دمقى اليشو) ورد في الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطئ أو ملوك الأرض البحريّة<sup>(٣)</sup> وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات .

وهذا التقارب في اللغة والكتابة يفضّل بنا - فيما نعتقد - خلافاً شديداً دخل فيه المهاجرون للإسلام والمدافعون عنه حول نسب الخليل إبراهيم واسم أبيه ..

فقد جاء في القرآن الكريم «إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ آزْرَ ..» فاتخذ المهاجرون للإسلام من ذلك دليلاً على الخطأ في تسمية أبي الخليل ، وقالوا : إن اسمه تاريخ كما ورد في العهد القديم .

وجاء بعض المفسرين من المسلمين فحاولوا طويلاً أن يجعلوا لكلمة (آزر) موضعاً من الإعراب أو مدلولاً يبطل ذلك الانتقاد ويردون به تخطئة المهاجرين ..

والواقع أن هذه التخطئة لا محل لها عند النظر في أصول الأسماء ، فإن إبراهيم قد انحدر إلى أرض كنعان من أرض أشور ، واعتقد شراح الكتب الإسرائيليّة في غير موضع أن الآباء الأولين كانوا ينسبون إلى بلادهم أو أئمّهم كما يقال عن ابن مصر وابن أوربة وأنباء الشرق وأنباء الغرب وأنباء النيل .

فإذا نسب إبراهيم إلى أشور فمن الجائز جداً أن يكون تاريخ وآزر لفظين مختلفين

لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم علما على رجل أو على الجد القديم الذي تنسب إليه أمة أشور ، وكثيرا ما انتسب القوم إلى اسم جد قديم كما يقال في النسبة إلى عدنان وقططان .

ونظرة واحدة في كتابة اسم أشور ونطقها إلى اليوم في العراق وسوريا تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيدا لأول وهلة .

فقد كتبت أشور تارة أزور وتارة أثور وتارة أثور بالباء وتارة أسور بالسین .. ولا يخفى أن اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة إلى زمن قريب ، وأن الإغريق الذين أطلقوا اسم (أسورية) على وطن إبراهيم من نهر الفرات إلى فلسطين ينطقون الياء الإغريقية بين الواو والياء ، ولهذا تكتب لوبيا بالواو كما تكتب بالياء ، وتنطق سيريه بالياء في اللغات الأوروبية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية .

ولا يخفى كذلك أن كلمة تاريخ تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالباء ..

فإذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أثور واتير إلى تيره وتيرح ، وقد وردت في تاريخ يوسيفوس بغير الحاء ووردت في تاريخ يوسيوس أثور ، وهو مكتوب باليونانية ، وقد ورد في التوراة اسمان يمعن الأميرة أحدهما بالباء وهو سارح (٤٦ تكوين) والأخر بغير الباء وهو سار أو سارة ..

ومؤدى هذا أن (آزر) هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم أسور القديم ، وأن تيره وتيرح هي نطق الذين يكتبونها اتيره وتيرح ، وينطقون بكلمة أثور بين الواو والياء .

روى صاحب (المزهر) عن الأصمي أن رجلين «اختلفا في الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسین ، فtrapضايا بأول وارد عليهما فحكى له ما ها فيه ، فقال : لا أقول كما قلتبا إنما هو الزقر ، وعلى هذا يتخرج جميع ما ورد من التداخلن نحو قل يقل وسلى يسلى» .

وإذا اختلفت الحروف في اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف فلا محل للجزم بالخطيئة حين تختلف السين والزاي أو التاء والثاء في لغات تباعدت بينها الأماد .. وأيا كان القول في نسبة إبراهيم إلى آزر يعني أسور فهو أقرب من القول بأن آباء سمي تارحا من الحزن أو من الكسل ، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاستفاق .

وتفيه هذه الملاحظةفائدة جل في معرض آخر من معارض سيرة الخليل ، فلم يكن تاريخ إبراهيم في الإسلام مستمدًا من المصادر اليهودية كما زعم بعض المسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الإسلامية ، وإنما كان أيسر من تسمية أبيه تارحا أو تيرحا أو تيره وما شابه هذه التصحيفات ، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بازر على أبي توجيه .

ولاعاً هناً بينة من بينات متى على أن دعوة إبراهيم لم تصل إلى الحجاز من مصادر اليهود ..

والبينة الكبرى التي تأتي من مباحث اللغة هي التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة البط او النباتيين الذين ينتهيون إلى نبات من أبناء إسماعيل ..

فقد عقد اللغويون مقارنات كثيرة بين لهجات العربية القديمة التي بقيت إلى ما قبل الإسلام ، ظهر من هذه المقارنات أن التقارب بينها يقاس بالرمان ولا يقاس بالمكان ، فقد يكون الجاران مختلفين غاية الاختلاف ، وقد يكون الشابه قريبا جداً بين طائفتين تسكن إحداهما إلى أقصى الجنوب وتسكن الأخرى إلى أقصى الشمال .

فالحميريون كانوا يقيمون بأقصى الجنوب من الجزيرة العربية ، والأشوريون كانوا يقيمون بأقصى الشمال من العراق ، ولكن الشابه بين لهجة حمير ولهجة أشور أقرب جداً مما بين اللهجة الحميرية واللهجة القرشية بمكة ، والمسافة بين اليمن والجاز أقرب المسافات .

فاللغة الجازية لم تتطور من اللغة اليمانية مباشرة ، وإنما جاء التطور من العربية القديمة إلى الأشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية ، فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من

هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما في الرمان ، أو في درجات التطور ولم يكن تقاربا يقاس بالفراسخ والأميال .

هذه هي البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء إسماعيل ، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسائيين أو فقهاء الإسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التي حفظتها أسانيد اللغة والثقافة واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشف عن المخطوطة .

ومما يدعو إلى احترام روایات النسائيين في هذا الباب أنهم عرفوا الحقيقة التي كشفها علماء الأحافير في الزمن الأخير ، فقال ابن عباس : «نحن معاشر قريش من النبط» .

هذا من جهة الأصل واللغة ، ومن جهة الكتابة يقول الشاعر المتصر ابن المنذر

المديني :

ملوك بين حطى وسعفص في الندى    وهوز أرباب الشنيدة والحجر  
وربما اختلفوا في مسألة الكتابة لأنها طارئة لم يتعلمها منهم غير القليلين . أما النسب  
ومرجعه إلى نبات والنباتيين ، فالتوافق فيه واضح بين روایة النسائيين وتحقيق الأحافير .

## مدن القوافل

أكثر عوامض التاريخ يخلقها المؤرخون ، لأنهم ينظرون إلى التاريخ كأنه حسبة أرقام لإحصاء السنين والأيام ، أو كأنه أطلس موقع ومعالم ، أو كأنه سجل حوادث وأنباء .. ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة ، وهي أنه وصف نفوس إنسانية وأن حوادثه وأنباءه ومعلمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام إما هو تبع لوصف النفوس الإنسانية لما يبقى فيه غموض أو بقى فيه القموض الذي يغمض علينا لسبب مجهول ..

وقد غمض على المؤرخين شيء كثير من أحوال الرسالات النبوية ، لأنهم لم يرقبوا حالة مشتركة في جميع هذه الرسالات ، وهي الحالة النفسية التي تكون عليها الأمم في طور واحد ، وذلك هو طورها حيث تتصل البداوة والحضارة ، فلم تهيا النفوس للرسالة النبوية في حالة قط كما تهيأت لها وهي قائمة بين البداوة والحضارة ، ولم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها أو في الصحراء المعزلة دون غيرها ، وإنما عرفت هذه الرسالات على الدوام في مدينة حولها صحراء ، أو في صحراء على مقربة من مدينة ، ولهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذي يرشحها لقيام الدعوات الدينية ..

لَمْ اخْتُصَّ اللَّهُ أَمْمَ السَّامِيَّةِ. بالرسالات النبوية ؟ لَمْ تظُهُرْ هَذِهِ الرَّسَالَاتِ فِي الْهَنْدِ  
أَوْ فِي الصِّينِ أَوْ فِي الْقَارَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ ؟ لَمْ كَانَتْ هَذِهِ الرَّسَالَاتِ هِيَ الدُّورُ الَّذِي تَهْيَأَتْ  
لَهُ أَمْمَةٌ وَاحِدَةٌ فِي وَسْطِ الْعَالَمِ : أَمْمَةٌ وَسْطَا كَمَا نَعْتَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ؟

تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها ، حتى ننظر في الأحوال النفسية التي يكون عليها الإنسان بين الحضارة والبداوة ، ولا تهيئه لها الحضارة على انفراد ، ولا البداوة على انفراد ، بل لابد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين ، ولم يحدث قط أنهاهما التقى وامتزجا على هذا النحو في غير البلاد التي قامت عليهاحضارات الأولى ، وظلت

زمنا طويلاً جامعة بين الصحراء والمدينة والأقطار المتحضرة ، كأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة ، ثم نهضت بها ونشرتها في جميع أنحاء العالم ، فهي دورها الأكبر بين سائر الأدوار التي توزعتها الأمم والحضارات .

لماذا كانت مدن القوافل أو المدن القرية من الصحراء ، أصلح البلاد للرسالة النبوية ؟

إنها صلحت لذلك لأن الأحوال النفسية التي تتوافر فيها لا تتوافر في حضارة العمران المتصل ولا تتوافر في الصحراء المنعزلة ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة في بيئه أخرى كما تتم في المدينة حولها الصحراء . فاما القطر الذي يتصل عليه العمران فهو مختلف من هذه الناحية ، وأما الصحراء التي تتعزل عن العمران فهي من هذه الناحية مختلفة كذلك ، وسترى أوجه هذا الاختلاف في عرض موجز لمذين الطرفين المتقابلين ثم نعود إلى الوسط الذي يلتقيان لديه .

إن القطر الذي تتصل فيه الحضارة وتتلحق فيه مظاهر العمران يعطينا المشترين والكهان ولا يعطينا الأنبياء المرسلين أو الرسل .

ففي هذا القطر يسري العرف وترتقي العادات الاجتماعية ، ويستقر نظام القانون والمعاملة وقد يتقدم أهله في إدراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم .

بل هو قد يتقدم قبل البداوة إلى إدراك عقيدة الوحدانية ، لأن الدول الكبار تنشأ في مبدأ أمرها من قبيلة تتسلط على قبائل أصغر منها ، ثم يجتمع من القبائل شعب كبير يتسلط على شعوب أصغر منه ، فتقوم دولة الحضارة من امتزاج هذه القبائل والشعوب ، وتتقدم إلى الإيمان بالوحدة كلما اشتركت في عبادة واحدة يفرضها الشعب الذي سادت عبادته على مختلف العبادات .

فالقبيلة القوية تفرض على القبائل الصغيرة أن تطيع ربها كما تفرض عليها أن تطيع أمرها ، ثم يجتمع من هذه القبائل شعب كبير يفرض على الشعوب التي دخلت في حوزته أن تطيع ربها وأن تدين بديانته ، ولا تزال كذلك حتى يتوحد لها رب معبد تدين له جميعاً وتؤمن بووحدانيته وتؤمن بسيادته على جميع الأرباب زماناً ، حتى يصل التعدد ويستقر التوحيد .

إن دولة الحضارة التي تقوم على هذه الأسس قد تسقى البداوة إلى الإيمان بالوحدانية ، ولكن مسألة الدين فيها تؤول إلى سلطان الكهان ، وهم أعداء الأنبياء ، وعداؤهم لهم تتكشف للعيان حتى في الأمم التي تعودت أن تتلقى الرسالات النبوية منذ عهد بعيد .

فلما توطد سلطان الكهنتوت في بني إسرائيل خرج من الكهان أنفسهم من يتباًأ وينكر دعوة النبوة على غير أصحاب الكهانة ، وقال زكريا صاحب آخر كتاب - قبل الأخير - من كتب العهد القديم :

«.. يقول رب الجنود : إنّي أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد ، وأزيل الأنبياء أيضاً والروح النجس من الأرض ويكون إذا تباًأ أحد بعد أن أبوه وأمه - والديه - يقول له : لا تعيش لأنك تكلمت بالكذب باسم الرب ، فيطعنه أبوه وأمه - والداه - عندما يتباًأ ، ولا يلسوون ثوب شعر لأجل الغش ، بل يقول : لست أنا نبياً أنا إنسان فالم الأرض لأن إنساناً اقتنا من صبائ ، فيقول له : ما هذه الجروح في يديك ؟ فيقول : هي التي جرحت بها في بيت أحبابي» .

ويحدث أحياناً أن يتصدى الكاهن للنبي حماية لعرش الملك كما فعل الكاهن أمصيا حين وبخ النبي عاموس وأنذره بالرحيل من بيت إيل : «فأرسل أمصياً كاهن بيت إيل إلى يريماع ملك إسرائيل قائلاً : قد قتل عليك عاموس في وسط بيت إسرائيل لا تقدر الأرض أن تطبق كل أقواله . لأنه هكذا قال عاموس : يوم يرماع بالسيف وسيطر إسرائيل عن أرضه ، فقال أمصياً لعاموس : أيها الرائي اذهب . اهرب إلى أرض يهودا وكل هناك خبراً ، وهناك تباًأ . وأما بيت إيل فلا تعد تباًأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك ، وبيت الملك .

«فأجاب عاموس وقال لأمصياً : لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبي ، بل أنا راع وحالي جميزة فأأخذني الرب من وراء الضأن ، وقال لي الرب : اذهب تباًأ لشعب إسرائيل» .

وقد ينقسم الكهان والأنبياء إلى مسكونين عند الاختلاف على ولادة العهد ، كما حدث عندما وثبت (أدونيا) بن داود لاغتصاب العرش .. «وأعد لنفسه عجلات وفرساناً وخمسين رجلاً يجررون أمامه ، ولم يغضبه أبوه فقط قائلاً : لم فعلت هذا ؟ وهو أيضاً جميل الصرارة جداً . وكان كلامه مع .. أبياثار الكاهن وأما ناثان النبي .. فلم يدعه» .

وحدث في أوقات شتى أن مساومة السياسة وصلت إلى الإيمان بالإله المختار ، فترك الملوك عبادته وعبدوا (البعل) وصنعوا له التماثيل ، فتروج آخاب ملك إسرائيل بنت ملك صيدا (وسار عبد البعل وسجد له وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة ) .

وحدث هذا من أحد أبناء داود .. فلم يستقم آحاز في عيني الرب كداود أبيه «بل سار في طرق ملوك إسرائيل وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعلين»<sup>(١)</sup>.

وكان النبي أرميا يتعين على الأنبياء أنهم يتواطأون على نسيان اسم الله «كما نسى آباءهم اسمى لأجل البعل». واستمرت هذه المساؤمات إلى عهد النبي هوشع الذي تحيل أمة إسرائيل مزفوفة إلى (يهوا) لا تدعوه باسم البعل وتترع أسماء البعلين من فمهما.

حدث هذا بين بنى اسرائيل ولم يطل بهم عهد الملك والاستقرار ولم يزد أكثرهم رعاية يتقلون في الbadia ، ولم يزد من هؤلاء الرعاعة أناس يجهرون بالنبوة بين حين وحين ، فليست دعوة النبوة بالدعوة التي تشيع وتحجذب إليها الأسماع في مواطن الخضارة القديمة بعد استقرار العمران فيها بعاداته وأفاته مئات السنين أو ألف السنين ، وليس بالنادر في هذه المواطن أن يعلم الكهان حقيقة الوحدانية ويترکوا الشعب وشأنه يبعد الأصنام والأرباب المتعددة ويتخذ له في كل إقليم ربا مقصورا عليه ويستبقون إلى الدولة الأكبر لراسم الدولة الكبرى في الأعياد والمواكب التي يشهدها أصحاب التيجان ورؤسائهم الكهان .

وإذا شاع الفساد في مواطن الحضارة فالمسألة في هذه الحالة مسألة تشريع وقانون أو مسألة تنظيم وتدبير ، وربما حالت ألفة العادات الفاسدة دون التنبه لاصلاحها بالتشريع أو بالتنظيم .

وأوضح الأمثلة على موقف الحضارة بالنسبة للدعوات الدينية هو مثل الملك إخناتون بالديار المصرية . فإن دعوة إخناتون بلغت بالتوحيد أعلى مرتباه في تلك العصور ، وبلغت بتنزيه الإله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الأمم في البلاد الشرقية أو الغربية ،

(١) الإصلاح السادس عشر من سفر الملوك الأول .

ولكنها دعوة جاءت من طريق الأوامر والقوانين ، ولم تثبت أن ذهبت بذهاب الملك الذي أصدر تلك الأوامر والقوانين ثم عادت المضمار إلى مجريها كأنها لم تنحرف عنه في عهد الملك الراحل طرفة عين .

فليست بلاد العمران المتصل مهداً صالحاً للرسالة والنبوة ، فما حال الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران كل الانقطاع ؟

إن لم يكن شأنها في أمر الرسالة النبوية شأن العمران المتصل فما هو بأصلح منه ولا أيسر .

فليس في الصحراء التي انقطع ما بينها وبين العمران من شريعة غير شريعة العدوان ، ولا عمل للقبائل فيها غير الإغارة والاستعداد لدفع الغارات من الآخرين . وربما تفاهموا على آداب الجوار والمهادنة كأنها من التدبيرات العملية التي لا ترقى إلى طبقة الفضيلة والعقيدة ، وربما تخل بعض الناس فيها بمناقب الشجاعة والبسخاء وما إليها من مناقب الميادين وشمائل السيادة والرئاسة . أما أن يتعارف المقاتلون المنقطعون عن العمران على الحقوق والفضائل وخلافن الصلاح والاستقامة التي ينشرونها باسم الإله ويستعمون وحيها من نذر السماء فذلك من وراء التخييل فضلاً عن التفكير .

وقد عرفت في البداوة حالات قريبة من عقيدة التوحيد ولكنها لم تعرف حتى كان أصحابها معروفين لأهل العمران في المدن المجاورة ، ولو لا ذلك لما اتصل خبرها بالتاريخ :

فعالة البداوة التي ترشح أصحابها لعقيدة التوحيد هي حالة البدوي المترقب من عبادة الجن والعفاريت الذين يتشارون في كل موطن إلى عبادة رب كريم يرعاه حيث سار وحيث أقام ، فهذه الحالة من البداوة ترشح أصحابها للإيمان بالإله الموجود في كل مكان . لأن الإيمان بـإله «محلى» محصور في مكان واحد عبّت ينفر منه طبعه ولا يلام مطالب عيشه ، ولا يتکفل له بالأمان الذي يتطلع إليه في حله وترحاله ..

وأكبر من أهل البداية الأقدمين من يجمعون بين عقيدة التوحيد وبين الوثنية على نحو يوافقهم في حالي المقام والمصير فيتخذون لهم تماثيل يحملونها معهم ويرمزنون بها إلى الإله ، وقد بقيت هذه التفاصيل عند قبائل بني إسرائيل إلى ما بعد أيام داود عليه

السلام ، وهي التفاصيل التي كانوا يسمونها بالطرافين ويقتنيها أصحاب كل بيت كما يقتنون اللوازم المنزلية ..

ولكن هذا التوحيد كتوحيد أهل الحضارة الذي تقدم ذكره - كلاما لا يخلق الجلو الذى يلام الرسالة النبوية ، ولابد لهذا الجلو من شيء يأخذه من البداوة وشيء يأخذه من الحضارة ، ولم يتحقق ذلك في غير مدينة القافلة وما إليها .

لابد من النخوة الحية التي تتوقف بما تعتقد وتحس في أعماقها أن العقيدة حياة تحياها وليس قصارها أنها تدير من المجتمع أو قانون من الدولة ..

لابد من بساطة التصديق الذي لا يعرف التردد ولا يحسن اللف والدوران وتخرج الكلمات وتزيف الشعائر والأحكام .

لابد من الاستغراق في الإيمان على وجهة واحدة لا تتحمل ولا تتأول ولا تجعل العقيدة أجزاء مفرقة تتوزعها النصوص والفتاوي وتعاونوها<sup>(٢)</sup> المتون والشروح ..

لابد من الجمع بين سهولة التغيير وصعوبة التغيير في وقت واحد ، وهذه خصلة تثير للبداوة ولا تثير في الحضارة ، فليس أكثر من التغيير في حياة البدوى لأنه أبدا على عزم السفر والانتقال ، وليس أكثر من الثبات في حياة البدوى لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ينوط<sup>(٣)</sup> الفخر كله بما بقى له من التراث القديم .  
وهذه هي حصة البداوة في هيئة الجلو للرسالة النبوية .

أما حصة الحضارة فهي أصول الاستقرار وقواعد الشريعة وحماية المعاملة وأسباب السخط والثورة والدعوة إلى التغيير .

وهذه الأسباب موفورة في مدينة القافلة من جوانبها الحسنة ومن جوانبها السيئة على سواء ، وعندها حصتها وافية لقيام الدعوة النبوية في زمان بعد زمان .

فمن الأسباب الحسنة التي تهافت بها مدينة القوافل للرسالة النبوية «شقة الحرام» أو الحرم المقدس ، أى المكان الذى تبطل فيه العادات وينتلاق فيه الناس من كل ملة ونحلة على سلام .

(٢) تعاورها : تعاور القوم الشيء تداولوه وتعاطوه . (٣) ينوط : يملأ .

فهذا الحرم المأمون من مآثرات المدائن المطروقة بمحكم موقعها وتشعب الوارد منها وإليها .

وقد ينشأ مدائن كهذه بين دولتين متناظرتين على عداء دائم لا يهدأ إلا في تلك المدائن المطروقة ، كمدينة تدمر أو بعلبك في موقعها بين دولة القياصرة من الغرب ودولة الأكاسرة من الشرق ، ويقع هؤلاء وهؤلاء أخلاط من كل قوم وكل لغة وكل عقيدة ، وبينهم ما لا بد أن يكون بين هذه الأخلاف من التناقر أو من الخصومة أو من التراث والدخول أو من التزاحم في المصالح والتجارات . فإن لم يكن هنالك ملاذ يأمنه الجميع وحرم يتسع لعبادة كل عابد وولاء كل حاكم ، تقطعت العلاقات وأحجم الوارد وبارت التجارة وكسرت الأسواق .

ومن المدائن ما يقوم في أمة واحدة متفرقة القبائل والبطون بتريض بعضها بعض في كل موقع وكل موسم ، ولا غنى لها عن موقع واحد في موسم معلوم تنسى فيه هذه الفوارق ويتلاقى الناس فيه للمعاملة والمعاونة لا للقتال والانتقام

فهذه الشقة الحرام إحدى الأسباب الحسنة التي تهيا بها المدائن على حافة الصحراء لرعاية الحرمات وفهم القداسة في البيع والمناسك ، وكفى بكلمة «البيعة» نفسها دليلا على فضل المدائن المطروقة في رعاية حرم العبادة من أقدم العصور ، وكفى بكلمة «الاحترام» دليلا على الصلة بين هذه الحرمات وبين شعور التوقير والرعاية .

ومن الأسباب الحسنة تقرير الحقوق وإقامة القواعد في المعاملات وتواضع المختلفين والمختلفين على مبادئ الأخذ والعطاء والذمة والوفاء : وعمل الحاضر للغائب والقريب للبعيد على ثقة واطمئنان .

وليس في وسع أحد أن يزعم أن الحقوق والقواعد التي يتعارف عليها الناس في مدن القوافل تCHAN في كل صفة وتحفظ في كل علاقة فقد يكون الغش فيها أكثر من الصدق ، والخداع فيها أكثر من الأمانة ، ولكنهما على أسوأ الأحوال ملزمة للمشترين فيها لا يجرئ القوى على الجهر بتكرارها والعدوان عليها ، سواء كان العدوان على قوى مثله أو على ضعيف غير مرهوب الذمار .

ومن الأمثلة التاريخية على ذلك حرب الفجار وحلف الفضول في مكة المكرمة ، وهي من أكبر مدن القوائل ومن أعظم المآذج لها في جميع ما ذكرناه ..

ففي حرب الفجار أجاز زعيم من هوازن قافلة للنعمان بن المنذر على غير العرف المتفق عليه ، اعتبرها بعرته ومنتها ومكانة النعمان بن المنذر في الأمم العربية ، فهاجت لها حرب استهات فيها الفريقان حتى شد بعضهم نفسه بالحبل لكيلا يفر من القتال.

وفي حلف الفضول كان سبب الحلف أن رجلاً من زيد قدم مكة بضاعة فاشترتها منه العاصي بن وائل وحبس عنه حقه فاستعان عليه الزبيدي جماعة من الرؤساء فلم يعينوه ، فوقف الرجل على جبل ألى قيس عند طلوع الشمس وصاح يطلب الغوث ، فمن جراء ذلك اجتمع هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جذعان فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكوننْ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ثم مشوا إلى العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه ، وقال أحدهم :

سيعلم من حوالى البيت أنا أباً الضيم ننسى كل عار

وقال ابن قتيبة : إن قريشاً قد سبقها إلى مثل هذا الحلف قبيلة جرهم ، فتحالف منهم ثلاثة هم الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة وفضل بن الحارث ، فسمى لهذا حلف الفضول وجاءت قريش فسمت حلفها بهذا الاسم لأنه مقصود لما قصدته الأحلاف الأولون .

وليس بالقليل ما تعلمه الأئم من إقامة «الحوزة» التي يدين لها الجميع بالرعاية ويتعودون عندها أن يجعلوا الذم والبعود في حماية الإله المعبد ، ومن الجائز أن تعدد الأرباب وتناقض الدعاوى في موطن واحد يجاور فيه كل دير ، نقشه ، قد فتح الأعين على ما وراء ذلك من السخرية والتهافت ، ولا سيما أعين الطارئين العابرين من أهل البدية الدارجين على البساطة واجتناب المتناقضات .

أما الأسباب السبعة التي أوجبت قيام الدعوات النبوية في تلك المدن فهي أسباب قوية كثيرة لم تكن توجد يومئذ في غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ..

وأقوى تلك الأسباب مساوى الاحتياط والاستغلال .. فإن تجارة العالم إذا توقفت

على مدينة هنا ومدينة هناك صارت في كل مدينة إلى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويرعون في أساليب الماسكة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرجال والمطابيا وجند الحراسة ، ويغتصم هؤلاء المحتكرون فرصةهم فيخدعون البسطاء ويحالون على الأصول والشائع ، ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لنقل التجارة لأنهم قابضون على الزمام ، وليس في قدرة دولة أن تخاربهم إلا بالاشتباك في الحرب مع دولة أخرى ، أو بإنفاق أموال في الغزو والمحصار تزيد على الأموال التي يغتصبها والمحتكرون أو يحتلسوها ، وقد يغلو هؤلاء المحتكرون في الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول إلى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات.

كذلك صنع أنتيجون خليفة الإسكندر مع أهم هذه المدن في زمانه وهي سلع (أو البتراء) فجرد عليها حملتين ولم يفلح في غزوها ، وهاجمتها تراجان بقوة كبيرة فدمّرها وتحول الطريق منها إلى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار ،  
واشتهرت سلوم بين هذه المدن بالظلم وسوء المعاملة وسلب الغرباء  
وتسلّس<sup>(٤)</sup> القضاء ، وفي قضاياها يقول المعري :

وأى أمرىء في الناس ألى قاضيا      ولم يمض أحکاما كحكم سلوم  
ومن أمثلة هذا القضاء في احتياله على الشريعة أن رجلا اسمه حضور رأى طارئا  
غريباً أعجبه في رحله بساط ملون فدعاه إلى منزله ليبيت فيه وسرق منه البساط ، فلما  
طلبه الرجل قال له إنك حالم ، وإن تفسير البساط الملون في الرؤيا أنك تزرع أرضا  
ينمو فيها النبت من كل لون ، ثم ساقه إلى القاضي ليعطيه أجره على تفسير رؤياه ،  
فقضى له بالأجر المطلوب ..

ومن أمثلتها أنهم سرقوا العيازير خادم إبراهيم عليه السلام ، فلما أخذ بتلقيهم ضربوه  
ورماه أحدهم بحجر وساقه إلى القاضي يطلب منه أجره على فصده ، ولم يخلصه من  
حكم القاضي إلا أنه ضربه بحجر وأسال دمه ، ثم قال له : إنني نزلت عن أجرى كى  
تعطيه لغريمي !

(٤) تسلّس : دسر الرجل : تكمي عيب الشيء عن الآخر ومنه التسلّس في السلع .

وفي المثنا أسماء يزعمون أن العazar هذا أطلقها على قضاة سلوم وهي شارة أى الكاذب وشقرورة أى المحتال وكذبان أى المزور ومضل دين أى التجانف في دينوته وقضائه ، وليس أكثر من حكايات التدليس التي تروي عنهم في كتب المثنا والمرداش ولا ينسى القارئ أن الجريمة الكبرى التي أحصاها القرآن الكريم على أهل مدين - ومداين الحجر عامة - أنهم يختلسون ويطففون الكيل :

«ولى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تشصوا المكial والميزان إلى أراكم بخير وإلى أخاف عليكم عذاب يوم حيط ويأقوم أوفوا المكial والميزان ولا تخسوا الناس أشياءهم ولا تعثروا في الأرض مفسدين».

ولا يلبث الترف أن يجني جنابته على هؤلاء المحتكرين فيغيرهم بكل مفسدة و يجعل إلى بلادهم كل فاسد ، وشر هذه المفاسد في أعين أبناء الفطرة من قبائل البايدية رذائل الشذوذ وتدنيس غريرة النسل التي تصونها تلك القبائل على فطرتها ، ولم توجد مدينة من مداين القوافل سلمت من هذه الرذائل ، حتى قالت كتب المرداش إن طوفان نوح إنما كان من جرائم هذا الشذوذ في قومه ، وإنما كان فاشيا في بيت المقدس يوم اندر النبي حزقيال قومه بالتنف أو بالسيبي والشرير (٥).

هذه الأسباب جمِيعاً هي التي هيأت مدن القوافل للدعوات الدينية ، لأنها دعوة تهألاً أسبابها بين الحاضرة والبايدية ولا بد لها من التقاء هذه وتلك ، ولا غنى لها عن صفات المدينة وصفات الضحرا . ولحكمة باللغة قال النبي صلوات الله عليه : «امنْ نَبِيٌّ لَا وَقَدْ رَعَى الْغَنْمَ» .. ولحكمة باللغة قامت مدينة القوافل بدورها في تاريخ بنى الإنسان . فنشأ الحكماء والنساك في الصين والهند على مثل كتفشيوس وبوذا ولم ينشأ فيهم الأنبياء المسلمين والرسل المجاهدون . إذ كانت أمانة النبوة المجاهدة شيئاً غير أمانة الإصلاح والتعليم ، و ما عهدنا سورة العقيدة تملأ الوجدان كلها وتشغل الحياة كلها كما عهدها في المسلمين إلى الأمم الذين عاشوا على هذه الرقعة الوسطى من العالم ، وتلقوا عقائدهم كأنهم يصلون الأرض بالسماء صلة اللحم والدم ، ولا يحسونها سمة من سمات الأدب

(٥) صفحة ٢٤٦ من المجلد الأول وصفحة ٤٢٠ من المجلد السادس من أساطير اليهود .

والمعرفة وكفى ، أو نصا من نصوص الشريعة والنظام وحسب ، أو نهجا من مناهج السلوك ولا زيادة

وأحسب لو أتنا بدأنا دراسة التواريχ الدينية في الشرق العربي على ضوء هذه الحقيقة منذ بدأءة النظر في هذه التواريχ لما تسرع المشرعون بالمعنى والإنكار تارة والفهم تارة أخرى ، بل كان من الميسور لهم أن يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة ، وأن يملأوا فراغ التاريخ بما يسعه ، بدلا من خلق الفراغ حيث لا فراغ ..

ان بعض الفلكيين قد عرفوا أماكن الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكرونة ، لأنهم قدروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والأحجام ..

وقد عرف بعض الكيمييين أماكن عناصر لم يشهدوها في الطبيعة ، لأنهم قدروا نسبة الكهارب والتواه فيها إلى العناصر المشهودة .

ولو أتنا تتبعنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتاريخها لما قال المشككون : إن إبراهيم لم يوجد .. بل لقالوا : هنا مكان لإبراهيم لابد أن يُشغل ، واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماها أن يربطوا بين أور وأشور وبيت المقدس وجاشان والبراء ومكة ، لأنها نسق واحد يدل الأخير منه على الأول كما يتقدم الأول منه في زمانه ووضعه على الأخير .. فكلها دعوات لابد فيها من شخص الرسول ولا بد فيها من شخصي المضاربة والبداؤة ، ولا بد فيها من تمام المجزوء ووصل المقطوع واطراد مراحل التطور على نهجه الوحد ، وليس له نهج وحيد أصلح من نهجه الذي هيأته أسباب الدعوات موقعها بعد موقع ، كما تعينت موقع الكواكب في دراسة الفلك ومواقع العناصر في دراسة الكيمياء .

أو لعلنا نصل إلى التبيّحة من درب قريب إذا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقاييسه الذي لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يرسمها الواقع والعقل . فإن هذا المقياس شيء بمقاييس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب ، وما علينا إذا أردنا أن نتحقق حادثة تاريخية ، أو سلسلة من الحوادث التاريخية ، إلا أن نسأل أنفسنا : كيف ينبغي

أى تحدث ؟ فإذا ارتسست لنا على الترتيب الذى يقبله العقل ويطابق الواقع فذلك هو الامتحان الصادق ومانستخلصه منه هو الصواب كاصدق ما يمكن أن يصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدها شهادة العيان

إذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدنىن القواقل وليس أولى من بلاد النهرين في العصر القديم أن تبدأ منها الدعوة الأولى ، ثم تتلوها المدن الأخرى على حسب مكانتها ومكانها من حيث النظر إلى الطرق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة.

فالدول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذى اشتهر في علم السياسة باسم نظام «حكومات المدائن» لأنه يقوم على مدن أربع أو خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التى تزرع مراعاها أو ترعى ماشيتها فى المزارع الطبيعية وتسافر بالقواقل على حسب مراحلها ، ويجوز أن تتغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن إلى فترة قصيرة كما يجوز أن تتفرق وأن تنفرد كل منها بحوكمتها ، ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعور إلى أقصاه في الأزمنة القديمة . وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها في وادى النهرين ، وفي العالم كله : يبدأ من مدينة (أور) في الجنوب ويتهى إلى مدينة أشور شمالا ، ثم يتوجه غربا وجنوبا إلى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز ، حيث تلتقي قواقل الشمال وقوابل الجنوب.

فمدينة (أور) أهم هذه المدائن لأنها تلتقي التجارة من البحر ومن البر وتنقلها من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، كما تنقلها بين الجنوب والشمال .. ويليها في مكانتها ومكانتها مدينة أشور لأنها تأخذ من الجنوب وتتوزع على ماحولها ، وقد تصل قواقلها إلى أقصى الشمال من القارة الأوروبية كما تصل إلى آسيا الصغرى وأوربة الشرقية ..

وفي مدينة (أور) بدأت دعوة إبراهيم ، وإلى مدينة (أشور) انتقلت ولم يطل بها القرار في هذه النقلة العاجلة .

وهنا كان مبدأ الدعوة النبوية التي لم يكن لها نظير في غير هذه البقاع من أوطان الأمم العربية الأولى .

ويطرد الترتيب بزمانه كما يطرد بمكانه ، فمن أشور إلى حسرون أو بيت المقدس ،  
إلى مدن خليج العقبة إلى مدينة الحجاز المقدسة ، وعندما نهاية المطاف ..

جاء في تاريخ مكة قبل أيام إسماعيل أن مضاض بن عمرو كان يعشّر (أى يفرض  
ضرية العشر) على من دخل مكة من ثعالبا ، وأن السيد ع كان يعشّر على من دخل  
مكة من أسفلها .

وجاء في العهد القديم أن الخليل قدم العشر لصاحب بيت المقدس (ملكى صادق)  
لأنه سادن الإله العلي في عرائبه الأعلى .

نظام واحد في مدن القوافل يدل عليه هذان التاريخان المنفصلان ..

وتتوالى الدعوات النبوية بعد ذلك على حسب المكانة بين مدن القوافل ، وعلى حسب  
المكان من بقاع الهملاج الخصيب والجزيرة العربية ..

فلما بدأ تاريخ الدعوة النبوية من أور إلى أشور إلى بيت المقدس إلى مدن الجنوب  
كانت هذه المدن الجنوبية على غايتها من الإزدهار وعلى غايتها من الفساد ، وكان لها  
دورها الذي انتهى بکوارث الزلازل أو المزينة ..

وبقيت شواهدها في خرابتها تنطق بما كان بينها من صلات ومعاملات ..

ففي البراء محاريب الحجارة السود التي تساقطت من السماء ، وفيها هيكل البنت  
أو الربة المصرية «إيزيس» .. وما إيزيس؟ .. أ تكون هي العزى التي عبدت زمانا في  
الجنوب؟

تكون أو لا تكون .. فالرواية الذين أرخوا ظهور الأصنام في الكعبة المقدسة بمكة  
لم يدرسوا الآثار المصرية ولم يدرسوا الأحافير التي درسها العصريون في القرن  
العشرين ، ولكنهم أرخوا الأصنام فقالوا : إن سيد مكة في زمانه (عمر بن الخطب) سافر  
إلى الشام وعاد منها بطاقة من الأصنام ، وإن أبناء إسماعيل بالحجاز تعودوا عبادة  
الأنصاب لأنهم كانوا يحملون معهم الحجارة المقدسة للبرك بها كلما ابتعدوا من الحرم ،  
ثم انتقلوا من البرك بها إلى عبادتها مع طول الزمن ، وكانت روایتهم هذه مصدقة لما

فعله أتباع إبراهيم وموسى وسائر الأنبياء في الأماكن الأخرى ، فهكذا تحولوا من عبادة الإله الواحد إلى عبادة الأنصاب والتعاويذ والتثنيل والطرافين .

\* \* \*

وسواء صح هذا كله أو لم يصح فالصحيح الذي لاشك فيه أن الصلة الدينية والثقافية واللغوية والتجارية لم تقطع قط بين النبطيين والمكين ، وأننا لو سلكنا التاريخي الدينى طردا وعكسا ، ثم سلكتناه عكسا وطردا ، لما كان له من مسلك أقوم وأثبت من بدايته ونهايته بين (أور) في جنوب العراق ومكة في وسط الحجاز !

وإذا كان التاريخ يرسم على هذه الصورة معقولاً وموافقاً للواقع أو ما ينبغي أن يقع ، فلا وجه للشك فيه ، بل الوجه كل الوجه أن نلتمس من طريقه هنا أسباب اليقين .

## النـسـيـوـة

عثر الباحثون في آثار بابل وأشور على كلمات كثيرة في الألواح المسماوية من مصطلحات علم الفلك القديم ، ومنها أسماء المنازل والبروج ومجاميع الكواكب والنجوم وأكثر الباحثين في الآثار البابلية والأشورية معنيون بباحث التوراة وتاريخ الأنبياء ، لعلاقتها بأرض بابل أيام الخليل ثم أيام السبي بعد عصر الخليل بأكثر من ألف سنة ، فهي علاقة تندد من أقدم العصور الأثرية إلى أحدها ، أى من قبل عصر الخليل إلى ما بعد عصر الميلاد.

فعاد الباحثون إلى كتب العهد القديم يعارضون عباراتها على الكلمات المسماوية ولاسيما الكلمات التي تطلق على الشئون السمائية ، فتوقفوا عند كلمات مختلفة كانوا يمرون بها ولا ينتفون معنى فيها غير ظاهر معناها .. وعن بعضهم أن بعض الأنبياء من العبرانيين كانوا على علم بالفلك ، وأن النصوص التي كتبت بها نبوءاتهم ثبت علمهم به على نحو قاطع أو على ترجيح يقرب من اليقين ..

وليس لإبراهيم كا هو معلوم نصوص محفوظة منسوبة إليه ووجدت نبوءات يعقوب فعارضوها على معلوماتهم من اللغة المسماوية ، واختاروا منها ما كان من قبيل الطوالع الفلكية وهي الطوالع التي احتواها الإصلاح التاسع والأربعون من سفر التكوير وفيها يبني يعقوب أبنائه بما يصيّرهم في آخر الأيام ، فتراءى لهم أن التوافق بين ألفاظها ومنازل السماء أوضح من أن يعزى إلى المصادفة ، وهذا هو الإصلاح الذي وجهوا إليه معظم البحث في كلام يعقوب :

«ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأبنكم بما يصيّركم في آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يابني يعقوب واصغوا إلى إسرائيل أبناءكم  
«رأوين أنت بكري ، قوقي وأول قدرني ، فضل الرفعة وفضل العز . فائراً كلاماء لا تنفصل .

«شعون ولاوى أخوان ، آلات ظلم سيفهما ، في مجلسهما لاتدخل نفسى ..  
بمجمعهما لا تتحد كرامتى . لأنهما في غضيئما قتلا إنسانا وفي رضاهما عرقا ثورا  
. «يهودا إلياك يحمد أخوتك .. يهودا جرو أسد .. جثا وربض كأسد وكلبة ، من  
ينهضه ، لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون  
خضوع شعوب ، رابطا بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أنانه ، غسل بالحمر لباسه وبدم  
العنب ثوبه .

«زبولون عند ساحل البحر يسكن ..  
«يساكر حمار جسم رايبض بين المظاير ..  
«دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل ، يكون دان حية على الطريق .. يلسع عقبي  
الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء

«جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره  
«أشير خبره سمين وهو يعطي لذات ملوك  
«نقتلى أيله مسيبة يعطي أقوالا حسنة

«يوسف غصن شجرة مثمرة على عين .. فمررت به ورمته واضطهدته أرباب السهام ،  
ولكن ثبتت بمنانة قوسه وتشددت سواعد يديه ..

«بنيامين ذئب يفترس في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهياه  
هذه الطوالع درست باستفاضة وتدقيق وكتب خلاصة درسها الأستاذ إريك بروز  
في كتابه طوالع يعقوب وبليعام<sup>(١)</sup> فانتهى منها إلى وحدة بين كل اسم من أسماء الأسباط  
 وبين برج من أبراج السماء .

فرأوا بين الفائز كلاما يقابل برج الدلو ، وقد جاء في مدراش التكوين أن آباء قال  
له : جعلت نفسك دلوا ، وبرج الدلو في منطقة البروج على صورة إنسان قائم باسط  
يديه وآخذ بإحداهما كوزا مقلوبا ليكسب منه الماء ، وفي الكلمة جناس بين كلمة رأب  
يعنى نام واسم رأوبين .

وشعرون ولاوى أخوان ، طالع يشير إلى برج التوامين ، وهو برج إله الحرب زحال عند البابليين ويصوروه أحدهما وفي يديه حجر والأخر في يديه سلاح شبيه بالمنجل ، وإلى هذا تشير الكلمة آلات الظلم التي في سيفهما ، وتشير عرقية الثور إلى برج الثور الذي يتعقبه التوامان في السماء كأنهما يطاردانه ويعرقان رجليه .

ويهذا .. ربع كأسد وكلبوا . إشارة إلى برج الأسد . وقد كان عند البابليين برجان : أحدهما برج الأسد أرجولا والثاني أرماح وهو أحد نجوم الدب الكبير ، وأمام الأسد في البروج علامة الملك Seonis Rogulus .. وإلى هذا يشار بالقضيب الذي تخضع له ملوك وزبائنون عند ساحل البحر يسكن إشارة إلى برج الحوت ، وكان عند البابليين على صورة أربعين منفصلتين إحداهما ترمز إلى الدجلة Diglat والأخرى إلى الفرات .

Purattu

، ويساكر إشارة إلى برج البهمر «حمار جسم رابض بين الخطافين» ويلفت الباحثون النظر إلى التشابه بين اللون الأشقر وبين يساكر أو يشاكر ، وإلى ورود البهمر يعني حمار الوحش ومعنى الظبي في اللغة العربية ..

ودان .. حية على الطريق يلسع عقبي الفرس ، والمراد صورة الحياة الشمالية أو عنق الحياة ، وموقعه إلى شمال برج العقرب ..

أما قوله «يلسع عقبي الفرس» فالإشارة فيه إلى النعام الصادرة Sagittaru وصورتها كالستائر الذي له جسم فرس ورأس إنسان ، ويضعون السلاح على مقدمه وعلى مؤخره وقد يكون في هذا تفسير طالع (جاد) الذي يأتي بعد «دان» ويزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره وأشار طعامه سين ، والكلمة العبرية (لحم) وتنصرف إلى برج السرطان وإلى جانبه علامة الملك ، ومن ثم يعطى للذات ملوك ..

وعلى هذا المنط يمضى علماء الأحافير في تفسير هذه الطوالع ، ومن تفسيراتهم ما هو قريب ومنها ما هو بعيد معتسف ، لارتباط الجناس اللفظي تارة بدلول الفلك وتارة بدلول النسب والتاريخ .

وقد صنعوا مثل ذلك في دراسة طوالع بلعام كما جاءت في الإصلاح الثالث والعشرين وما بعده من سفر العدد ، وقد اشتغلت على تكرير عدد السبعة ، وعلى اسم الثور

والحمل والظبي والأسد وعلى طوالع الأئم التي ليست من إسرائيل ، وعارضوا المصطلحات الفلكية على أقوال الأنبياء الآخرين ، وثبت على الأقل من هذه المعارضات أن معرفة الفلك كانت شائعة عند كتاب هذه الطوالع ، سواء كتبت على أيام الأنبياء الذين نسبت إليهم أو كتبت بعد أيامهم عندما تحقق بعض الطوالع أو بدا أنه متتحقق عما قريب .

فإذا صحت هذه التخريجات – كلها أو بعضها – فهذا موضوع من الموضوعات التي تطابقت فيها الأحادير وأخبار التواريχ الأخرى والتواريχ القدمة ، إذ كانت هذه التواريχ مجتمعة على معرفة الأنبياء الأوائل بالنجوم ، وإن اختلفوا في المقصود بعلم النجوم

وندع المبالغات من قبيل مفاخر يوسيفوس ودعواه أن إبراهيم هو الذي علم أخبار المصريين أسرار الكواكب وحساب الفلك ، فليس الخبر كله في هذه المسألة خبر تواريχ وروايات . لأن العقل يفرض بغير حاجة إلى التواريχ والروايات أن يكون رؤساء القبائل المترحلة على علم مواقع النجم ومطالع الأفق ومهاب الأنواء ، وقد كان الأنبياء الأوائل رؤساء لقبائلهم لا تلزم هذه القبائل أمرا من الرحلة والإقامة إلا بمشورتهم وتوجيههم ، ومقام الأنبياء في بابل حيث يرقب الناس الكواكب لأنهم يعبدونها ولأنهم يربطون بها مواسم الزرع والري خلائق أن يشغلهم بها للمحاجة في شئون العبادة وللناظر في شئون المعاش .

وقد جاء في القرآن الكريم أن إبراهيم كان ينظر في النجوم ، وأن يوسف كان يعبر الرؤيا وأن موسى كان يطلع على سحر الكهان ، فمن مواقفات الأحادير أنها تأتي بالسند المكتوب الذي يشرح لنا تفصيلات هذه الأخبار ، ويكاد أن يعين لنا الوقت الذي كتبت فيه طوالع الأنبياء ، لأن تقسيم بروج الفلك قد مر في أدوار متلاحقة من تاريخ بابل ، بعضها محدود على وجه التقرير .

والحد الفاصل بين النبوة والكهانة في السلالة العربية مرسوم أو كأنه مرسوم ، فكان الأنبياء هم أول من تولى أمر الدين في أم السلالة العربية ، وكانتوا يسوسون أمر الدنيا فيما يتطلبه الرئاسة ، ومنه علم النجوم ..

ثم افترق عمل النبي وعمل الكاهن ، ووقع بينهما العداء أحياناً كما رأينا في غير هذا الفصل ، فأصبحت الكهانة وظيفة تعارض النبوة في كثير من الأوقات وهذا الفارق الأعظم بين النبوة والكهانة .

فالكهانة وظيفة ولكن النبوة ليست بوظيفة ، ولم يحدث قط أن أحداً عين نبياً لعمل النبوة كما حدث كثيراً تعين الكهان لعمل الكهانة .

إن النبوة التي تنفصل من الكهانة خاصة لم تكن في غير السلالة العربية ، فما من ديانة كبيرة أو صغيرة في أنحاء العالم إلا يستطيع المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ إلى عمل الكهان ، وما من كهانة إلا وهي وظيفة قابلة للتعيين .

أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية ، والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرى أن النبي لا يعينه أحد ولا يبعث بأمر أحد ، ولكنه يبعث بياض واحد من وحي ضميره ووحي خالقه ، وقد يأتي ليصدم العبادات التي يقوم الكهان على شعائرها ومراسيمها ، وهم أنفسهم مرسمون معينون ..

والفرق بين النبي وبين الكاهن في جوهر العمل أوسع جداً من الفرق بينهما في التعيين والاختيار ، فالكافر م وكل بالشعائر والمراسم والأشكال ، يفرض عليها ويأمر أن يشاركه أحد فيها ..

ولكن النبي تعنيه روح الدين وحقيقة فضميره قبل هذه الشعائر والمراسم والأشكال .

سريرة الإنسان هي وجهة النبي وغايته من التبشير والإذار ، وأما الكاهن فوجهته نظام المجتمع وتقاليده الدولة وما إليها من الظواهر أو الواجبات العامة ..

ولم تخلي الديانات الكبرى من أحجار معينين يوجبون على الناس الاستفادة ويخلرونهم غضب الإله على الذين ينحرفون عن سبيلها .

ولكن الإله هنا أشبه برئيس الديوان الذي يجري الأحكام وفقاً للمأثور من نظام الدولة ، والكافر أشبه بمندوبيه وأمين سره في الحاسبة على الشريعة : كلها مسألة نظام ومجتمع ، وكلها مراسم وتقالييد .

أما التي فالعالم الذي يصوره لنا أسرة حية ، والإله قائم على ذلك العالم لأنه على صلة قريبة بكل من فيه من خلقه ، وكل كائن من تلك الحالات رهن<sup>(٢)</sup> برضاه وغضبه ، ذو شأن في دعوة الدين مقدم على شأن المجتمع والدولة ، وأهله وأصدقه ما كان في الضمائر والنيات .

والتي ذو شأن حتى في دعوته يلعن نفسه ولا يريده دون أن يرى منه ذمته ، وليس كذلك جماعة الكهان الذين هم محل مستقر وعمل راتب وعلاقة بالناس كعلاقة المصالح والأشغال .

وهنا أيضا نرجع إلى «القبيلة» ولا سيما القبيلة في حالة الشعور بالخطر كائناً مكان ، فضلاً عن الخطر الأبدى الذي يحيق بالحياة وما بعد الحياة .. فلا يتضرر من المصلح أو المعلم أو الكاهن في بلاد الحضارة وال عمران أن تخامره نحوة اللحم والدم كما تخامر النفس التي تعودتها في كل شعور وفي كل علاقة ، ولم تعرف حالة غيرها فيما بينها وبين الناس .

ولذا كان هذا الطابع ملزما لبعثات الرسالة حول مدن القوافل جمِيعاً فقد عرفنا ما نفتقده إذا افتقدنا سراً من أسرارها ، وعرفنا كيف تتبع آثارها إذا انقطعت الصلة بين سوابقها ولو احتجها ، فلا تخبط على ضلال ، ولا تضيع البحث في شكوك محيرة للسائلك ، لاموجب لها على هذا المبيع المسلوك ..

---

(٢) رهن : مرتب وملق .

## أنبياء من غير بني إسرائيل

كلمة النبي عربية لفظاً ومعنى :

عربية لفظاً ، لأن مادة النبأ والنبوة أصلية في اللغة

وعربية معنى ، لأن المعنى الذي تؤديه لا تجتمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى :  
 فهي تجمع معانى الكشف والوحى والإنباء بالغيب والإنذار والتبيير ، وهى معان متفرقة  
 تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ، فالكشف مثلاً تؤديه في اللغة الإنجليزية كلمة  
 Divination والوحى تؤديه كلمة Inspiration واستطلاع الغيب تؤديه كلمة Revelation  
 Oracle ولا تجتمع كلها في معنى النبوة كما تجتمع في هذه الكلمة باللغة العربية .  
 وقد وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة  
 العربية غنية جداً بكلمات العراقة والعيادة والكهانة وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس  
 في اللسان العربي بمعنى النبوة كما تلتبس في الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق  
 المعانى الجديدة من الألفاظ القديمة ..

فكلمة النبي تدل على معنى واحد لا تدل على غيره ، خلافاً لأمثالها من الكلمات  
 في كثير من اللغات.

والعربون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا  
 يسمون الأنبياء الأقدمين بالأباء ، وكانتوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي  
 والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار .

وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكي صادق الذى لقيه الخليل  
 عند بيت المقدس ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم يثرون وبليام وأيوب ، ومنهم من يقال  
 أنه ظهر قبل اثنين وأربعين قرناً ، وهو أيوب وقصة بلعام تروى لنا ماحدث بين شيوخ  
 مدیان (مدین) بعد خروج بنى إسرائيل من مصر ، فإن بالاق ملك موآب قد استعان  
 عليهم بالنبي بلعام من تخوم العراق ، ليبطل دعواهم باسم النبوة ويدحض أقوالهم بأقوال

من قبيلها ، فجاء بلعام وحکم بفضیل عبادة الله على عبادة بعل الذي كان يوماً معبوداً للموآبیین.

وأما يثرون فهو نبی مدین قبل خروج بنی إسرائیل من مصر ، ويظن بعض الشرایح أنه هو شعیب المشار إليه في القرآن ، ولعل شعیباً هو قریبہ (هوباب) أو شوباب بمعنى محبوب الله .. وبين النطق العربی والنطق العبری تقارب محسوس ، ومن شراح التوراة من يقول إن «يثرون» لقب وليس باسم يدعى به نبی مدین ، فلا يبعد إذن أن يكون شعیب اسمه الذي لم يذکروه .

ومجمل القصة مع قصة بلعام يفيد أن النبوة كانت معهودة متكررة في تلك الأرض قبل خروج بنی إسرائیل من مصر ، وأیام أن كان موسی سائحاً في الأرض لم يتلق الوحی ولم يرجع إلى مصر ليخرج بقومه منها .. أما أیوب فالرحلة برترام توamas صاحب كتاب «مفزعات وكشوف في بلاد العرب Alarms and Exploration in Arabia» يحسبه من أهل عمان ، وغيره يحسبه من أهل نجد ، وزمنه متباعد بين المؤرخین وشرح التوراة ..

ومنهم من استعان بعلم الفلك على تحديد زمانه ، لأنه ذکر النعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب في القبة السماوية ، وفي إشارته إلى عن الشور وقلب العقرب من منازل الفلك ما يفهم منه زمان تلك المقارنات على تقدير الفلكيين المحدثین ، وقد ذکر المفسر هالس Hales أن هذه المقارنات تجعل تاريخ أیوب قريباً من سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد .

وما يقرب هذا التقدير ويدل على اتصال أیوب بالبلاد المصرية أنه ذکر الأهرام والمدافن التي بينها الملوك لأنفسهم ، ولكنه إذا لم يبلغ هذا الحد من القدم فلا شك عند جمهرة الشرایح في سبقه لعهد الخروج من مصر ، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التي دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذکر «يهواه» في صلب كتابه ، وإنما ورد في المقدمة والذیل وهو مضافان بعد عصره كما هو راجح عند الشرایح ..

ولم تكن حجته فقط في الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والأسلاف ، وقد جاء في مزامير داود وأمثال سليمان کلام يشبه کلامه كأنه مقتبس

منه ، فهو من أقدم الأنبياء في الجزيرة العربية ، وكلهم متفقون على أنه من أبنائها وإن اختلفوا في مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

ومن جامعى التوراة من يضع سفره بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بني إسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية من كتاب العهد القديم .

\*\*\*

وقد كان أيووب يعرف الكتابة ، ولكنه أشار إلى أقدم أدوات الكتابة كما هي معهودة ببصر : نقش بالحديد على الحجر ، وليس طبعا على الطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذي كان يطبع في البلاد الشرقية جميما على نحو واحد .

أما عقيدة أيووب كما تفهم من سفره المجموع في العهد القديم فغاية في السمو والكرم والتنزيه .

إنه ينكر عبادة الشمس والقمر ، ويصف الله القدير بأنه أعلى من السماوات وأعمق من الماءوية وأعرض من البحر ، وسوى بين الحر والعبد قائلا : «أو ليس صانعى في البطن صانعه وقد وصورنا واحد في الرحم؟» ويحمد من الشنى أن يكون أبا للنفقراء وأن تكتب نفسه على المساكين ، وأن يكى لمن عسر يومه ، ويستعيد بالله أن ينظر إنسان إلى امرأة غير امرأته وأن يطمع في مال غير ماله .

وأجل من ذلك شأنها في تاريخ العقيدة الدينية ، أنه كان أول من نص على البعث في كتب العهد القديم ، وكانت تربيتها الإلهية التي انتهى منها إلى هذه العقيدة تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الأقربين والأبناء ، وتدرج من القول بالروايل وعدم إلى القول برؤيه الله بعد فناء الجسد ، فكان في أول السفر يقول : «الذى يتزل إلى الماءوية لا يصعده» ويقول : «إنسان يضطجع ولا يقوم» و«إذا مضت سنوات قليلة أسلك في طريق لا أعود منها» ويسأعل : «إن مات رجل أفيحيا؟» ثم انتهى من هذه التجارب إلى الأمل في خلود النفس ولقاء الله «فبعد أن يفني جلدى هذا ، وبدون جسدي ، أرى الله» .

\*\*\*

وعلى الجملة يبدو سفر أیوب غريباً في وضعه و موضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بني إسرائيل أن يجتمعوا في التوراة كثيراً لغير أنبيائهم المحدثين عن ميثاقهم و ميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدهوا في باقى فلسطين الجنوبي محفوظاً يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان ، ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فإنه عزاء صالح للمتعزين وعبرة صالحة للمتعبرين ، ولا تزال قصة أیوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة في مصر والشام ، ولا نعرف كتاباً من كتب التوراة ظفر في رأى النقاد الغربيين بالإعجاب الأدبي الذي ظفر به سفر أیوب ، فقال توماس كارليل عنه أنه واحد من أجمل الأشياء التي وعتها الكتابة ، وأنه أقدم المأثورات عن تلك القضية التي لا تنتهي ، قضية الإنسان والقدر والأساليب الإلهية معه على هذه الأرض ولا أحسب أن شيئاً كتب مما يضارعه في قيمته الأدبية» ..

وقال فيكتور هيجو : «إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان» .

وقال شاف Schaff : «إنه يرتفع كالمرم في تاريخ الأدب بلا سابقة وبغير نظير» ..

أما بلعام ويثرون فقد ذكر الأول في كتب العهد القديم لأنه نصر بني إسرائيل في الخصومة بينهم وبين الموأيين ، وذكر الثاني لما بينه وبين موسى من المصاهرة وما كان له من الفضل في تعليمه نظام الحكم وسياسة القبائل ، وغيرهم ولا شك كثيرون لم يذكروا في المراجع اليهودية ، إذ كانت هذه المناسبات لا تستوعب تاريخ البقاع بين تخوم العراق و تخوم العقبة وما وراءها من أرض الجنوب .

وهذا بعض القرآن على مكانة النبوة في أرض الجنوب بما يليه تسيناء والحجاز ، ومن القرآن الأخرى في كتب العهدين القديم والجديد يفهم بغير تردد أن تلك البقاع كانت وجهة الأنبياء في كل عصر تحدثت عنه تلك الكتب . فابراهيم توجه إلى حمير وموسى توجه إلى مدين (مدبيان) وبولس الرسول قال في كتاب غلاطية أنه ذهب إلى بلاد العرب قبل أن يأتى إلى دمشق ، ولم يفتّ بني إسرائيل إلى عهد المسيح ينبعون على الشمال أنه لا يخرج منه شيء حسن ، ويتتظرون النبوءات من برية الجنوب .

ويجب أن يتأتى المؤرخ طويلاً عند ملاحظة هذه القرائن المتعددة فهى في تاريخ الخليل دليل على الوجهة التي يجب أن يبحث عنها المؤرخ إذا أراد البحث الصحيح عن مسلك الخليل في أيامه الأخيرة ، فإما يكون مسلكه المعقول إلى طريق الجنوب ، ولا يعقل له مسلك إلى بيت المقدس يستقر عليه قراره ، فإن المصادر الإسرائيلية نفسها تقول أنه كان غريب الدعوة والموطن في حبرون ، وأنه اشتري مدفنة من الحبيبين ، وما لم تكن له دعوة ولا موطن في الأرض فالجحوب الذي اتجه إليه ، واتجه إليه أصحاب الدعوات النبوية أخرى أن يكون قبلته ومرجعه ، وليس من الغريب أن تعمد المصادر اليهودية إغفال هذه القبلة والتتعلق ببيت المقدس بعد أن قام فيها عرش داود ، فإنها الدعوة التي يقومون بها ويسقطون بنفيها ، وفي ذلك وحده تفسير يعني عن كل تفسير.

## العقائد والشاعر

من الألف الثالثة إلى الألف الثانية قبل الميلاد ، أقام في البلاد العربية أناس من أتباع كل عقيدة دينية عرفت في تلك العصور .

وكان مركزها الأكبر في بلاد النهرين ، حيث تبعت الدول فتابعت معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة .

عبدت فيها الكواكب ، وعبدت فيها الملوك ، وعبدت فيها قوى الطبيعة ، وعبدت فيها الأرباب العليا التي تعم عبادتها رجال الدولة ، وعبدت فيها الأرباب المحلية التي يدين بها أبناء كل إقليم على حدة ، ولا تشتراك الأقاليم جميعاً في عبادتها ..

وقامت الشعائر على اختلافها مع كل دين من هذه الأديان ، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين من غلات الزراعة في مواسمها ، وعرفوا الصلوات في المياكل بقيادة الكهان ، كما عرفوا الصلوات في البيوت أو في المدافن الملحقة بها ، وعرفوا الديانات التي تؤمن بالروح والجسد ، كما عرفوا الديانات التي تؤمن بالجسد ولا تذكر شيئاً عن الروح ، أو التي تؤمن بأن الروح يلتصق بالأعضاء فلا يتنتقل إلى العالم الآخر ما دام للجسد بقية باقية ..

ومنهم من كان يفهم أن العالم الآخر ناحية من هذا العالم الأرضي أو هاوية في أعماقه ، ومن كان يفهم أنه آت بعد حين في آخر الرمان .

وشوهد من الآثار والأحافير أن هذه الديانات تتغير كلما تغيرت الدولة القائمة في مكانتها ، فيقضى الدين الجديد على بعضها ويستبقى ببعضها منها أو يحوله إلى صورة أخرى .

ومعظم هذه الشعائر والعبادات له علاقة بدعوة الخليل إبراهيم ، إما بالإقرار أو بالإنكار والتحويل ..

وسيل الباحثين إلى تصفية هذه الشعائر والعبادات عسير بل جد عسير لاختلاط الأزمنة واحتلاط الشعوب واحتلاط البقايا في العصر الواحد ، فلا ندرى على التحقيق ما كان من عقيدة هذا الفريق وما كان من عقيدة غيره ولا وسيلة إلى الجزم بالقديم منها وال الحديث .

ويصدق هذا على العقائد والشعائر التي يقبلها أناس ويستكرها أناس آخرون ، ولكنه لا يصدق على العقائد والشعائر التي يمكن أن يقبلها أتباع العبادات المتناقضة في وقت واحد ، كالحجج وقد كان مفروضا في الجاهلية وظل مفروضا في الإسلام مع اختلاف العقيدة والحكمة فيه ، وكالقول عن أصل الخلقة وقد اتفقت فيه الأديان الكتابية على الجملة وظهر من الآثار والأحافير أنه كان من عقائد الأمم الغابرة قبل الأديان الكتابية ، وما لم يأت نص بالمخالفة فليس ما يمنع تعاقب الأديان على قول واحد في هذه الأمور .

والمتوارد في سيرة الخليل إبراهيم أنه شهد عبادات الأقوام في عصره من أرض النهرين إلى وادي النيل ، وأنه تنقل بين أقطار تناقض في بعض العبادات وتتلاقى في بعضها على اتفاق قريب أو بعيد ، فإذا نظرنا فيما أبقى وفيما ترك وعارضناه على المشهور من عبادات أولئك الأقوام فليس من العسير أن نستخلص رسالته عليه السلام وما فيها من الجديد والقديم ، ومن الوفاق أو الخلاف .

وحاصل ما يقال هنا قبل تلخيص العقائد والعبادات في زمانه أن ظهوره عليه السلام قد كان ولا ريب على مفترق من الطرق يختلف فيه الجيلان في البيت الواحد ، فضلا عن الملتين أو القطرين .

وهذه طائفة من العقائد والشعائر التي كانت لها علاقة بدعوته ، وينبغي النظر فيها قبل التصفية التي نخلص منها إلى بيان رسالته ورسالة الخالفين من بعده ..

#### ٩ - قصة الخلقة

ووجدت قصة الخلقة منقوشة بالخط المسمرى على الألواح التى عثر عليها المتنقبون عند مدينة الموصل ، ونقلوها إلى المتحف البريطانى بلندن حيث تعاون المفسرون على تفسيرها ، وهذه خلاصتها :

«كان الأفق الأعلى لا يسمى بعد بالسماء ، وكان الأفق الأدنى لا يسمى بعد بالأرض ، ولما تفتح الهاوية ذراعيها .  
وكان الماء يغمرها جميعا ، وليس من إنسان ولا حيوان يجوس خلالها  
»وولد يومئذ أقدم الأرباب لخ ولامامو  
وثم ولد آشور وكيشور» .

ويني هذا بعد كلام مفقود أو مطموس في الألواح المكسورة كلام عن الخلق في  
اليوم الرابع حيث صنع منازل لأعظم الأرباب ، وصنع بروج الفلك على صور الحيوان ،  
وقسم السنة إلى أربعة فصول ، وإلى اثنى عشر شهرا في كل فصل منها ثلاثة شهور ،  
وجعل فيها أيام الموسم والأعياد .  
«وصنع للسيارات منازل تشرق فيها وتغرب ، ولا يصدم بعضها ببعضها في الطريق ،  
ووضعها مع منازل بعل وحي .

«وأقام لها مواصد على جوانبها ، وإغلاقا على اليمين واليسار .  
«وأقام في الوسط نيرين . أقام القمر يسيطر على الليل ويسيطر فيه إلى مطلع الفجر ،  
وقدس في كل شهر أيام ، ليبرز في غرة الشهر قرنيه وينير أجواز السماء» .  
ثم يلي هذا كلام ناقص عن اليوم السادس يتلى بعد إتمامه على الوجه الآتي :  
«واجتمعت الأرباب وخلقت الوحش والأنعام والدواب ، ومنها جماعة يبني (آنا  
أشور السماء) .. وكانت فيه بهجة .  
«والإله المشرف جعل فيها الثنين ..» .

\* \* \*

وفي المتحف البريطاني لوحة عليه صورة شجرة جلس إلى جانبها رجل وامرأة ، ووراء  
المرأة حية ، وقد بسطا يديهما إلى ثرتين بأسفل الأغصان .

وفحوى قصة خلق الإنسان أن الإله مردوخ فاتح الإله (آيا) رب الماء العذب فأفضى  
إليه بأنه سيخلق الإنسان من دمه وعظمته ، وأمر حاشيته ، أن تضرب عنقه ليسيل دمه ،  
فنجم منه الإنسان ، ولم يمت الإله مردوخ لأن الإله لا يموت ، ولكن الإنسان قضى  
عليه بالموت بعد ذلك لأنه طمح بآماله إلى خلود الأرباب .

## ٢ - قصة الطوفان

وتُلُفَّ قصبة الطوفان البابلية من اثنى عشر فصلاً على حسب البروج : وروى الفضة يسمى (اسدبار) وقد عبر بحر الموت ليصعد إلى السماء ويلقى زستور الذي ارتفع إليها بعد نجاته من الطوفان ، والباقي من ألواح هذه القصة في المتحف البريطاني يمحكمها على هذا المثال .

«ابن بيتا واصنع سفينه تحفظ النبات والحيوان ، وأخزن البذور وأخزن معها بنور الحياة من كل نوع تحمله السفينة ، ولتكن طولها ستةأة قدم في ستين عرضها .. وتدخل السفينة وتحكم إغلاقها ، وتضع في وسطها الحبوب والمطاع والأزواب والخدم والجندي ، وتوضع فيها كذلك أجناس الوحش لحفظ ذريتها ..

«... وقال الله ليلًا إني سأرسل السماء مدراراً ، فأدخل إلى جوف السفينة وأغلق عليك بابها ، وتفطى وجه الأرض وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء ، ولم يتضرر أخ أحاه ولم يعرف جار جاره . ستة أيام وست ليال ، والريح تعصف والأنواء تطغى ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر وسكنت العاصفة التي ماجت كموج الزلزال . سكنت العاصفة وانحصر البحر وانتهى الطوفان ، وعيج البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طينا وطفت أجسادهم على وجه الماء .

«ثم استوت السفينة على جبل نزار .. وأرسلت أنا الخمامنة فذهبت وعادت ولم تجد من مقر هبط عليه ، فأرسلت عصافور السمانة فعاد وما هبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ، ثم أطلقن الحيوانات في الجهات الأربع وبنيت على رأس الجبل مذبحاً فقربت لديه قرباناً وفرقته في آنية سبعة وفرشت حوله الريحان ، وشممت الأرباب رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعاظم الأرباب من بعيد ، وارتقت أقواس السحاب تحييها عند اقترابها .

وقد علم المنقبون أن هذه القصة منسوبة من مصدر قديم أقدم منها ، فهذه ألواح لا يقل تارikhها على ألفين وخمسماة سنة ، والمصدر الذي نقلت منه يرجع إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد .

وعلم المتربون في جميع آثار الأرض التي كشفت في العالم القديم أو العالم الجديد أن قصة الطوفان عامة لا تتفرق بها الآثار البابلية ، ولا يقل تاريخها في القدم عن تاريخها .

### ٢ - عبادة الكواكب

ومن كلامهم عن الخليقة والطوفان نعلم أنهم كانوا يؤمنون بإله عظيم خلق الآلة الصغار وقدر لها مشارها في السماء .

وهذه الآلة الصغار هي الأجرام السماوية ، وأشهرها القمر ، وقد عمت عبادته بلاد الساميين (أو العرب الأوائل) من وادي النهرين إلى سيناء ، ويسمونه سين ومنها أخذ اسم سيناء ، ولعله في الأصل من مادة السنى والسناء ..

وكان له اسم علم في وادي النهرين هو (نانار) وهو الذي يتوجهون إليه بالعبادة ، وكان له مركز في مدينة (أور) ببلد الخليل إبراهيم ، ومركز في شمال العراق ومعه هناك إله آخر يسمونه مردوخ ، أو المرجع .

وفي صلواتهم للقمر يقولون : «يا رب . يامن قدرته الوهابة تمتذ ما بين السماء والأرض ، ومن يجلب الغيث والمواسم ، ويسير على الأحياء ، ومن يعظم في السماء عالية وصيته ، ومن يعظم في الأرض عالية وصيته ، ومن تسبيح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية . مشبّثك أنت في السماء مشرقة ، ونسألك أن تكشف لنا مشبّثك على الأرض . فإن مشبّثك تطيل الحياة وتبسيط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولاً عجياً ، وأنت تجري العدل على قضاء الإنسان ، وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .. أنت رب الأرباب ما لك من شبيه ولا نظير ..»

وكانوا منذ أقدم العصور على عهد السومريين (أو الشمررين) يرفعون الصروح لرصد الكواكب واستطلاع الطريق ، وهي الصروح التي يسمونها (زجرات) أو أماكن عالية ، ويعمل المؤرخون المتربون ذلك بشأة السومريين في بلاد جبلية ، وأن الجبل والشرق والبلد يطلق عليها في لغتهم اسم واحد هو (كور) ومعناه في العربية قريب من هذا المعنى ، لأنّه يُطلق على مجتمع القرى<sup>(١)</sup> وعلى العمامة وعلى الكارة التي تحمل على الرأس أو الكتف ..

(١) الدول المدفونة : تأليف باتريك كارلتون Buried Empires by Patrick Karleton.

وكانوا هياكلهم المبنية ترصد للأرباب السماوية ، وتنصب فيها العاثيل بأسمائها ، ومن هنا عبادة الأصنام .

وأشهر الكواكب المعبدة بعد القمر كوكب الزهرة (عشتار) وكوكب المريخ (مردودخ) . وينسبون إلى الزهرة أنها ربة الحب لتألقها وزهوها وتقلب أحوالها ، وينسبون إلى المريخ أنه رب الحرب لاحمرار لونه كلون الدماء ..

على أنهم عبدوا الشمس قدماً باسم (شمس) وإن لم تكن عبادتها عامة بينهم كعموم عبادة القمر .

ويقول وولي Woolley في كتابه عن إبراهيم ، وهو من أشهر علماء الأحافير : «إن الآلهة كانوا عند السومريين على ما يظهر ثلاث طبقات : الآلة العظيمة التي تختص لها هيكل الدولة ، والآلة التي دونها وهي التي تقام لها العبادة في مسالك الطرق ، ودون ذلك آلة الأسرة ، والأغلب على الآلة العظيمة أنها كانت تشخيص قوى الطبيعة كالشمس والقمر والماء والأرض والنار والبرق والنضال والخصب والموت ، وعندما تکمن جميع القوى ويكون التفوق بينها على حسب أحوال الربانية المتعددة ، وقد كانت لها أقاليم تغلب العبادة لكل منها على إقليم ، ومن ثم لا يفرض الولاء الكامل له في غير ذلك الإقليم . ففي أور عبادة نافار ، وفي أريكة عبادة أشتار ، وقد يتنازعان فتصبح كل قوة مشلولة من جراء ذلك النزاع .

«والآن وقد غلت مدينة لارسا على إقليم الجنوب فقد أصبح شماس الله الشمس خليقاً أن يسط سلطانه على المدن الأخرى التي دخلت في طاعته ، وأصبحت سطوة بابل مرادفة لسيطرة مردوخ . ولم يكن في السماء قرار ولا برهان إلا بمقدار ما في الأرض من البشر . كلا ولا كانت ثمة شريعة للأخلاق أرفع من شريعتهم» .

وقد كانت لهم حجة إلى الشمال لاعتقادهم أنه مركز القطب الثابت ، ولكن النازع بين دول الشمال ودول الجنوب حال دون الاتفاق على عبادته ، ويظهر أن الصابئين أو الساجدين الذين ظلوا يعبدونه في الجنوب بقيت مخلتهم في مكانها على خلاف مع من حوالها .

#### ٤ - عبادة الملوك

وفي متحف أشمول<sup>(٢)</sup> بالإنجليز أسماء الأسر التي حكمت بابل من بعد الطوفان إلى أيام سراجون ، وقد جاء في الألواح التي حفظت أسماءها أن الأسرة الأولى تولى منها الملك ثلاثة وعشرون ملكاً وكانت مدة حكمهم جميعاً أربعة وعشرين ألف سنة وخمسماة وعشرين سنة ..

وكتاب الألواح يجمعون على أن الملوك الأوائل الذين حكموا بعد الطوفان قد هبطوا من السماء إلى الأرض لحكمها بعد أن ظهرها الله وعاقبها على فسادها ..  
فهم أرباب سماءيون تحب عبادتهم على الرعايا .

وأشهر من حكم منهم في مدينة (أور) أورنامو Ur Nammu صاحب الصرح الشاهق الذي أقيم لعبادة القمر ، وله تمثال نقل إلى متحف بنسلفانيا بأمريكا ..

وقد خلفه ابنه دنقى أو شلقى - على حسب اختلاف المتبين في أساليب ترتيب الحروف والنطق بها - وهو أحد العواهل السومريين الذين فرضاً عبادتهم على جميع البلاد توحيداً للدولة ، وزوج بنته لأمير عيلام (غير بعيد من السليمانية في بلاد الكرد في العهد الحاضر) ليضم إليه الإمارات المجاورة ، واتخذ أصحاب الأقواس الطوال من جند أور ، وخرج بهم وبالفرق القوية من البلاد الأخرى إلى الشمال لغزوه وإخراجه بدولته ، فامتدت مملكته من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال بوادي النهرين ، وبقدر المؤرخ المتخصص لهذه الحقبة (باتريك كارلتون) في كتابه عن الدول المدفونة تولى الملك سنة ٢٢٧٦ قبل الميلاد .

ولم يكن دنقى بالوحيد الذي فرض عبادته على البلاد كلها ، بل كان هذا شأن جميع الملوك الذين أخضعوها لسلطان واحد ، ومن لم يفلح في إخضاعها قنع بالعبادة من رعاياه حيث ينفرد بالسيطرة في بعض الأقاليم ، أو قنع بالكهانة الأولى بين رؤساء الدين .

ولم يتعاقب على (أور) من هؤلاء العواهل كثيرون ، لأن العواهل الذين ضمموا البلاد

(٢) ينسب هذا المتحف إلى أشمول Ashmole الذي أهداه إلى جامعة أكسفورد سنة ١٦٧٧ .

جيمعاً إلى دولتهم قلائل متناثرون بين الأزمنة المتباينة ، و منهم السومريون والأكاديون والبابليون .

إلا أن مدينة (أور) عرفت عبادات شتى غير عبادة القمر و عبادة العواهل ، ومن هذه العبادات عبادة الأسرة بدلاً من الدولة ، شاعت مع ضعف الدولة و سقوط هيمنتها وقلة الرغبة في الإنفاق على الضحايا والقرابين التي تقدم على محاريبها فاكتفى الناس بيبيوتهم يدفنون موتاهم فيها ويقتربون كلهم بمثل طعامهم وهم أحياء بين ظهرانיהם ، وقد كانت أعمال الحفر تبرز للمتقبين طبقة بعد طبقة من أعماق الأرض ومن أعماق التاريخ في وقت واحد ، ومن قيمة القرابان تبدو قيمة الثقة بالأرباب أو تطور العبادة بين الماديات والمعانى الروحية ..

#### ٥ - الضحايا البشرية

وتدل الأحافير على قدم الضحايا البشرية في العبادات التي سبقت عهد الساميين بودى النهرين وبقاع ال�لال الخصيب وأنها بقيت إلى ما بعد وفود الشعوب السامية إلى تلك البقاع .

وتدل الأحافير بمدينة (أور) على قدم تلك العادة في عبادة الملوك خاصة ، إذ كان الملوك يدفنون ومعهم حاشيتهم ووزراؤهم ولا يجدون من هبة جثائهم أنهم ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل بالضرب العنيف ، وهذا يعتقد (وولى) في كتابه «أور الكلدائين» Ur of the Chaldees أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقاراً ساماً يخدرهم ويميتهم ، لإيمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة في السماء كحالتهم في الحياة الأرضية .

ووجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعاً يشبه رأس الحيوان ، والمظنون أن هذا الزر كان مقدمة للذبح الرمزي وإجراء الشعائر مجرى التسلل المقدس في الاحتفالات العامة ولا سيما الاحتفال بعيد رأس السنة<sup>(٣)</sup> .

(٣) أصول الشعائر السامية الأولى تأليف هوكر .

ووُجِدَ في حفائر (أور) عتال جدي مربوط مقيد في شجرة ، لعله رمز لاستبدال الضحية الحيوانية بالضحية البشرية ، وتاريخه في تقدير (وولي) سابق لعصر الخليل بألف وخمسمائة سنة .

ولكن الضحية البشرية بقيت إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ، ويتبين هذا من الإصلاح الثاني والعشرين في سفر الخروج حيث حرم على بني إسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا إلى الله ، ويتبين أيضاً من الإصلاح العشرين من سفر اللاويين حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطي ابنه قربانا للرب .

ومع هذا كان بعض أمرائهم يتذر أبناءه ليحرقهم على المذبح قربانا إلى الله ، كما فعل يفتاح ونذر «نثرا للرب قائلًا : إن دفعت بني عمون ليدي فالخارج الذي يخرج من أبواب بيته للقاء عند رجوعي بالسلامة يكون للرب وأصعده هرقة»<sup>(٤)</sup> .

ونهى عليهم النبي أرميا لهم «بُنوا مرتفات .. ليحرقوا بنיהם وبناتهم بالدار ..» .

#### ٦ - الختان

وروى هيرودوت أبو التاريخ أنه سأل الفينيقيين والسوريين عن عادة الختان فقالوا : إنهم أخذوه من المصريين ، وإن المصريين كانوا يتحررون به النظافة والطهارة .

وحققته التي تدل عليها المقارنة بين العادات أنه اختصار لعادة الضحية البشرية نشأ مع تقدم الإنسان في الحضارة والمدنية .

ففي أقدم العصور كان الفاتح المتصر يقتل الأسرى قربانا على محارب إلهه ، ثم تدرجوا من قتلهم إلى قطع أعضائهم ، وتدرّجوا من قطع أعضائهم إلى قطع غلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة .

ولهذا بدأ الختان بالرجال ولم تنشأ عادة الختان بالنساء إلا بعد ذلك بزمن طويل ..

وانقل الختان من اعتباره علامة تسليم لإله الأعداء ، إلى اعتباره علامة تسليم للإله الذي يعبده أبناء القبيلة ، وعندئذ وجب على النساء كما وجب على الرجال ..

(٤) [اصحاح ٢٠ قصة .

ومن بقايا عاداته الأولى أن شاؤل اشترط على داود أن يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لبنته ميكال ، فقدم له مائتين كما جاء في الإصلاح التامن عشر من سفر صموئيل الأول .

وليس بالصحيح أن الإسرائيليين اعتبروه علامة لقبيلتهم تميز الإسرائيلي من غيره ، وإنما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسلیم لربهم ، وفرضه المكابيون على الأدوميين والأثوريين حين هزموهم ، وجاء في الإصلاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين أن أبناء يعقوب أوجبوا على الرجل الذي اغتصب أختهم دينا أن يختتن هو وقومه الكتيعانيون .

#### ٧ - المعابد والخاريب

لم يعرف عن قوم إبراهيم - أو المتسبين إليه على الأصح - أنهم أقاموا لهم هيكلًا قبل هيكل الذي بناه سليمان عليه السلام .

وكان الخليل يبني الحاريب على الأماكن العالية ، ويختار للمحراب موضعًا إلى جوار الشجر والماء ، ثم تعددت الحاريب فنعددت المعبودات وحسب العامة أن كل محراب منها قد أقيم لمعبود غير المعبودات في الحاريب الأخرى ، وخلطوا بين أرباب كل إقليم فعبدوا الأواثان التي كان يعبدتها أبناء البلاد الأصلاء من قبلهم ، وخيف عليهم الاختلاط والفتاء فيما حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء الحاريب في الأماكن العالية وقصر العبادة والقربان وجميع المراسم الكبرى على هيكل واحد ، وكان هذا الهيكل في مبدأ الأمر خيمة تحمل ، ثم بني بالحجارة على رسم الخيمة وتقسيمها ..

ولم يكن هذا هو الأثر الوحيد من آثار نظام المعابد في وادي النهرین فقد بقيت عبادة الأسرة زمنا طويلا ممثلة في عبادة الأواثان التي تسمى بالطرافين ، وكانت يعتقدون أن حيازة الطرافين تحفظ لمن يحوزها حقوق الأسرة من الرئاسة إلى البركة والميراث ، وهذا أخذت راحيل الطرافين معها قبل الهجرة من حرانة ، وظلوا يحافظون بالطرافين بين ذخائر الأسرة المقدسة إلى ما بعد النبي كما يوحّد من الإصلاح العاشر في سفر زكريا .

### ٨ - العالم الآخر

ولا يخلو دين أمة قديمة من الإيمان بعالم آخر غير عالم الأحياء ، لأن الإيمان بالأرواح والأطياف شائع بين القبائل البدائية الأولى ، وكلهم كانوا يعتقدون أن الإنسان يبقى بعد موته لأنهم يرونـه في أحـلامـهم ، ومن هـنا جاءـت عـبـادـةـ الأسـلـافـ .

ولـكنـ الإـيمـانـ بـالـعـالـمـ الـآـخـرـ نوعـانـ : نوعـ يـنـظـرـ إـلـىـ العـالـمـ الـآـخـرـ كـأـنـهـ جـزـءـ مـنـ هـذـاـ العـالـمـ المـشـهـودـ ، يـتـقـلـ إـلـيـهـ الـمـيـتـ لـلـإـقـامـةـ فـيـهـ ، وـأـكـثـرـ الـأـمـ الـقـدـيـمـ يـسـمـيـهـ الـهـاوـيـةـ وـيجـعـلـهـ تـحـتـ الـأـرـضـ بـعـيـداـ مـنـ النـورـ .

وـنـوـعـ يـنـظـرـ إـلـىـ العـالـمـ الـآـخـرـ وـيـؤـمـنـ بـأـنـهـ عـالـمـ الـحـسـابـ وـالـجـزـاءـ وـالـتـفـرـقـةـ بـيـنـ الـأـبـارـ وـالـأـخـيـارـ ، وـأـنـهـ هوـ عـالـمـ الـخـلـودـ وـالـحـيـاةـ الـبـاقـيـةـ ، بـعـدـ الـحـيـاةـ الـفـانـيـةـ فـيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ .

وـبـيـنـ هـاتـيـنـ الـعـقـيـدـتـيـنـ فـيـ العـالـمـ الـآـخـرـ عـقـيـدـةـ مـتوـسـطـةـ تـجـمـعـ بـيـنـ اـعـتـقـادـ الـهـاوـيـةـ وـاعـتـقادـ الـخـلـودـ ، فـالـمـوقـيـ جـمـيعـاـ يـنـهـبـونـ إـلـىـ الـهـاوـيـةـ ثـمـ يـنـجـوـ مـنـهـمـ فـيـ آـخـرـ الزـمـانـ مـنـ يـدـيـنـوـنـ بـالـإـلـهـ الـحـقـ ، فـيـعـودـونـ إـلـىـ حـيـاةـ كـحـيـاةـ الدـنـيـاـ ، وـيـمـ قـضـاءـ الـمـوتـ الـأـبـدـيـ عـلـىـ الـأـخـرـيـنـ ..

وـكـانـ الـدـيـانـةـ الـبـابـلـيـةـ مـنـ النـوـعـ الـأـوـلـ ..

وـكـانـ الـدـيـانـةـ الـصـرـيـحـةـ مـنـ النـوـعـ الثـانـيـ ..

وـكـانـ الـعـرـبـيـوـنـ يـأـخـذـونـ بـجزـءـ مـنـ هـذـهـ وـجزـءـ مـنـ تـلـكـ ، وـيـدـيـنـوـنـ بـالـعـودـةـ إـلـىـ الدـنـيـاـ فـيـ آـخـرـ الزـمـانـ ، وـأـنـ غـيرـهـمـ مـنـ الـأـمـ لـاـ يـعـودـونـ .

وـتـرـاجـعـ الـصـلـوـاتـ الـبـابـلـيـةـ الـيـوـمـ فـلاـ يـرـىـ فـيـهاـ شـيـءـ يـشـيرـ إـلـىـ النـعـيمـ فـيـ العـالـمـ الـآـخـرـ ، وـلـمـ يـنـحـصـرـ الدـعـاءـ فـيـ طـلـبـ الـخـيـراتـ الـدـنـيـوـيـةـ وـطـولـ الـعـمـرـ وـالـسـلـامـةـ مـنـ الـأـمـراضـ وـالـأـخـرـانـ ..

وـكـانـ طـائـفةـ مـنـ الـبـابـلـيـنـ الـأـقـدـمـيـنـ تـعـقـدـ أـنـ الـرـوـحـ تـلـازـمـ الـجـسـدـ بـعـدـ الـمـوتـ ، فـلاـ تـزالـ عـالـقـةـ بـهـ مـحـيـةـ بـيـنـ هـذـاـ الـعـالـمـ وـالـعـالـمـ الـآـخـرـ حـتـىـ يـلـيـ رـفـاتـهـ وـلـاـ تـبـقـىـ مـنـهـ بـقـيـةـ تـعلـقـ بـهـ ، وـهـذـاـ كـانـواـ يـتـرـكـونـ الـمـوـقـيـ للـجـوارـحـ وـالـوـحـوشـ تـبـشـهـمـ وـتـبـيـدـهـمـ لـتـسـتـرـجـ الـأـرـوـاحـ مـنـ عـذـابـ الـعـيـرةـ بـيـنـ الدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ ..

#### ٩ - التوحيد

والتوحيد كذلك توحيدان :

توحيد الإيمان بـإله واحد خلق الأحياء وخلق معهم أربابا آخرين .  
وتوحيد الإيمان بـإله واحد لا إله غيره .

ولم تعرف أمة قديمة ترقى إلى الإيمان بالوحدانية على هذا المعنى غير الأمة المصرية ، فعبادة (أتون) التي دعا إليها إنختاتون قبل ثلاثة وثلاثين قرنا كانت غاية التزريه في عقيدة التوحيد كما عرفها الأقدمون ومن علماء المصريات - وفي طليعتهم برسيد ووبيجال - من يرى بعد المقابلة بين صلوات إنختاتون والمزامير المنسوبة إلى داود أن حكماء الإسرائييليين كانوا يطلعون على أسرار الحاريب في مصر ، ولا سيما الأسرار التي كانت محجوبة عن الدهماء ، إذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأخبار وتلاميذهم المختارين .

ومن أسماء الملوك في بلاد العرب الجنوبيه يبدو أنهم عرفوا الوحدانية التي يغلب فيها إله واحد على سائر الآلهة ، واسم إيلومي إيلوم الذي تولى الملك في بابل الجنوبيه معناه : إن الله هو إله الحق ، ويقول عبد الله فلي في كتابه سوابق الإسلام : إن هذه الكلمة هي شهادة الوحدانية في طورها الأول ، ومن مرادفاتها في أسماء الشعب إيل رب ، وإيل ملك ، وإيل راب ، وكلها من قبيل القول بأن الله هو الرب وأنه هو الملك وأنه هو الرئيس المطاع ، ولا يقال هذا إلا لغليب إله واحد على سائر الآلهة ، أو لتفوي صفة الإلهية عن سواه ..

#### ١٠ - الشرائع

ويتحقق ببحث الشعائر والعبادات بحث الشرائع والأداب الاجتماعية ، وقد وجد العمود الذى نقشت عليه شريعة حمورابى كاملا ما عدا سطورا مطموسة أمكن إقامها من مصادر أخرى .

وتتضمن هذه الشريعة عقوبة الإغراف للسحر والخيانة الزوجية والإحراف لمن يختلس مالا من بيت محترق ، وكان للنهر في هذه الشريعة قدامة يمتحنون بها من يلقونهم فيه من السحرة والمسحورين ، وفيها عقوبات القتل على السرقة والاغتصاب . ومن غرائبها

أنها تعاقب البنت البريئة بذنب والدها «فإذا ضرب رجل بنت إنسان حر ضربها أسقط حملها فعليه عشرة مثاقيل من الفضة غرامة لإسقاط حملها . فإن ماتت فبنته تقتل ...»<sup>(٥)</sup>

ولا يشبه هذه الأحكام فيما رواه العهد القديم غير عقوبة عاخان لأنه سرق من غنائم القتال في وقعة عاي التي انتزعت فيها الإسرائليون .. «فأجاب عاخان يشوع وقال : حقا إني قد أخطأت إلى الرب إله إسرائيل .. رأيت في الغنية رداء شعاريا نفيسا ومشتبه مشقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مشقالا فاشتبهتا وأخذتهاوها هي مطمورة في الأرض وسط خيمتي والفضة تحnya .. فأخذ يشوع عاخان بين زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبنته وبقره وحميره وغنميه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه وصعدوا بهم إلى وادي عخور . فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم . فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه ..»<sup>(٦)</sup> ..

ومن أحكام حمورابي في مسائل الزواج تخريم تعدد الزوجات من طبقة واحدة وتخريم الزواج من الجواري إذا رزق الرجل أولادا من زوجته المكافحة له في طبقته أو من إحدى جواريها .

«المادة ١٤٤ فإذا تزوج رجل من كاهنة وأعطيته جارية فولدت له الجارية أولادا فلا يجوز له أن يتزوج من سرية»

«المادة ١٤٥ وإذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له وأراد أن يتزوج من سرية وأن يتوهها في بيته فهذه السرية لا تكون مع زوجته في منزلة واحدة» ..

«المادة ١٤٦» وإذا تزوج رجل من كاهنة وأعطيته جارية فولدت له الجارية أولادا وجعلت نفسها في منزلة السيدة لأنها حملت أولادا فلا يجوز للسيدة أن تبيعها بل تقيدها وتبقيها مع الخدم» .

(٥) المادة ٢٠٩ من شريعة حمورابي من كتاب أقدم شرائع العالم تأليف ستريوك إدوارد .

ولا يجوز حرمان ابن السرية من ميراث أبيه بعد الاعتراف بنسبه .

«المادة ١٧٠» فإذا كان لرجل أولاد من زوجته وكان له أولاد من سريته ، وكان قد ناداهم بأبنائي في حياته وعدهم مع أبناءه من زوجته ، ثم ذهب لقضاءه فالأبناء من الزوجة والأبناء من السرية يتقاسمون الميراث على السواء ، ويختار أبناء الزوجة القسمة والاقتراض » .

وتجري المقارنة كثيراً بين شريعة حمورابي والشريعة العبرية ، ويزعم بعض الفقهاء من علماء اليهود المعاصرين أن الشريعة العبرية تختلف شريعة حمورابي في تميز الأصغر بالميراث ، فالأستاذ جوزيف جاكوب يعلل تفضيل إسحاق على إسماعيل ، وتفضيل يعقوب على عيسو ، وتفضيل يوسف على إخوته بأن الشريعة العبرية كانت لذلك العهد تأخذ بالحكم الذي كان شائعاً في بعض الشرائع الأولى : وهو اختصاص الأبن الأصغر بالمحصة الوافية من الميراث *Ultimogeniture* .

قال هذا الفقيه : إن مؤرخي العهد القديم لم يدركوا معنى هذه السنة القدية فحاولوا أن يصححوها بالتعليقات التي خطر لهم أنها كفيلة بتصحيحها<sup>(٧)</sup> ولكن القاعدة تتطرد اطراضاً لا يمكن تعليمه بالمصادفة ، فلما قدم يوسف ولديه منسى وإفرايم إلى أبيه يعقوب ليتلقيا بركته حول الجد يمينه إلى إفرايم ويساره إلى منسى ، وهكذا تولى داود الملك وهو أصغر أبناء أبيه وكان جده فارز أصغر التوأمين اللذين ولدتهما تamar بنت يهودا ، وقد اتبع داود هذه السنة فولى سليمان عرش الملك من بعده وهو أصغر من أخيه أدوناي .

- وبخطر لبعضهم أن هذه السنة قدية في عشرة الخليل ، وأنه هو صلوات الله عليه : كان أصغر من أخيه .

\*\*\*

والى هنا نقف بالمقتبسات من تاريخ الأحافير والتعليقات عليها ، لأن كشف الأحافير الأخرى لا تعينا في موضوع هذه الرسالة ، وليس فيها ما يبني عليه رأى في سيرة الخليل على فرض من شتى الفروض .

Folklore in the Old Testament by Frazer.

(٧) المأثورات الشعبية في العهد القديم فريزر .

## الخلاصة

الآن وقد انتهينا من معالم الطريق كما رسمتها لنا المصادر والتعليقات يصبح أن نبدأ بتلخيص السيرة على هدى تلك المعالم ، ويتحقق لنا أن نقرر «أولاً» أن قرائن الثبوت في سيرة الخليل أقوى جداً من كل قرينة للشك يتحلها من يتحدث باسم العلم ، والعلم من حدثه براء .

فالذى يقول أن وجود الخليل مشكوك فيه من الوجهة العلمية يظلم العلم ويحمله جزيرة لا يحملها ، لأن سيرة الخليل ليست من السير التي يشك فيها العالم ، بل هي سيرة يبحث عنها العالم إن لم يجدوها ، إذ كانت الدعوات النبوية سلالة واحدة يرتبط اللاحق منها بالسابق ، ولا يمكن الرجوع ببداية لها أصدق من بدأتها بدعوة إبراهيم .

\* \* \*

إن الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة إبراهيم سلالة لم يظهر لها نظير في غير الأمم العربية ، والأمم السامية ، وقد ختمت بدعوة محمد وجاءت دعوة محمد متممة لها ، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها ، بترتيب كل منها في زمانها ، وعلاقة كل منها بمكانتها ، فلا ليس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة .

دعوات لم تظهر في العالم كله على غير هذا النسق ، لأنها ارتبطت بظاهرة غير متكررة حول مدن القوافل التي اختصت بها بلاد الأمم العربية ، وكانت بداعتها في زمانها وعلى ترتيب مكانتها الجغرافية حيث نشأ الخليل إبراهيم . فهي نشأة لازمة في موقعها وفي عصرها ، والنشأة التي من هذا القبيل تواجه العلم بحقيقة ضرورية ، فلا يشك فيها . بل يكون موقفه منها على تقدير الشك من طرف إلى طرف ، لأنه يبحث عنها إن لم يجدوها ، وعليه أن يجدوها وأن يهتدى إليها .

ومن قرائن الثبوت - كما أسلفنا - أن هذه الدعوات النبوية نسبت إلى أصل واحد وهو السلالة السامية ، قبل أن يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات ، وقبل أن يعرفوا

علامات الوحدة في التصريف والاشتقاق وقواعد النحو وحركات النطق وأجهزة الكلام ، فلم يكن في وسع الذين قالوا بوحدة أصلها قبل مئات السنين أن يخترعوا هذه النسبة لو لم تكن نسبة صحيحة في مراجع لا تخترع ، ولا يسهل اختراعها .

\*\*\*

وعلم المقابلة بين الأديان حديث كعلم المقابلة بين اللغات ، فإذا جاء هذا العلم الحديث مطابقاً للأخبار الأولى عن ديانة القوم في عصر إبراهيم – فذلك قرينة ثبوت وليس بقرينة شك ، ومن خالف ذلك فهو لا يفرق بين الشك والثبوت ..

لم يكن من السهل أن توجد في وطن واحد عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك ، وأن تعدد الأرباب مع تمييز رب منها على سائرها ..

ليس من السهل أن يوجد هذا الخليط من العبادات في وطن واحد ، فقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الشمس والقمر ، أو يبعدون القمر دون الشمس ، أو يعبدون القمر ولا يبعدون المریخ والزهرة ..

وقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الأصنام ولا يبعدون معها الملوك ، وقد يعبدون أرباباً كثيرة ولا يميزون ربا منها على سائرها ..

أما عبادتها جمِيعاً في وطن واحد فهي حالة لا يمكن اختراعها ما لم تكن حقيقة واقعة ..

ونحن قد علمنا اليوم أنها حقيقة واقعة لأننا فككنا ألفاز الكتابة واستخرجنا أسرار الأحافير ، وعلمنا منها تسلسل العبادات واحتلاط السكان والملوود وتطور العقائد على حسب أحوال المعتقدين ..

وقد علمنا اليوم أن عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس ، خلافاً لبادرة الظن الأولى .  
إذ يسبق إلى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يبدأ بها في العبادة ..

بل علمنا اليوم أن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر ، ولهذا يطلقون عليه اسم جوبير و يستمدون هذا الاسم من كلمتين تعنى أله الآلهة Dawes Pater .

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (الأنعام : ٦٣ : ٧٨)

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الْأَيْلُرَءَ أَكَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَقَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلَقَيْتَ ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا رَأَهُ الْقَمَرَ بِإِغْسَاقَهُ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَقَ قَالَ لَيْسَ لَمَّا يَهْدِي فِي رَبِّي لَا كُوْنَكَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا رَأَهُ الشَّمْسَ بِإِغْسَاقَهُ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْثَرُ قَلْمَانَ أَفْلَقَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِلَيْيَ بِرِّي إِنَّمَا تُشْرِكُونَ ﴾

وَمَا عَلِمْنَاهُ يَوْمَ أَهْمَمُهُمْ أَقَامُوا لِلْكَوَاكِبِ تَمَاثِيلَ لَا تَغِيبُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ إِذَا غَابَتِ الْكَوَاكِبُ ، فَعَبَدُوهُمْ مَعَ عِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالتَّشْيِيلِ ..

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (الأنبياء : ٥٢)

﴿ إِذْ قَالَ لِأَهْمَمِهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْتَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْشَطْهَا عَنِّكُفُونَ ﴾

وَفِيهِ : (الصَّافَاتُ : ٩٥ ، ٩٦)

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِشُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

\*\*\*

وَمَا عَلِمْنَاهُ يَوْمَ مِنْ مَقَابِلَاتِ الْأَدِيَانِ أَنَّ التَّوْحِيدَ جَاءَ بَعْدَ تَعْدِيدِ الْأَرْبَابِ وَتَمْيِيزِ وَاحِدِهِنَّ ، وَأَنَّ أَهْلَ بَإِلَيْهِ خَاصَّةً كَانُوا يَرُونُ فِي قَصْةِ الْخَلِيقَةِ أَنَّ إِلَهَ الْأَكْبَرِ خَلَقَ الْأَرْبَابَ كَمَا خَلَقَ سَائِرَ الْمُوْجُودَاتِ الْأَحْيَاءِ وَغَيْرَ الْأَحْيَاءِ ، وَتَوْحِيدُ إِلَهٍ عَلَى هَذَا النَّحْوِ هُوَ الَّذِي يَسْمُونُهُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ بِالْهِيْنِوِيْزِمِ Henotheism وَيَطْلُقُونَهُ عَلَى طُورٍ خَاصٍ مِنْ أَطْوَارِ التَّوْحِيدِ الْبَدَائِيِّ لَمْ يَكُنْ لِزَاماً أَنْ يَوْجُدَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (الأنبياء : ٥٨)

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَادًا لِلْأَكْيَرِ كَمَنْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ فَعَلْتَ

﴿ هَذَا إِثْمَارِ مِنْ نَارِنَاهِيْسِهِ ﴿١٦﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَيْرُهُمْ

**هَذَا فَتَكُلُّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ** »  
الأنبياء (٦٢ : ٦٣).

أما عبادة الملوك في بابل القديمة فصحن نعلم اليوم أنهم كانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان ، لأننا قرأت الآثار وكشفنا عن الأحافير ، وادعاء الملوك أنهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت وارد في القرآن الكريم :

« إِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ الَّذِي يُعْلِمُ، وَيُعْلِمُتْ قَالَ أَنَا أَعْلَمُ، وَأَمِيتُ »

البقرة : ٢٥٨ .

\*\*\*

هذه المطابقات تعلمها اليوم من الكشوف والأحافير ، وسواء آمن العالم العصري بالقرآن أو لم يؤمن به فالمسألة هنا هي مسألة التفرقة بين قرائن الثبوت وقرائن الشك في سيرة إبراهيم ، فليس من قرائن الشك على كل حال أن تروى أخبار العبادة عن عصر إبراهيم على الوجه الذي حققه الكشف الحديث ، وعلى خلاف القصص التي تخترع اختراعاً بغير سند من الواقع ، لأن الاحتمال لا يجمع بين الحقائق المترفة من عبادات القوم ، وهي عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك وتعدد الأرباب مع تمييز واحد منها على الآخرين ، وهي المرحلة البدائية في طبيعة التطور بين التعبد والتوحيد ..

قلنا في مقدمة هذا الكتاب أن الشك في وجود إبراهيم لا يستند إلى سبب ، لأن الغرائب والخوارق لم تبطل وجود شيء فقط ، ومنها أثبتت ما في السماء وهو الشمس ، وأثبتت ما في الأرض من صنع الإنسان وهو المرم الأكبر ..

ويتحقق لنا بعد ما قدمناه أن نقول على الأقل أن أسباب الثبوت أقوى من أسباب الشك جديعاً ، إن كانت له أسباب .

## العصر

معظم المنقين يعيرون تاريخ إبراهيم في زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويجعلونه معاصرًا للدولة الرعاعة في مصر ودولة العموريين في العراق .

ولادة الخليل في هذه الفترة ترجحها الكشوف والأحافير ، كما ترجمتها النتائج التي تتمثل في سيرته عليه السلام ، وكلها دلائل على تنافر السيطرة وتنافر العقاد والاضطراب الأمور والاضطرار إلى الرحلة الدائمة من أور إلى أشور إلى فلسطين إلى مصر إلى بيت المقدس ثم إلى صحراء الجنوب ..

وتقترب زلازل الطبيعة وزلازل السياسة فلا يستقر لأحد من المقيمين في ديارهم قرار ، فضلاً عن القبائل الرحل في طلب المراعي وطلب الأمان .

سقطت دولة بابل وغبلتها عليها قبائل عيلام من الشرق وقبائل عمور من الغرب ، وعاش العموريون والعيلاميون تارة في قتال وتارة في حلف مزعزع خوفاً من دولة الأشوريين في الشمال .

وسقطت دولة مصر وغبلتها قبائل الرعاعة ، ثم بقيت على خوف وحدر من الشرق ومن فراعنة الجنوب الذين احتفظوا بعروشهم في الصعيد .

وليس أشقى من حياة العشائر الصغيرة بين هذه القلاقل وهذه المنازعات التي يشترك فيها المغامرون من أبناء العشائر الكبرى ، وهم يزحفون للسيطرة على الدول كلما سمح لهم الفرصة العاجلة ، ولا يقنعون بالتحول من بقة إلى بقة طلباً للمراعي والأمان . وكانت عشيرة الخليل صغيرة ولا شك بالقياس إلى العموريين والرعاعة وسائر القبائل التي تحمل بقاع الهمال الخصيب .

ولو لم تكن صغيرة لما أمكن أن تهاجر من جنوب العراق إلى شماله إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى مصر إلى فلسطين كرهاً أخرى في حياة زعيم واحد ..

وقد ألجأتها الجماعة إلى مصر ولم تلجم قبيلة أخرى إلى مثل هذه الهجرة من القبائل التي أصبت بالجماعة في صحراء فلسطين .

وحدث غير حادث يدل على قلة هذه العشيرة في عددها وقوتها ، وأنها ظلت على هذه القلة بعد أيام إبراهيم وفي أيام يعقوب .. ومن أبرز الشواهد على ذلك في حياة البداؤة خاصة أن جيرانها كانوا يجترئون على نساء زعمائها فطمع أيمالك في سارة واعتدى شكيم على ابنة يعقوب ، وكانت العشيرة نزيلة إلى جوار الأقوباء الذين يضيوفونهم أو يأتون ضيافتهم كما يشأون .

وليس أشق من حياة عشيرة صغيرة بين العشائر الكبرى في أيام الزراع العازع وتقلب السلطان ، ولا سيما الحياة إلى جوار البابلية ، وكل سلطان جديد هناك فهو رب جديد يدين الناس بالعبادة ويسمونهم أن يسجدوا له ولا يقنع منهم بطاعة الرعية للرعاة .

وقد حفظ لنا سفر دانيال مثلاً من شتى الأمثلة على قيام هذه العبادات مع قيام السلاطين ، فإن السلطان الجديد يعلن ولادته بالطبل والزمر ويفرض على كل مستمع أن يسجد لتمثاله على قارعة الطريق ، ومن ألى السجود أحرقه بالنار ..

«فبوخذ نصر الملك صنع تمثلاً من ذهب طوله ستون ذراعاً ، وعرضه ستة أذرع ، ونصبه في بقعة دوراً في ولاية بابل ، ثم أرسل ليجمع المرازية والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والفقير وكل حكام الولايات ليأتوا لتدشين التمثال . ونادي المنادي : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناري والعود والرباب والشيطر والمزمار .. أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب ، ومن لا يخز ويسلام ففي تلك الساعة يلقى في آتون النار ...» .

وحفظت لنا الألواح الآشورية صورة جييجو ملك إسرائيل (سنة ٨٤٢ قبل الميلاد) وهو ساجد يقبل الأرض بين يدي شلمنصر ومن ورائه أمراء دولته يحملون الجزية صاغرين .. ومن كان يتغاضى الملوك أن يسجدوا له عند تقديم الطاعة ولا جرم يتغاضى الرعايا دون طبقة الملوك أن يسجدوا له ويعبدوه ، وبخاصة حين يؤسس دولة جديدة قامت على انقضاض دولة ذاهبة ، ولا بد له من توطيد هيئته وقمع الخالفين له ، وألوّهم الذين ينكرون دينه كما ينكرون دنياه .

والحوادث التي أحصاها لنا الرواة من سيرة إبراهيم خليقة أن تحدث في مثل تلك الفترة ، سواء منها ما حدث في العراق أو ما حدث في الطريق إلى وادي النيل .

وربما صح أنه عاصر حمورابي أو كان في عصر قريب من عصره ، ولكن الأحوال لم تتغير قبل عصر حمورابي وبعد ولادته بسنوات ، فهي أحوال الدولة المتبدلة والسيطرة المتقلبة ، ومن علاماتها الكبرى أنها تدعو حمورابي إلى نقش أحكام شريعته وإقامة الأنصاب التي تذكر الناس بذلك الأحكام ، ولا يكون ذلك إلا آية من الآيات على أن الشريعة قد نسيت وهانت واحتاجت إلى تذكير .

ان كانت شريعة جديدة فموعدها القمين بها زمان كذلك الزمان .

وقد كان إبراهيم زعيم قبيلة بادية ، وكان تهافت العروش ، وتبدل العبادات والكمائن من حوله خليقاً أن يرى في أمرها وأن يحب إليه التنجاة من طوارقها وطوارئها ، وكانت القبائل القوية حول العاصمة تنازع السلطان فهي في شاغل بالسيطرة عن العبادة . أما العشيرة الصغيرة فهي مغلوبة على مراقبها وعلى ضمائرها ، ولا عصمة لها إلا أن تعتصم بإله أقوى من الغالبين ومن المغلوبين : إله لا تخصره هياكل العاصمة وتماثيلها ولا يتغير من بادية إلى بادية فوق بطاح البحراء تحت قبة السماء .. إن وجود إبراهيم في عصر كذلك العصر حقيقة لا غرابة فيها ولا محل فيها لاختراع المفترعين ..

## النشأة

من الحقائق ما يده السامع ، لأنه على قربه لم يلتفت إليه .  
كان جندي أوربي يقذح في الشرق وأبنائه وكل ما فيه أثناء الحرب العالمية الأولى ،  
ويقول أنه مبادئه السوء فلا يخرج منه شيء حسن ولا يأتى منه خير ..

وقال له محدثه : إنك تدين بدين جاء من الشرق !  
فوجم الرجل وأخذته الدهشة لأنه لم يتتبه إلى هذه الحقيقة لحظة واحدة طول حياته ،  
وهو يدين بدين السيد المسيح ، ويستمع إلى الإنجيل كلما ذهب إلى الكنيسة ..  
ومثل هذه الحقيقة ما ذكرناه آنفا عن نسبة إبراهيم العربية ، فإنها أصلح نسبة ينسب  
إليها ، ولكنها تبدو لمن يسمعها كأنها غريبة يقال من يزعمها : من أين جئت بهذه  
الأحداث التي لم نسمعها قبل الآن؟

فلا يقال عن إبراهيم أنه إسرائيلي ، لأن يعقوب هو أول من تسمى بإسرائيل ،  
ويعقوب حفيد إبراهيم .

ولا يقال عن إبراهيم أنه يهودي ، لأن اليهودي ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب ،  
ولم يكن ينسب إليه إلا بعد أن أصبح اسمه علما على الإقليم الذي قسم له عند تقسيم  
الأرض بين أبناء يعقوب .

ولا يقال عنه أنه عربى إذا كان المقصود بالعبرية لغة تميزت بين اللغات السامية تفاهم  
بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف ، فإن إبراهيم كان يتكلّم بلغة يفهمها جميع  
السكان في بقاع التهرين وكهفان ، ولم تكن العبرية قد افصلت عن سائر اللغات السامية  
في تلك الأيام .

وقد يقال عنه أنه سامي ينتسب إلى سام بن نوح ، ولكنها نسبة إلى جد وليس  
نسبة إلى قوم وقد تكلّم باللغة السامية أناس كالأخباش ليسوا من السريان ، ولا من  
الآراميين ولا الحميريين .

فإذا فتشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية ، كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الملال الخصيب .

وأصح التقديرات أنه نشأ في أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق وكانت هذه الأسرة مع الذين جاءوا من «أرض البحر» كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقرية من خليج فارس ، وقد وردت أسماء العرب التي لا شك فيها بين الأسر المالكة في جنوب بابل ، خلال عهد طوبل بحيط بعصر إبراهيم على أقدم تقديراته ، فلم يمض على أسرته بمدينة (أور) زمن يفصله من عشيرته البدوية ، وينسها معيشة البداوة التي تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب في العراق إلى أقصى الشمال . ومن جملة أخباره يتبيّن أنه عليه السلام قد نشأ على مفترق طريق بين جميع العهود ..

مفترق طريق بين عهد الكناة وعهد النبوة . ومفترق طريق بين إباحة القرابين البشرية وتحريمهما . ومفترق طريق بين التعبد والتوحيد . ومفترق طريق بين الإيمان بالهداية والإيمان بالحياة الأخرى .

ومفترق طريق في عبادة الأسرة الواحدة ، فلا تثبت الأسرة الواحدة أن تختلف بين طرفيتين : أب وابنه ، وأخ وأخوه .

وتاريخ بابل يومنا إلى عصر قريب من القرن التاسع عشر قبل الميلاد يصح أن تفترق فيه جميع هذه الطرق ..

ففي حوالي هذه الفترة ضاعت هيبة المحاكم . وسقطت مكانة كهانها وندرت القراءين في محاريب الدولة وتحولت إلى مدافن الأسرة حيث تسكن الأسرة مع موتها في دار واحدة ..

وحوالي هذه الفترة تعاقبت الديوب وتناقضت أوامر العبادة وتصارع الأرباب  
فاستحقوا سخرية العباد أجمعين ..

وانتهى قبل ذلك عهد الملوك الذين كانوا يسمون وزارءهم وحواشيم أن يدفوا أنفسهم معهم وهم بقياد الحياة ، وبطل إيمان العلية بالحياة بعد الموت في جوار هؤلاء الملوك ، ففتحت الأذان لسماع شيء جديد عن اليوم الآخر ومعنى الخلود بعد الفناء .

ولعل الصابحة كانوا في ذلك العصر يديرون بالبقاء المصفاة من هذه العبادات ، ولعلهم خلطوا من أجل ذلك بين إنكار الكهانة وإنكار النبوة ، فإذا جاءهم إبراهيم بأول دعوة نبوية لم يميزوا بينه وبين الكهانة التي أنكروها على كهان الهياكل المتداعية والمخارib الدائرة ، ولعل إبراهيم قد يش منهم فاتحه إلى قبتهم العليا شهلا حيث كانوا يتجهون إلى نجم القطب أثثت النجوم ، عسى أن يستمع إليه أصحاب القبلة ، وأن يكونوا على استعداد للتفرقة بين الكهانة والنبوة ، فلا يشق عليهم أن يفهموا وحي الله إلى النبي كما شق عليهم أن يفهموا أن الكهان يتلقون الوحي من الله . وليس بالعسر علينا في العصر الحاضر أن نصور لأنفسنا معيشة أبناء العشائر بين الحاضرة والبادية .

فرؤساء العشيرة يقيمون بالمدن وستقيهم الدولة فيها ولا تضن عليهم بالرئاسة التي تعينهم على حكم العشيرة في بدواها ، وأبناء العشيرة يروحون ويغدون بين الصحراء والحاضرة ليعرضوا على أولئك الرؤساء مطالبيهم عند ذوى السلطان ، ويعقدوا صفقات القوافل أو يبتاعوا حاجتهم في حلهم وترحالهم ، فلا تقطع الصلة بينهم وبين رؤسائهم ، ولا تقطع خصوماتهم التي تلجههم إليهم ، وما انقطعت خصومات أهل البادية قط بين أنفسهم أو بينهم وبين العشائر من حولهم ، فهم أبدا على مطلب من الحكام وشفاعة عند الرؤساء .

وأقلق ما تكون حياة العشيرة البادية حيث تطفى عليها عشيرة أقوى منها ويلغ من قوتها أن تسيطر على الدولة في عواصمها ، وهكذا كانت حياة العشيرة التي تولاها إبراهيم وأبوه أيام طفت على مدينة «أور» أفواج من العيلاميين وأفواج من العموريين ، ولم ينفتح أمامها سبيل الهجرة غير سبيل الشمال ..

ومن البسيط أن تخيل هنا حركة الأب وثورة الفتى بين تداول الدول وتساقط الحكومات ، فالآب يتابع سادات الوقت ويجرى معهم فيما يجريون فيه ، والابن يأنّ إلا ما اعتقد وينفر من المراء والرياء ، وبمحفظة إلى الشمال أمل في صلاح العقيدة وأمل في صلاح الحكومة ، ثم ينقاد الأب بعد طول اللجاج لأن الحركة لا تغنى عنه شيئاً مع فساد الأحوال وتفاقم الخطر من الأقوياء عن اليدين وعن اليسار .

وإذا صبحَ أن أبا إبراهيم كان أميناً لبيت الأصنام وكان يصنع الأصنام على يديه فليست الحنكة وحدها هي التي تدعوه إلى المحافظة على تقاليد العبادة القائمة ، بل له مع الحنكة داع آخر من المصلحة والمترفة الاجتماعية ، ويغلب إذن أن يكون إبراهيم قد تربى للإمامية الدينية وتعلم العلوم التي كانت شائعة بين طبقة الرؤساء الدينين ومنها علم الفلك والطب والتعاونية ورق الأسماء .

واسم إبراهيم من الأسماء التي تنبئ عن نشأة دينية ، لأنـه - على أرجح معانـيه - يفـيد معنى حـبيب الله . وقد كان قـدماء السـريـان يـطلقـون اـسـمـ رـأسـ الـأـسـرـةـ مـجـازـاـ عـلـىـ الإـلـهـ الـعـبـودـ فـيـسـمـونـهـ الـأـبـ تـارـةـ وـالـعـمـ تـارـةـ أـخـرىـ ، وـرـبـاـ كـانـ الـعـمـ أـغـلـبـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ لأنـ الرـجـلـ يـنـادـىـ كـلـ شـيـخـ مـبـجلـ (ـيـاـ عـمـ وـيـاعـمـ) .. وـمـنـ هـنـاـ اـسـمـ عـمـراـمـ وـإـبـراـمـ ، رـكـبـ كـلـاهـاـ مـنـ الـعـمـ وـالـأـبـ وـمـنـ كـلـمـةـ رـامـ الـتـيـ تـعـنـىـ الـحـبـةـ ، وـلـعـلـ التـغـيـرـ الـذـىـ طـرـأـ عـلـىـ اـسـمـ إـبـراـمـ إـنـاـ استـخـدـيـتـ لـكـىـ يـفـيدـ مـعـنـىـ حـبـيـبـ اللـهـ بـدـلاـ مـنـ حـبـيـبـ الـإـلـهـ الـذـىـ كـانـ يـعـبـدـ أـبـوهـ فـيـ مـعـابـدـ الـوـثـنـيـةـ .

وعلى أن التعليم لم يكن مقصوراً على أبناء الكهان ، فإن المثقفين الآخرين كشفوا عن أبيته ضخامة كانت معدة للمكتبات والمدارس العليا ، ولم يكن من النادر أن يتعلم أبناء العلية دروس الفلك والرياضية والتشريع التي ترشحهم لمناصب الدولة . واحتداه إبراهيم إلى حقائق الأجرام العلوية من طريق الفلك أمر معمول في زمانه على الخصوص ، فإنه زمان تبددت فيه حالات الربوبية من حول الملوك وهبطت فيه منزلة الكهانات العليا وتصارعت فيه العقائد بين غالبية ومغلوبة وبين متأصلة في العواسم ومقتحمة عليها ، ونظر فيه المثقفون إلى الكواكب نظرة جديدة فجعلوها صوراً للأرواح التورانية ونزلوا بها من علية الربوبية إلى مرتبة الخلائق المسخرة في المآل الأعلى ، فإن لم يكن مذهب الصابئة قد تم واستقر في ذلك العهد فقد كانت له بداعة تحوم على هذه المعانـىـ و تستشرف لما وراءـهاـ ، لو لا ذلك لما بقيت السـريـانـيـةـ الـقـديـمةـ لـغـةـ مـقـدـسـةـ فـيـ كـتـبـ هـذـهـ النـحـلةـ ، إذـ كـانـ السـريـانـيـةـ الـقـديـمةـ أـعـرـقـ مـنـ السـريـانـيـةـ الـمـشـعـبـةـ مـنـهـاـ وـلـاـ يـكـنـ أـنـ تـنـزـلـ الطـائـفـةـ الصـابـيـةـ بـتـلـكـ الـلـغـةـ الـأـوـلـىـ مـاـ لـمـ تـكـنـ بـدـاعـتـهـاـ مـعـنـهـ فـيـ الـقـدـمـ إـلـىـ مـاـقـبـلـ تـدوـينـ الـلـهـجـةـ السـريـانـيـةـ الـحـدـيـثـةـ .

ومن البديهي أن العقائد التي تدعمها الدولة لا تنهض بضربة واحدة ولا تولى أدبارها لكل منكر يجترئ عليها ، فقد لقى إبراهيم عنتا شديداً من تلك العقائد المداعبة ، وأشد ما تكون العقيدة دفاعاً عن نفسها حين يشتد الخطر عليها وتحس في قراره حصنها أن الضربة تصيبها وتزلزل أركانها ..

ويتبين للناقد العصرى أن يلمع شيئاً يستوقفه في قصة إبراهيم ووعيد الدولة له بالإحرق إن لم ينته عن تسفيه أريابها .

فمن المسلمين أن الإحرق عقوبة مقررة في شريعة بابل ، وأن النار لم تكن مجهرة في بلد من بلاد الأنبياء الآخرين ، ولكنهم لم يتعرضوا للإحرق في غير أرض بابل ، ولم يرد غير قط عن النبي غير إبراهيم توعده قومه بإحرقه ، ومنهم من نشأ في بلاد تحرق القرابين الحية في المحاريب . فليست أخبار الأنبياء إذن مما يُرسل جزاها أو مما تنقطع فيه المناسبة بين النبي والبلد الذي يبعث إليه .

وسياق الكلام عن معجزات إبراهيم في موضعه ، ولكن موضع الالتفات هنا لن يصطدم الدراسة العلمية أن يلاحظ شواهد هذا الانفراد بعقوبة الإحرق في قصة إبراهيم دون قصص الأنبياء .

والعبرة من هذه الملاحظة وأمثالها أن الناقد العلمي مسؤول أن يقتضى من الأخبار الأولى مقدار ما فيها من الثبوت ، وليس مهمته كلها أن يأبأها جميعاً لأنه وجد فيها شيئاً يأبأه .

## الجِنْدُوب

انفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم في الحجاز ، وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستكثار ، لأن المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت إليه واقعة بينة البطلان بذاتها وغير قابلة للوقوع ... ووضع من أسلوب نقدمهم أنهم يكتبون لإثبات دين وإنكار دين ، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون ، فضلاً عن الاجتهاد في طلب الحقيقة قبل أن يوجههم إليه الخالفون والمخالفون .

أما الواقع الغريب حقاً فهو طواف إبراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقفه دون الجنوب لغير سبب ، بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه إلى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ولم يكن لإبراهيم وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى . فالمتواتر من روایات التوراة أنه لم يوجد عند بيت المقدس مدفناً لزوجه فاشتراه من بعض الحبيشين .

أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأحجار إيل عليون ، وكان إبراهيم يقدم العشر أحياناً إلى أولئك الأحجار .

ومن كان معه أتباع يخرجون في طلب المرعى فلا بد لهم من مكان يسمون<sup>(١)</sup> فيه إبلهم وماشيتهم بعيداً عن المواجهة والمنازعة ، وهكذا كان إبراهيم يعمل في أكثر أيامه كما تواترت أنباؤه في سفر التكوين ، فلا يزال متوجهًا إلى الجنوب ..

هناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدينوية توحى إليه أن يجرب المسير إلى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبتلى لعبادة الله هيكلًا غير المياكل التي يتولاها الكهان والأحجار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين فقد بدا له أن إقامة المذايحة المتعددة فتنت

(١) يسمون : أسماء الراعي الماشية : أخرجها إلى المرعى .

أتباعه وجعلتهم يتقربون في كل مذبح إلى الرب المعبد بجواره ، ومثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أقامت حكماء الشعب بمحضر القربان في مكان واحد ، فاختنوا ليه خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء .

فإن كان هذا الخاطر لم يخطر قط في نفس إبراهيم فذلك هو العجيب الذي يستوقف النظر من سيرة رسول و زعيم ، ولكن الرسالة والزعامة معاً توحيانه إليه ولو مرة من المرات وهو على أبهة الرحلة والاستطلاع .

ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به إلى الجنوب ثم إلى الجنوب إذ لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب ، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصد .

و واضح من تواتر روايات التوراة والمشنا والتلمود أن اللهج بيته المقدس إنما جاء متأخراً بعد عصر إبراهيم وعصر موسى بزمن طويل ، وأنه جاء ، مع عصر المملكة الإسرائيلية وعملت فيه السياسة عملها المعهود .

فبعد موسى بعده قرون بقيت أورشليم في أيدي البيوسيين ، واستولى بنو بنiamin على جرتها ولكنهم لم يطردوا منها البيوسيين ... «فسكن البيوسيون مع بنى بنiamin في أورشليم إلى هذا اليوم» أى إلى الأيام التي كتب فيها سفر القضاة من العهد القديم .

ثم تغلب بنو يهودا على المدينة فدمروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها ، وعاد البيوسيون فجددوا بناءها وسكنوها إلى أيام الملك شااؤول ، ثم استولى عليها داود فاختذها عاصمة ، وبنى فيها سليمان هيكلها المشهور .

وبعد هذا جاء ملك من ذرية إبراهيم وهو «يهواش» ملك إسرائيل فهدم سور أورشليم .. وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيته في خزانة بيته الملك والرهناء ورجع الآنية الموجودة في بيته في خزانة بيته الملك والرهناء ورجع إلى السامرة<sup>(٢)</sup> ... ثم اضطجع يهواش مع آباءه ، أى مات مرضياً عنه ..

(٢) الإصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الثاني .

فلم يكن لأورشليم هذا الشأن في حياة إبراهيم ولا في حياة موسى ، ولم يكن لها هذا الشأن من القدسية بين جميع بني إسرائيل حتى في عهد داود . أما «الجنوب» المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القدسية إلى أيام أرميا وما بعدها ، وكانت كلمة «تيمان» مزادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة ، وهي تقابل كلمة «ين» في اللغة العربية بجميع معانها ، ومنها الإشارة إلى الجنوب . ففي سفر التثنية يقال على لسان موسى : «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير» .

وفي سفر حقوق : «الله جاء من تيمان والقدس من جبل فاران» .  
وأوضح من ذلك قول أرميا متسائلاً في مراثيه : «ألا حكمة بعد في تيمان؟ هل بادت المشورة من الفهماء؟» .

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتسائل : كيف يكون هذا الجنوب موصدًا في وجه إبراهيم؟ وكيف يطوف الأقطار جيّعاً ولا ينفتح له الباب الذي لا موصد عليه؟! .. إن كان أحد الطريقين مفتوحاً أمامه فليس هو طريق بيت المقدس ، بل طريق الحجاز .

وفي هذا الطريق سلك الأنبياء ، وذكرت المصادر الإسرائيلية منهم من بلغ مدین ، وذكرت منهم من لعله أقام في نجد أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية .. ولم تذكر المصادر الإسرائيلية صالحاً ولا هوداً ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء ..

فموضع التساؤل هو السكوت عن الناحية ، وليس هو الذكر الذي توحّيه البداهة ، ويوحّيه المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية .

ونقول : إن السكوت موضع تساؤل وهو في الحقيقة غنى عن التساؤل ، لأنّه معلوم السبب والغاية ، وحسبنا من التساؤل أن يتيه بنا إلى سبب معلوم وغاية مرسومة .. إنما العجب من ذوى الدعوى باسم البحث العلمي أن يتظروا الخبر من يقضى على دعواهم كلها إذا رأوه ، ويثبت دعواهم كلها إذا نفوه .

ومن الذي يكتم مسیر إبراهيم إلى مكة إن لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها بإثبات ذلك المسير؟

على أن الباحث الذي يحرى المعرفة لا يصح أن يقف عند النفي ثم يسكت على ذلك ولا يحاول الإثبات ما استطاع ..

ها هنا رواية عن نشأة الكعبة في الحجاز على عهد إبراهيم ، فمن يتذكرها فعليه أن ينقأولا من أسباب إنكارها ، وعليه بعد ذلك أن يعرفنا بما هو أصح في التاريخ وأولى بالقبول .

ونفرض أن إبراهيم لم يصل إلى الحجاز لأن المصادر الإسرائيلية لم تذكر رحلته إلى الحجاز ووقفت بها عند جرار وقداش وبلاط أدولم .

ونفرض أن هذا سبب كاف لنفي الرحلة من الوجهة العلمية ، فهذه الكعبة قائمة تحتاج إلى بان يبنها ، فمن الذي بناها ؟

إن روایات هؤلاء القوم الأئميين - قوم مكة في الجاهلية - تذكر لنا إن مكة عمرت قدیماً بآنس من اليمن ثم آنس من النبط ، وكل معلوم عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروایات ، فإن أقام مقيم في مكة فسيلهم أن يأتى إلى وسط الحجاز من الطرفين ، وهما طرف اليمن في الجنوب وطرف النبط في الشمال ..

لكن أهل اليمن - في اليمن - لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعنى<sup>(٣)</sup> على شأنها بين الشعوب العربية ، وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا إلى الكعبة نظرتهم إلى منافس خطير فهموا بهدمها وتحويل الحجاج إلى معبد يقوم عند العرب مقامها .

أما النبط في الشمال فمكة هي طريقهم ولا مزاحمة عليها منهم ، وأنارهم الباقة في البتراء تتطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين في العبادة واللغة والسلالة ، والنسابون من الحجاز يقولون : إنهم نبط ، وإنهم أخذوا الأصنام من النبط ، وجميع المصادر بعد ذلك تقول إن النبط هم ذرية نبات بن إسماعيل ..

ومن النظر العلمي أن يجتهد الباحث هذا الاجتهد وأن يلتفت إلى كل باب من هذه الأبواب ، لأن الاختلافات إليها واجب عليه ، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد

(٣) تعنى : عفت الرعى النار عن آثارها .

يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية ثم يهمله ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت أو من الفرض والاحتمال .

أما الأمر الذي لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع ، فهو القول بأن إبراهيم لم يذهب إلى الحجاز لأن المصادر الإسرائيلية خلو من هذا الخبر ، ثم يكتفى القائل بقوله فلا يضع أمامنا بديلاً منه أولى بالأخذ به .

إن إبراهيم صاحب دعوة دينية ، وليس في المصادر الإسرائيلية ما يدل على أنه قد صنع شيئاً لنشر دعوته ، وكل ما ورد عنه في هذا الكتاب أنه أقام مذبحاً في كل منزل من منازل الطريق ، ثم ترك البلاد جميعاً في رعاية الأخبار الذين كانوا مؤمنين به «إيليل عليةون» قبل وفوده إلى كنعان ، وليس في ذلك مقنع لصاحب دعوة دينية يغادر دياره في سبيل هذه الدعوة .

فأقرب ما يرد على الخاطر أن إبراهيم قد ذهب إلى حيث يصنع شيئاً باقياً في سبل دعوته ، ولا مذهب له إذن إلى غير الحجاز ، وهذه هي تسمة السيرة التي لا بد منها في حياة نبي ينتهي إليه سائر الأنبياء ، وإلا كانت نسبة الدعوة إليه من أعجب الأمور .

وقد جاء في المأثورات جهيناً أن إبراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم في مدن فلسطين المجنوية ، وبقيت آثار البتراء (سلع) إلى اليوم وفيها أنصاص من هذه الرجوم في أماكن العبادة ، حفظوها تذكيراً لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقاباً للمذنبين .

ولم يذكر مصدر من المصادر أن إبراهيم كان يحمل معه حجراً من هذه الأحجار ، ولكنه إذا تعمد أن يقيم مذبحاً باقياً على طريقته فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة . وليس من اعتساف<sup>(٤)</sup> التفسيرات أن يقال أن الحجر الأسود نقل من البتراء عند بناء الكعبة ، وقد تبين بعد ذلك أنهم نقلوا كثيراً من طريق البتراء بعد اتخاذ الكعبة بيتاً للأصنام قبل الإسلام بضعة أجيال ، وليس من المسائل العرضية أن تتشابه الحجارة في قوام تركيبها ، وهي تختلف في بنيتها المعدنية والمصخرية كما هو معلوم .

(٤) اعتساف : اعتسف الطريق : عدل عنه . والأمر : ركيه بلا رؤبة .

وربما سميت مكة وبكة باسم البيت الذي بني فيها ، لأن البك و البكة كانوا يطلقان على البيت في اللغة السامية الأولى ، ومنها يعلبك يعني بيت البعل . وربما كانت من مادة القربان في السبيبة والحبشية لأنهم كانوا يطلقون المقربة على المحراب المقدس ، وبطليموس الجغرافي قد ذكرها باسم مكرية Macaraba نacula عن أهل اليمن ، ولكن التصحيح هنا بعيد ، ولا تسمى البلدة باسم القربان فيها إلا إذا أصبحت مسجدة لقصادها من المؤمنين بكتعبتها ، وقد مضى على السبعين زمن وهم يعيشون في شمال الجزيرة ، فلم يذكروها بهذا الاسم في أثر من الآثار .

وفي مقاييس الكعبة شاهد لا يجوز إهماله عند البحث في أصل بنائها ، فإنها قد بنيت مرات كثيرون ، وكان البناء في كل مرة يحافظون على معالمها القديمة حيث أمكنت المحافظة عليها ، وقد تذرع عليهم أن يحافظوا على أبعاد جوانبها للدخول الحجر (بكسر الحاء) فيها تارة وخروجه منها تارة أخرى ، ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء في أكثر الروايات ، وارتفاعها الآن سبع وعشرون ذراعاً أو خمسة عشر متراً<sup>(٥)</sup> ولن تكون الخمسة عشر متراً سبعة وعشرين ذراعاً إلا إذا كان الذراع بالقياس المقدس عند قوم إبراهيم ، لأنه كما حققه الأستاذ جريفس Greaves الخبير المتخصص في المقاييس الأنثوية يزيد على واحد وعشرين قيراطاً (بوصة) وثلاثة أرباع القيراط ، ويقاس بالتقريب عند معاشرة الأبنية القديمة التي قدرت بالذراع ..

هذه القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المترء عن الغرض ، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة إبراهيم إلى الحجاز ، وأنها هي وحدتها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية .

وقد جاء الإسلام مثبتاً رحلة إبراهيم إلى الحجاز ، وأيتها ولاشك بعد أن ثبتت مع الزمن المطابق ، لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت إسرائيل انتساب العرب إلى إبراهيم ، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية مطرودة ، وليس هذا غاية ما يدعوه المتسبب عند الاختراع .

(٥) الرحلة الحجازية تأليف ليوبيليانو .

## الرسالة

إن تاريخ الأديان لا يرسم لنا خطًا واحدًا يفصل بين عهدين كلاهما خالف للآخر كل الخالفة.

فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة ، وما من عهدين من عهود الأديان إلا وبينهما تمهيد وتعقيب ، ولكن الأمانة التي اضططلع بها الخليل إبراهيم حادث جديد لم تعرف له سابقة فيما وعيته من تاريخ الدين ..

وذلك الحادث الجديد هو أمانة الرسالة النبوية : أمانة نفس حية تخاطب نفوسا حية باسم الإله الذي يتوجه إليه عباده في كل مكان .

أمانة نفس تخاطب النفوس ، ولا تخاطبهم من وراء المخاريب والهيكل ، ولا بسلطان من نظام الدولة أو نظام الكهانة ، ولكنها نداء ضمير إلى ضمير ..

وهذه هي الدعوة التي قلنا أنها تستلزم وجود «هدایة شخصية» أو تستلزم وجود إبراهيم متصلًا بمن بعده ، لأنها سلالة من دعوات لا يتصورها العقل على غير مثالها الفريد في تواريχ الأديان .

ولولا أن الشكوكين باسم البحث والنقد يعملون عمل الآلات في شکهم ، وفي بحثهم ونقدتهم ، لفهموا أن الشخصية الحرافية جائزة في نظام الكهانات أو نظام هيكل الدولة ، لأنها نظم قائمة على «موظفين» دينيين ، يحل أحدهم محل الآخر بلا اختلاف ، ولكن الدعوة النبوية على المثال الذي بدأ به الخليل إبراهيم هي عمل لا غنى فيه عن الشخصية الحقيقة ولا عن التابع الذي يعتقد بين الشخصيات من سلالة واحدة ، وما من حلقة في هذه السلسلة الحية إلا وهي تتطلب الحلقة التي قبلها والتي بعدها على السواء ..

كانت دعوة إبراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة .

فلم يبدأ إبراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهود الكهانات والهيكل .

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام وجعلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداء قد بدأ وسارت في طريقها ، لولا أنها بدأ لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذاك ..

\*\*\*

كان توحيد إبراهيم إيماناً بالله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميرا ، لأنه أعلى من كل عال في الأرضين أو في السماوات . ولكنه قريب من كل إنسان .

ولم يكن «هوا» إله إبراهيم ، لأن قوم إبراهيم لم يذكروا هوا من بعده قبل خروجهم إلى سيناء ، كما صرحت بذلك كتب التوراة الأولى .

ولكنه كان هو الإله «الإيل» وإليه ينسب ابنه إسماعيل .

وكان هو العلي «عليون» وعلى محاربه قدم قرباته إلى ملكي صادق بعد نزوله بكنعان . فهو إله لا فرق عنده بين وطن قديم أو وطن جديد ، ولا فضل لديه لعشيرة إبراهيم على عشيرة ملكي صادق ، ولا على غيرها من عشائربني آدم ، بغير التقوى والإيمان . إن هذا التوحيد قد رفع مكانة الإنسان في ميزان الخليقة ، فليس في الكون إلا خالق وخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة : وهي فضيلة الضمير الذي يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسليته إلى الله ..

- جاء إبراهيم في مفترق الطريق بين استباحة القرابين البشرية وبين تحريها .. ولكتها لم تخُرم لأنها أغلى من أن تقدم ..  
، وإنما حرمت لأن الله أرحم وأكرم ..

ورأى إبراهيم في رؤياه أنه يؤمر بذبح ابنه ، وأعز ما في الحياة عنده .

رأى ذلك وهو يعلم أن الأرباب تقاضي عبادها مثل هذه الضحية ، وأن تقريب الأوائل من الأولاد والأوائل من كل تناج حق مفروض على كل أسرة لرب الأواثن والأصنام .. أيكون إبراهيم أخل على ربّه من عايد الوثن ؟ .. أيكون الوثن أحق بالضحية من خالق الأرض والسماء ؟

أميرتاب إبراهيم في أمر الله وهو ينظر إلى شريعة العبادة من حوله ، وإن كانت شريعة شر وضلالة !

إن العصيان هنا نزول بالإله الأعلى عن مرتبة الأواثن والأصنام .  
فلتكن الطاعة تنزيلها للإله الأعلى عن ذلك الإسفاف ، ويفعل الإله بالأباء والبنين ما يريد .

قال حكيم من حكماء الغرب<sup>(١)</sup> : إن الدين هو الأمر الواحد الذي يحق له أن يأمر الإنسان بما ينافي الأخلاق ، لأنه يرفعه أوجاً بعد أوج في معراج الخلق الشريف .. إن ذبح الأب ولديه نقيس الرحمة .. ولكن إيمان الإنسان بعقيدة أعز عليه من ولده ومن نفسه غنيمة أقوم وأعظم من رحمة الآباء للأبناء .  
فلا ينبغي أن يضلل الإنسان بشيء في سبيل هذه العقيدة .

ولا ينبغي أن يبطل القربان بالإنسان لأن الله لا يستحقه كاستحقاقه أوثان الجهالة ، بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله ، فهو أعظم وأكرم من الأواثن .  
وارتفاع الإنسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف إلى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه .. ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف ، وسمو بالرحمة وبالعبادة إلى أعلى علية ..

قلنا عن أئوب عليه السلام إن حياته كانت تربية دينية من تجاربها الأولى إلى ختامها ، فعلم في ختامها ما لم يكن يعلمه في أولها ، ولم يذكر البعض حين كان يتمنى الهبوط إلى الهاوية التي لا يصعد منها من هبط إليها ، ولكنه ذكره بعد اختبار طويل وبلاء شديد ، فقال : « بعد أن يفني جلدك هذا ، وبدون جسدك أرى الله » ..

(١) كيركجارد الدنماركي Kierkegaard (١٨١٣-١٨٥٥) .

ويصدق هذا القول على حياة إبراهيم في عقائده جمِيعاً ، لأنَّه اختبر حياة الشرك واحتبر شعائره وفِرائضه ، وخلصت له الْهداية بالخبرة والْهداية الإلهية ..

وأصدق ما يكون ذلك على البعث خاصة ، فإنه لمن مواضع التأمل أن يكون إبراهيم هو النبي الوحيد الذي ذكر القرآن الكريم أنه سأله ربُّه كيف يحيي الموتى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى فَأَلَّا أُلَمَّ  
تُؤْمِنُ مَنْ قَالَ بِلَى وَلَكِنَّ لِيَطَمِينَ قَلْبِي ﴾

ولم يرو القرآن الكريم خبراً كهذا عن نبي غير إبراهيم ، فإنه إذن لمن مواضع التأمل التي ينبغي أن يلتفت إليها من يصطحبون الاستقصاء ، باسم العلم والتاريخ .. فالحق أن عقيدة البعث خفية في كتب التوراة ، وأن خفاءها هذا دليل على أنها بقيت زمناً بعد إبراهيم مجهرة غير مفهومة .

وإذا اعتمدنا البحث التاريخي وحده لم يجز في العقل أن يكون إبراهيم قد ذهب إلى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت .

فمن ذرية إبراهيم يوسف وقد كان له صهر في كهان المخاريب المصرية ، ومنهم موسى وله علم بمدارس مصر وأسرارها ، وغير معقول أن يكون إبراهيم قد خرج من أرض الكلدان إلى مصر ولم يخطر له أن يسائل حكماءها في أمر العقيدة ، وقد كانت في الوجه البحري حيث تنزل القبائل الواقفة — مخاريب كثيرة يتقرَّب منها ملوك الرعاة ويشتهركون في شعائرها مع رؤساء الدين ..

فلا يجوز في العقل أن يكون إبراهيم قد ذهب إلى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت ، وأصوب من هذا أن نفهم أن كتب العهد القديم دونت بعد السبي أو نفي اليهود إلى بابل ، فطال العهد بينها وبين دعوة إبراهيم ، وطالت عصور التكسة بعد احتلال العبادات الإلهية والوثنية ، ومنها عبادات بعل وعشتروت .

وساعد على خفاء العقيدة بالحياة بعد الموت أنها لم تورث عن إبراهيم مفصلة متطرفة عن سابقة متابعة ، فجاز أن يكتب المدحولون في سفر الجامعه : «إن ما يحدث لبني البشر

يحدث للبيمة .. كلامها من التراب وإلى التراب يعود . من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق ؟ وروح البيمة هل هي تنزل إلى أسفل .. إلى الأرض ؟ ولا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله . لأن ذلك نصيه ... .

وانقضت قرون قبل أن يسمع من دانيال «إن الراقدين في تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء للحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار ...» .

وجاء عصر السيد المسيح ولما ينحسم الخلاف بين طوائف بني إسرائيل التي تقول بالحياة الأخرى وطريقهم التي تذكرها وتتحدى المؤمنين بها أن يؤيدها بسند من كتب التوراة . وضرب السيد المسيح المثل بالعاذر والرجل الغنى ، وفيه إشارة إلى النعيم والعذاب بعد الموت ، فكان عقيدة من عقائد الأنجليل لم تقرر على هذا الوجه في كتب التوراة .

وقد مضى زهاء عشرين قرنا بين عصر إبراهيم وعصر المسيح ومضى زهاء أربعين قرنا بينه وبين هذا الزمان الذي غلب فيه أتباعه على أقطار الدنيا .. ولكن أمراً ابتدئ قبل تلك القرون لم يكن ليتهي إلى هذه النهاية لو لم يبدأ ذلك الابتداء ..

ولم يكن ذلك الأمر عقيدة التوحيد أو عقيدة الفداء أو عقيدة الثواب والعقاب ، فقبل ذلك ما سمع الناس بذلك العقائد على نحو من الأنجاء ..

ولما سُمي أبي الأنبياء لأنه كان رائد الدعوة النبوية في العالم الإنساني بأسره ، وكأنها رسالة خاصة من خالق الكون إلى كل مخلوق من بني آدم وحواء ..

## المعجزة

قلنا في صدر هذه الرسالة أن الالهتماء إلى عقيدة التوحيد كان فتحا علميا صحيحا نظر الإنسان إلى الكون والحياة ولم يكن قصارا<sup>(١)</sup> أنه فتح ديني يصحح إيمانه واعتقاده ... لأن حقائق الكون الكبرى لن تكتشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بارادة ويتسلط عليها غيره بارادة تنقضها وتغتصب بها إلى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى . بل هو علم أصلح ونظر أصوب ومقاييس لقوانين الطبيعة أدق وأوف ... .

ونقول في ختام الرسالة أن الإيمان بإمكان المعجزة فتح كفتح عقيدة التوحيد ، لأنه يخلص العقل من حجر المخالفة الواحدة التي تغلق عليه أبواب الاحتلال غير باب واحد ، هو الواقع المحدود كما يراه .

إن عقل الفيلسوف «ديكارت» قد نظر في الممكنات والمستحيلات فقرر عنده أن تغير الحقائق الرياضية نفسها ممكן غير مستحيل ، وأن تغير العقل الذي فدرك به تلك الحقائق ممكן كذلك غير مستحيل .

وعلماء العصر قد تخلصوا في ربة<sup>(٢)</sup> القوانين التي سميت زمنا بقوانين الطبيعة ، ووغر في أذهان أجيالها أنها تقيد الظواهر الطبيعية ، فلا يستطيع العقل أن يفسرها بغيرها ..

فالقانون الطبيعي اليوم فرض من فروض ، وقد تصلح الجاذبية زمنا لتفسير حركات الأخلاق ، ثم تأق النسبة فثبتت بعض العلماء أنها أصلح لتفسيرها من الجاذبية . ومهما يبلغ من دقة القانون الطبيعي فهو لا يحصر كل حقيقة ولا بد من جزء غير محصور موكل إلى التقدير والترجيح .

والإيمان بإمكان المعجزة نظر متصرف يصل إليه المؤمن بعقيدته ولم يبلغ مبلغ ديكارت في عمق الفلسفة أو مبلغ العلماء في تحفيض القوانين الطبيعية .. فإذا سأل

(١) قصارا : القصارى : الشابة والمدى . (٢) ربة : الربة بكسر الراء عروة في حبل تحمل في عنق النسمة أو يدها تمسكها .

سائل : هل يمكن أن تجري المادة على غير هذه الصورة ؟ فالذى يقول بالإمكان أصدق نظراً من يحيب بالاستحالات والامتناع ، وأصوب في وزن الكون جملة واحدة من يفرضون عليه صورة محدودة من أقدم آبادة إلى غاية آزاله ، إن كانت للأزال غاية فالمعجزة ممكنة وليس مستحيلة .

لأن مواد الكون كلها ترجع إلى أصل واحد ، وليس خصائص هذه المواد مجمولة فيها بإرادتها وليس كل خاصية منها مستقلة عن سائرها ، فإذا جاز أن يتشكل الأصل الواحد بجميع هذه الأشكال فاختلافها جائز في أحوال غير هذه الأحوال ، ولا وجه على الإطلاق للجزم باستحالة هذا الاختلاف .. إن الذي أودع في الأصل الواحد كل هذه الصور قادر على أن يودعه صوراً أخرى .. وعلى الذي يجزم باستحالة أن يقيم الدليل . أما القائل بالإمكان فالواقع هو دليله الذي يقيس عليه .

فليس المقياس الحق للمعجزة أن تسأل : هل هي ممكنة أو غير ممكنة ؟ كلا بل المقياس الحق أن تسأل عن حكمتها ولزومها ، فإن الذي يدير الكون كلها يتنتزه عن العبث ، فلا يصنع شيئاً لغير حكمة ، ولا تفوت هذه الحكمة إدراك الناس ما داموا هم المقصودين بإدراكها .

ذلك هو مقاييسنا للمعجزات ، وذلك هو المقياس الذي اعتمدناه في كتابتنا عن الرسل والدعوات الدينية ، وخلاصته التي نعيدها في هذه السيرة أن دعوة إبراهيم تفسرها حوادث عصره وتاريخ قومه من قبله ومن بعده ، وإرادة الله في هذه الحوادث هي إرادة الله في كل معجزة ، فليس في القول بهذه أو بتلك إخلال بقدرة الله على جميع الحالات .  
ونحن لا نستحسن أسلوب المفسرين الذين يفترضون الفروض لتيسير قبول المعجزة ، فإن المعجزة متى وقعت لابد أن تكون معجزة ، ولابد أن يكون الناس في النظر إليها بصراء بحقيقة غير مخدوعين فيها .

فالإيمان الصحيح أن المعجزة ممكنة ، والإيمان الصحيح أنها ممكنة لحكمة ..  
ومن الحق أن نيرز حكمة الله في الحوادث كما نيرزها في المعجزات ، وهذا الذي نصننه في دراسة الدعوات الدينية ومنها دعوة الخليل .

## خاتمة المطاف

ويتني المطاف بقصة الخليل إلى العصر الحاضر .

ويتني إلى العالم الحديث وفيه ألف مليون إنسان ، يقرأون قصتهم وقصة آبائهم وأجدادهم في العقيدة الإلهية حين يقرأون قصة الخليل .

ومن مبدئها كان مبدؤهم في الإيمان بالوحدةانية .

ومن مبدئها وهي تترج بكل ما استطاع آباؤهم وأجدادهم أن يزجوها به من صوابهم وخطئهم ، ومن علمهم وجهلهم ، وصدقهم ووهمهم ، ومن أفكارهم وأساطيرهم ، ومن كل ما يفتقرون وما لا يفتقرون تراث ضخم غاية في الضخامة .

فكيف انتهى به المطاف بعد أربعة آلاف سنة أو دون ذلك أو فوق ذلك بقليل ؟ ..

\*\*\*

كيف توزن كفتاه : كفة الصواب والعلم والصدق والإنكار ، وكفة الخطأ والجهل والوهم والأساطير .. ؟

إنها النفس البشرية بما لها من قوام صالح وغير صالح .

وإنها لن تفصل شطرين يوضع أحدهما في كفة ويوضع الآخر في كفة تقابلها ..

بل خذها جملة أو انبذها جملة ، ووازن بين الغنم والخسارة في الحالتين ..

ومن يفطن لما حوله يفطن لهذا الشأن في كل عقيدة عظيمة وكل فكرة عظيمة وكل فاتحة عظيمة تتلوها الخواتيم على قدرها من العظمة .

فالنوع البشري لم يشرب فقط فكرة عظيمة مع جرعة ماء ، ولم يستكمل عقيدة عظيمة بين ليلة وصباح .

وندع الغيب وعلوم الأبد وننظر إلى الدنيا المشهودة ومادتها التي تتناولها الأيدي كل

فمن أقدم القدم نظر الإنسان في بنية المادة ، ثم انقضى عشرون ألف سنة يصيّب فيها ويختطىء ، ولما يدرك خصائص الذرة جهيناً ، ولما يفقه من خصائصها التي عرفها سراً لها وراء القشور .

وندع الزمن وتياراته الحفية ، وننظر إلى المكان وتياراته التي تقاس وتنكال ..  
يبطأ ماء النيل ماء طهورا من السماء ، ويخترق الشرى فيأخذ من كل ما فيه من  
تراب وأذى ومن صفاء وكدر ، ويستفاد من الخليط كما يستفاد من الصفاء ..  
وهكذا كل ما يغير طبيعة الإنسان وطبيعة الأرض ، وطبيعة الدنيا وما فيها من أثرية  
الزمان وأثرية المكان ..

新概念

تقبلها جملة أو ترفضها جملة ، وتوزن بين الغنم والخسارة في الحالتين .

وازعم إن شئت أنه غنم أنت مخدوع فيه ، ولكن تزعم أيضاً أنك مخدوع في حب حياتك فليست هي أفضل حياة . مخدوع في حب نسلك فليس هو أولى بالبقاء في جميع الأحياء .. مخدوع في هذه الألوان والأصوات فليست هي ألواناً ولا أصواتاً ولكنها هزات في الفضاء أو هزات في الهواء ، وأنت مع هذا لا تعرف شيئاً ما لم تعرفها بهذه الأسماء ..

ولقد مرت بنا في أبواب هذه الرسالة أخلاط من طبائع الملائكة يمزجون بها عقائد الروح وأقدس الضمير ، ولا ينفصل المزج من المزج في روح ولا ضمير ..

من يقبلها جملة يبقى له تاريخ الإنسان كما كان وكما هو الآن ومن يرفضها جملة مازا  
يبيقي لديه ؟

إإن عليه أن يذكر ماذا يرفض ليدرك ماذا يقبل.

إنه لا يرفض الدنيا بتوازيه الدول والحضارات وكفى

إنه ليرفض هذه ويرفض معها كل بارقة أمل ، وكل نفحـة عزاء ، وكل هاجسـة سـر ، وكل رـكن من أركـان الثـقة والعزـيمة أخذـه الإلـيـانـانـ من الدـين وأخذـه أعمـالـا وأحلـاما

وخلائق وأطواراً وبراعث وأفكاراً لا تخصها الأوراق كما تخصى توارع الدول، والحضارات .

ولا يزال في جوانب الأرض من بعد الحجر ...

ولا يزال في جوانب الأرض من يقدح النار من الحجر ...

ولا غضاضة من هذا وذاك على وداع الكهرباء في الكون ، ولا على عقيدة التوحيد في أعلى مراتب التنزية .

وإن في العالم اليوم لمن يعيش فيه وكأنه لم يولد فيه إنسان يسمى إبراهيم .

\* \* \*

وربما يقى في العالم شبيه هذا الرجل بعد ألف سنة .

بل ربما كان هذا الرجل خيراً من ألف يضلون بالنبوات والأنبياء حيث يهتدى المهددون .

ولكنهم يسقطون من الحساب .

ويذكر في الحساب ألف الملائين في مائة جيل ، يقرأون قصة ضمائرهم حين يقرأون قصة إنسان واحد مضى ولم يمض لسبيله ، بل مضى على سبيله دعابة وهداة ، ولا يزالون ماضين وحاضرين .

أليس هذا الإنسان حبيب الإنسان ؟

أليس هذا الإنسان حبيب الرحمن ؟



## فهرس

خليل الرحمن وخليل الإنسان .....	٣
المراجع الإسرائيلية .....	١٣
تعقيب على مراجع العهد القديم .....	٢٩
المراجع المسيحية .....	٤٤
المراجع الإسلامية .....	٦٣
مراجع الصابئة .....	٨٤
مصادر التاريخ القديم .....	٩١
تذليل .....	١٠٤
الأحافير والتعليقـات .....	١١٤
اللغة .....	١٢٤
مدن القوافل .....	١٣١
النبوة .....	١٤٥
أنبياء من غير بني إسرائيل .....	١٥١
العوائد والشعائر .....	١٥٦
الخلاصة .....	١٧٠
العصر .....	١٧٤
النشأة .....	١٧٧
الجنوب .....	١٨٢
الرسالة .....	١٨٨
المعجزة .....	١٩٣
خاتمة المطاف .....	١٩٥

رقم الإيداع : ٩٣/٩٦٢٤  
I.S.B.N 977-14-0356-7







**To: www.al-mostafa.com**